رسائل السلام
(٧)

أدوية من الأرض

رواية

د. نور الدين أبو لحية

دار الأنوار للنشر والتوزيع

رسائل السلام

(7)

أدوية من الأرض

رواية

د. نور الدين أبو لحية

الطبعة الثانية

1436 – 2015

دار الأنوار للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

المقدمة

تحاول هذه الرواية أن تعالج بعض قضايا الصراع الخطـيرة الـتي تتعلـق بالإنسـان وصـحته وعافيتـه ، والـتي تمثلهـا جهـات متعددة:

أولها أولئـك الأطبـاء المسـتكبرون الـذين قصـروا الطب على مكتشفات هذا العصر.. وقصـروا الـدواء على تلـك المـواد الكيميائية التي تصنعها المصانع.. وحولوا من الإنسان قطع غيـار متفرقـة يعـالجون كـل واحـدة منهـا بعيـدا عن سـائر مكونـات الإنسان الحسية والمعنوية.. فلذلك لا يعالجون داء حـتى يقيمـوا بدله أدواء.. ولا يزيلوا علة حتى يضعوا بدلها عللا.

ثانيها أولئـك الفقهـاء الـذين وقفـوا موقفـا متشـددا مـع الطب البـديل ومدارسـه المختلفـة، فراحـوا يعتـبرون البرمجـة العصبية واليوغا وغيرها طقوسا وثنية محرمـة، بـل حكمـوا على من يمارسها بالشرك والضلالة[1]..

ثالثها أولئك المتلاعبون بالطب القـديم، والمتـاجرون بـه، والــذين لا يختلــف حــالهم عن حــال غــيرهم من اللصــوص والمخادعين..

ولذلك فإن هذه الرواية حاولت بكل وسائل الإقناع أن تبين أن فضل الله العظيم المرتبط بصحة الإنسان وعافيته وسـلامته أكـبر من أن يحـد في زمن دون زمن، أو نظـام دون نظـام، أو جهة دون جهة..

ففضـل اللـه في علاج خلقـه يمكن أن يكـون في الأغذيـة

---

1) من أمثلة المواقف السلبية من الطب البديل وأنواعه المختلفة موقف الشيخ د.سفر الحوالي، أستاذ العقيدة والمذاهب المعاصرة بجامعة أم القرى -سـابقاً- والداعيـة المعروف: (يجب علينا جميعا أن نعلم أن الأمر إذا تعلق بجناب التوحيد وبقضـية لا إلـه إلا الله وبتحقيق العبودية لله تبـارك وتعـالى فإننـا لابـد أن نجتنب الشـبهات ولا نكتفي فقـط بدائرة الحرام وهذه البرمجـة العصـبية ومـا يسـمى بعلـوم الطاقـة تقـوم على اعتقـادات وعلى قضايا غيبية باطنية مثـل الطاقـة الكونيـة والشَـكَرات والطاقـة الأنثويـة والذكريـة، والإيمان بالأثير وقضايا كثيرة جداً، وقد روّج لها مع الأسف كثير من الناس مع أنه لا ينبغي بحال عمل دعاية لها)

وسئلت بعض لجان الفتوى في الخليج العربي: (هل من محاذير شـرعية في لعبـة اليوغا إذا لم يكن فيها اختلاط بين الجنسين لأن اللعبـة من العلـوم الـتي اخترعهـا قـدماء الهند وقد اثبت العلم الحديث فوائد عديدة لها)، فأجابت: (.. اليوغا ليست لعبة أو رياضــة فقط، بل هي عبادة للشمس والسجود له، والممارس لهـذه الرياضـة يقـول ألفاظـا فيهـا عبادة للشمس، باللغة السانسكريتية . وهي أي اليوغا عبادة وثنية للشمس مـع أداء بعض الحركات الجسدية. فاليوغا كفر بالله العظيم، ويجب على المسلم الحذر والابتعاد عنه)

التي يتناولها الإنسان، والتي تحدث فيه آثارا مختلفة .. سواء عزونا ذلك للأخلاط والأمزجة.. أو عزوناه إلى الين واليانع.. أو عزوناه إلى الفيتامينات والمعادن.. أو عزوناه إلى ما شئنا من أسباب.. وقد تناولنا هذا الجانب المهم من (أدوية الأرض) في الفصل الأول (مطاعم الشفاء) والذي عاين فيه تلميذ السلام كيف يعالج الأطباء في العصور المختلفة الإنسان بالغذاء الذي يأكله.

وفضل الله في علاج خلقه يمكن أن يكون في (مزارع الشفاء)، وهي المزارع التي تستنبت فيها كل أنواع الأعشاب، وتجرب فيها كل أصناف التجارب، ليكتفي الإنسان بالدواء المنزل عن الدواء المصنوع.. لأن الله ما أنزل داء إلا أنزل معه دواءه الذي يعالجه.

وقد زار تلميذ السلام في هذا الفصل نماذج عن بعض الأعشاب، وسمع منها ما أودعه الله فيها من صنوف الدواء مما يغني عن الكثير من الأدوية الممتلئة بالصراع، وقد زار معها كذلك اللجان المختصة بوضع دساتير الأطباء، والتي تحمي هذا الجانب المهم من تلاعب المصارعين.

وفي الفصل الثالث تناولت الرواية (مصانع الشفاء)، وهي المصانع الحديثة التي تؤدي دورها في العلاج في حال لم تفلح مطاعم الشفاء أو مزارعه.. وقد زار التلميذ السلام في هذا الفصل اللجان المرتبطة بوضع الشروط المرتبطة بهذا النوع من الأدوية.. ومن أهمها الحكماء المرتبطون بالبحث عن (البدائل).. أو (الطب البديل) حيث التقى بسبعة حكماء، ذكر له كل واحد منهم صنفا من أصناف التداوي البديلة، والتي لا يصح إنكارها أو الإنكار عليها إذا كانت تؤدي دورها العلاجي.

وفي الفصل الأخير زار تلميذ السلام (مناسج الشفاء)، وهي المحال التي تجرى فيها العمليات الجراحية بمختلف أنواعها، وقد سمع فيها ما يرتبط بهذا الجانب من أحكام شرعية وأخلاقية.

هذه فصول هذه الرواية وأهدافها، وهي تحاول أن تنشر ثقافة صحية واعية وشرعية لتبعد القارئ عن الدجل الذي يمارسه المخادعون من الرقاة أو من إخوانهم من الأطباء الذين فرحو بعلمهم، ولم يتواضعوا لما علم الله به أهل العصور من قبلهم.

ونبه إلى أننا لم نقصد أبدا في هذه الرواية إعطاء أي وصفات علاجية لأي مرض من الأمراض، فذلك ليس من اختصاصنا، وما ذكرناه هنا هو مجرد نماذج لما ذكره المختصون، وليس الهدف منها ذاتها، وإنما الهدف منها أن تكون نماذج وأمثلة تحاول أن تقنع القارئ بما نريد طرحه من أفكار.

وأحب أن أذكر هنا عاملا نفسيا قد يكون وراء تأليفي لهذه الرواية..

وهو أنني من شبابي الباكر كنت أعاني من التهاب اللوزتين بين الفينة والفينة، وكنت أزور الطبيب لأجل ذلك، وكان يعطيني في كل مرة المضادات الحيوية وغيرها من الأدوية التي كنت أعاني في استعمالها.. وذات يوم التقيت رجلا بسيطا كان يعمل فلاحا، وكنت حينها مصابا بالتهاب اللوزتين، وأخبرته عن معاناتي مع الأطباء بسببها.. فدلني على وصفة شعبية بسيطة .. بمجرد أن عدت إلى بيتي استعملتها.. وما هي إلا أيام معدودة حتى عادت لي صحتي.. وبقيت منذ ذلك الحين، أستعمل تلك الوصفة.. وقد آتت ثمارها ليس مع التهاب اللوزتين فقط، بل مع غيرها من الأدواء..

وهذا ما جعلني أبحث عن العلاج المرتبط بالكثير من الحالات المرضية التي تعرض لي أو لأهلي.. والحمد لله جعلنا ذلك نستغني عن الكثير من الأدوية التي يدمن الناس عليها، والتي تؤدي إلى مضاعفات جانبية خطيرة..

ربما يكون هذا هو العامل النفسي لتأليفي لهذا الكتاب.. ولكن العامل الأهم منه هو حبي للسلام.. وبغضي للصراع .. وأعظم صراع يمارسه الطب الحديث، أو بعض الأطباء المعاصرون هو معاداتهم لتجارب الشعوب المختلفة من غير بحث ولا بينة.. فبمجرد جهلهم بأسباب العلاج التي وضعوا هم تفسيرها ينكرون تلك التجارب متجاهلين كل الملايين من البشر الذين لم يعرفوا في سالف الدهور غيرها.

البداية

في ذلك اليوم الذي زارني فيه معلم السلام كنت ممتلئا هما وحزنا للتجارة التي يمارسها المصارعون بجسد الإنسان في هذه الأرض التي امتلأت فسادا وصراعا.

فلم يكن الأمر متوقفا على أولئك الرقاة اللصوص الدجاجلة الذين راحوا يبتزون الناس بالخرافة والشعوذة ليخرجوهم من العالم الذي أسكنهم الله فيه إلى عوالم الجن والعفاريت والسحرة والشياطين، بل تعداه إلى أولئك الأطباء العصرانيين الذين فتح الله عليهم الكثير من الفتوح المرتبطة بجسد الإنسان.. فلم يتواضعوا، ويحمدوا الله على تلك النعمة، ويستزيدوه من فضله.. بل راحوا يصيحون بما صاح به قارون حين قال: إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي (القصص: 78)

وليتهم اكتفوا بذلك، بل راحوا يتكبرون على كل الأمم التي فتح الله عليها قبلهم من فتوح الطب ما فتح.. وكأن الطب لم يعرف إلا بمجيئهم.. وكأن البشر قبلهم كانوا يعيشون في الوهم.. وكأن الله لم يرحم عباده في كل العصور السابقة حتى جاء عصرهم، وتداركوا هم ما رأوه قاصرا من رحمة الله.

لم يكن هذا وحده يغيظني ويؤلمني، بل كانت تلك الجفوة والغلظة التي أرى الأطباء، وهم يتعاملون بها مع المرضى، وكأنهم حشرات أو فئرانا بيضاء.. وأرى بعد ذلك الصيادلة، وهم يبيعون الدواء المزيف والمغشوش والممتلئ بالسموم من دون أن يشعروا بألم أو وخز ضمير.

في تلك الحالة من الكآبة والألم والصراع جاءني معلم السلام، وهو يقول: لقد زرت أدوية السماء.. فهلم لتزور أدوية الأرض.

قلت: حسبي بأدوية السماء.. فقد ملأتني أدوية الأرض ألما.

قال: أدوية الصراع هي التي ملأتك ألما .. أما أدوية الأرض التي أنزلها الله لعباده، فلا تختلف عن أدوية السماء.. فالأرض والسماء كلاهما من الله ولله وبالله.

قلت: أليست أدوية الأرض هي التي أنتجتها المصانع.. تلك التي تباع في الصيدليات.. والتي يتلاعب بها المصنعون بحسب ما يحلو لهم؟

قال: منها ما هو من أدوية الأرض.. ومنها ما هو من أدوية الصراع..

قلت: لم أفهم..

قال: ستفهم.. سر معي.. وسلم لي.. وستمسح عن صدرك كل الآهات..

سرت معه - كما تعودت - في عوالم ممتلئة بالغرابة إلى أن نزل بي في أرض عجيبة..

فجأة لاح لنا رجل عليه سيما الصالحين جالسا لا يكاد يستطيع حراكا، وفوق رأسه شيخ وقور، يقول له بشدة مصحوبة بلين، وقوة مكسوة برحمة: انهض من كبوتك أيها الجبل الشامخ، واحمل سيوف الله التي جعلها في يدك، وثر بها على أناتك، لتحول جدبها ربيعا، وحزنها ابتسامة، وسقوطها صعودا.

فالله الذي ابتلاك هو الذي علمك كيف تخرج من بلائك.. كيف تخرج منتصرا لا منهزما، ممتلئا بالغنائم لا خاوي الوفاض منها.

والله الذي أنزل الداء هو الذي أنزل الدواء، والذي قدر المحن هو الذي وهب المنح، فارجع إليه ليعلمك كيف تثور على بلائك، وكيف ينهض جوادك من كبوته ليواصل سيره إلى الله.

انهض لتردد مع إبراهيم ﵇: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾(الشعراء:80)، وتتلو مع أيوب ﵇: ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾(الانبياء:83.. وتضرع في إلحاحك ودعائك.. لتسمع ـ بلا حرف ولا صوت ـ كلام طبيب الكائنات، وهو يقول لك: ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾(صّ:42)

قال الرجل: بم؟.. ليس لدي القدرة على المواجهة، وليس لدي أسلحة.. ثم ألست في مدائن السلام؟.. فكيف يستقيم السلام مع الحرب؟.. وكيف تستقيم الطمأنينة مع الثورة؟

قال الشيخ: لا تكون الطمأنينة إلا بالثورة.

قال الرجل: لم أفهم.

قال الشيخ: ماذا تفعل إذا أردت أن تبذر البذر لينبت لك العشب والثمر؟

قال الرجل: أثير الأرض.. أحرثها.. أقلبها.. أرفع الحجارة عنها.

قال الشيخ: وهكذا كل أرض.

قال الرجل: ولكني لست أرضا.

قال الشيخ: ألم تسمع قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ (الروم:20)؟

قال الرجل: بلى، فما وجه الإشارة فيها؟
قال الشيخ: كما أن الأرض تثار بالحرث، فأنت أيضا تثار..
قال الرجل: بم؟
قال الشيخ: بالإرادة والمواجهة والتحدي.
قال الرجل: التحدي!؟.. أأتحدى أقدار الله؟
قال الشيخ: بأقدار الله.. فالله تعالى قدر لكل شيء مقاديره.. ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾(القمر:49)
ولذلك، فإنه من البلاهة والحمق مصادمة القوانين التي خلقها الله ونظم بها كونه، لأن المصادمة حينئذ لا تكون للقوانين، بل تكون لله، واحترام القوانين هو تعظيم لله، وعبودية له.
قال الرجل: ولكن.. أليس في انشغالنا بالله ما يغنينا عن مواجهة مقادير الله.. ألم نخلق للعبودية؟.. فما حاجتنا للمواجهة التي تحمل بذور الصراع؟
قال الشيخ: عبودية المواجهة لا تختلف عن عبودية طاعة أوامر الله ونواهيه، فالله الآمر الناهي هو الله الذي وضع قوانين الشمس والمياه والأمطار والأمراض والشفاء.
قال الرجل: ولكن الأولياء الذين نتنفس بأريج عطرهم يخالفونك.
قال الشيخ: كيف يخالفوني، ونحن نهتدي بمشكاة واحدة، ونشرب من نبع واحد؟
قال الرجل: ألم تسمع قول بعضهم:(حججتُ أربع عشرة حَجَّة، حافياً، على التوكل.. فكان يدخل في رجلي شوكة، فأذكر أني قد اعتقدت على نفسي التوكل، فأحكها في الأرض وأمشي!)
فقد تصور هذا الولي الصالح أن إخراج الشوكة المؤذية من رجله مناقض للتوكل الذي هو أسمى علاقات العباد بالله.
ألم تسمع قول بعضهم:(إني لأستحي من الله أن أدخل البادية وأنا شبعان، وقد اعتقدت التوكل لئلا يكون شبعي زاداً أتزود به!)!؟
ألم تسمع قول الآخر:(دخلت البادية مرة بغير زاد، فأصابتني فاقة، فرأيت المرحلة ـ محطة الاستراحة ـ من بعيد، فسررتُ بأني قد وصلت، ثم فكرت في نفسي: أني سكنت واتكلت على غيره تعالى، فآليت ألا أدخل المرحلة، حتى أُحمَل إليها، فحفرت لنفسي في الرمل حفرة، وواريت جسدي فيها إلى صدري! فسمعوا صوتاً في نصف الليل عالياً يقول: يا أهل البادية؛ إن لله تعالى ولياً حبس

نفسـه في هـذا الرمـل فـالحقوه.. فجـاءني جماعـة فـأخرجوني وحملوني إلى القرية)!؟

ألم تسمع حكاية من وقع في بئر، فنازعته نفسه أن يستغيث، فقال: أراد الله ألا أستغيث.. ومر رجلان، فقال أحدهما للآخر: تعال نسد رأس هذه البئر لئلا يقع فيها أحد.. وشرعا يفعلان، وقـد همَّ أن يصـيح، ثم قـال في نفسـه: أصـيح (أي أشـكو) إلى مًن هـو أقـرب منهما! إلى الله سبحانه، وسكن لهذا الخاطر، فيما هو بعـد سـاعة، إذا هو بشـيء جـاء، وكشـف عن رأس البـئر، وأدلى رجلـه، وكأنـه يقول له: تعلق بي، قال: فتعلّقتُ به فأخرجني، فإذا سبع!؟

قال الشيخ: رحم الله الأولياء، ورضـي عنهم، ورزقنـا محبتهم، ولكنهم قد يمرون بأحوال تخـالف العلم.. فلا ينبغي اتبـاعهم فيهـا.. ألم نـؤمر باتبـاع اللـه ورسـوله والتسـليم في حـال التنـازع للـه ورسوله؟

قال الرجل: بلى.. قد قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا أَطِيعُـوا اللَّهَ وَأَطِيعُـوا الرَّسُـولَ وَأُولِي الْأَمْـرِ مِنْكُمْ فَـإِنْ تَنَـازَعْتُمْ فِي شَـيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ (النساء:59)

قال الشيخ: فقد قال اللـه تعـالى: ﴿ وَتَـزَوَّدُوا فَـإِنَّ خَيْـرَ الـزَّادِ التَّقْوَى﴾ (البقرة:197)، فالله تعالى أمرنا بأخـذ الـزاد، وهـو أمـر لا يختلف عن أي أمر إلهي آخر، ومن سوء الأدب مع الله اعتبار بعض الأوامر واحتقار بعضها.

قال الرجل: ولكن الصالحين المتـوكلين على اللـه أمـدوا من المدد الإلهي ما جعلهم مستغنين عن مدد الأسـباب.. لقـد اسـتغنوا بمسبب الأسباب عن الأسباب.

قـال الشـيخ: أليس من العجب أن نطلب من اللـه قـوانين خاصة بنا تنسخ قوانين الكـون.. وكأننـا من الطبقـة الارسـتقراطية التي لا يرضيها أن تعامل كما تعامل طبقـة البروليتاريـا.. ألم يعطنـا الله من الأدوات ما يجعلنا نسخر الأشياء لمصالحنا وبإذنه لنا؟

قال الرجل: بلى..

قال الشيخ: فالأدب مع الله أن لا نخرق سنن الله.. فإن شـاء الله أن يخرقها لنـا، فـذلك لـه.. ألم تـر أن النـبي ﷺ عـرج بـه إلى السموات العلا.. ولكنه اضطر إلى الهجرة متخفيا يقطع الصحاري.. ولم يلح له أن يطلب من الله أن يرسل البراق ليضعه في المدينة.

قال الرجل: أنبحث عن الدواء إذن؟

قال: أدوية الأرض، وأدوية السماء.. فقد جعـل اللـه في كونـه الأدواء والأدوية، والصحة والمرض، وجعل قـوانين لكـل ذلـك، فمن قاوم الداء بالدواء ظفر بالعافية، وفاز بالصحة، وكان عبـدا للـه في ذلك، فالله ما خلق العافية إلا لنتناولها.

ومن قصر في الأسباب وقعد عنها، وطلب من الله أن يناولـه إياها من غير أن يكلف نفسه عنتا مخطئ في طلبه، ومسيء أدبـه مع ربه.

قام الرجل، وقبل رأس الشيخ، ثم سار معه.

***

قلت للمعلم: من هذا الشيخ.. فإني أراه بقوة الخلفاء، وحزم الأمراء، وحلم العلماء.

قال: ألا تعرفه؟.. إنه مدير مخابر مدائن السلام.

قلت: أهذا هو المدير؟.. كم كنت أود أن أراه؟.. لكن ما الـذي أخرجه من مكتبه الدافئ إلى هذا القسم؟

قال: ومن قال لك بأن له مكتبا دافئا؟

قلت: أمكتبه بارد؟.. أليس لديه مكيفات؟

قـال: لا.. ليس لـه مكتب أصـلا.. إن عملـه هـو التجـول في أركان أقسام المخابر.. ومعاينة الأطباء والمرضى، وإسـداء النصـح للجميع.

قلت: فمن ولاه مديرا؟

قـال: علمـه وخبرتـه وإيمانـه وسـلوكه، وقبـل ذلـك وبعـده سلامه.. فلا يمكن لأحد أن ينال مثـل هـذه الوظيفـة الخطـيرة من دون أن يتخرج من جامعة السلام بعد أن يمـر على جميـع مراحـل تعليم السلام.

قلت: ألم ينتخب؟

قال: لقد قلت لك بأن انتخابـه تم من طـرف سـلوكه وعلمـه خبرته.

قلت: وزملاؤه.. أليس فيهم من ينافسه؟

قـال: المنافسـة تكـون في مـدائن الصـراع، لا في مـدائن السلام.. ثم لماذا ينافسونه؟ وعلى ماذا ينافسونه؟

قلت: على الحظوظ التي ينالها المدراء.

قال: لم يصر مديرا إلا بعد أن تخلى عن كـل الحظـوظ، فمن طلب الحظوظ وكل إليها وشغل بها.

قلت: أيمكن أن نتحدث معه؟

قال: أجل..
قلت: بدون أن نقدم لذلك طلبا.
قـال: ولمـاذا تقـدم الطلب؟.. إن وظيفتـه أن يسـتجيب، فلم يتول هذه المسؤولية إلا ليستجيب لمن يحتاجه.
قلت: فأين أجده؟ فقد سار مع الرجل.
قال: ستجده في هذا القسم.. وفي كل محل تذهب إليه.
قلت: ولم؟.. ألا يهتم بغير هذا القسم؟
قـال: لا.. هـو يهتم بالأقسـام جميعـا.. ولكن لهـذا القسـم خصوصية تختلف عن سائر الأقسام، فلذلك تراه يعطيه كل جهده.
قلت: وما خصوصية هذا القسم؟
قال: هذا القسم هو القسـم الـذي يتم فيـه البحث عن أدويـة الأرض، وأدوية الأرض كثيرة بكثرة العلـل، وهي متجـددة بتجـددها، فلذلك لا ينام أهل هذا القسم أبدا.. بل هم في بحث مسـتمر.. بـل إن لهم مراسلين إلى جميع أنحاء العـالم يخـبرونهم عن كـل جديـد لـيروا مـدى موافقتـه لقـوانين أهـل السـلام، ليتخـذوه علاجـا، أو ليرفضوه.

***

دخلت القسم، وقد كتب على بابـه قولـه ﷺ: (لكـل دَاءٍ دواء، فإذَا أصيبَ دَوَاء الداء، بَرَأَ بإذن الله عَز وجَل)(1)
وقد دهشت لمنظره، فهو قسم غايـة في الجمـال والتنظيم، لست أدري هل كان مزرعة، أم حقل تجارب، أم مخبرا كيميائيا، أم مصنع أدوية، أم مصنع أنسجة..
وكان يعج بالخبراء الذين يبـدو عليهم الانشـغال التـام، فهم لا يلتفتون لأحد، ولا يكاد أحد يلتفت لهم.
قلت للمعلم: ما هذا القسم؟ ومن هؤلاء؟
قال: هذا القسم هو الذي تصنع فيـه جميـع الأدويـة، وتحـارب فيه جميع العلل.
قلت: ولكن عللا كثيرة لا تزال تنخر أجسام البشر.
قـال: وهـؤلاء يبحثـون عن علاجهـا.. ويبحثـون عن علاج علـل تصورتم أنكم قد وصلتم إلى علاجها.
قلت: فلم يبحثـون فيمـا قتـل بحثـا؟.. أليس من المجـدي أن يبحثوا فيما لم يبحث فيه؟
قـال: لا.. فقـد وضـعتم أنواعـا كثـيرة من العلاج لا تصـلح

---

1) مسلم.

للإنسان.. فهي تسالم عضوا، وتصارع أعضاء، ولا يرضى أهل السلام بالصراع، فلذلك يبحثون عن أدوية السلام.

قلت: فكيف يعالج المرضى بهذه الأدوية؟

قال: لقد مررت على قسم البركة، فبه يبدأون.. فيستعمل المرضى ما فيه من أنواع العلاج.. وأكثر المرضى يخرجون منه، وقد عادت إليهم صحتهم، وارتدت إليهم عافيتهم.

قلت: فإن لم تجد فيهم البركات؟

قال: يعالجون بأدوية الأرض..

قلت: وما هي؟

قال: أربعة.

قلت: أعلم أنها أربعة.. ولكني أبحث عن ماهيتها.

قال: في هذا القسم أربعة مراكز للعلاج، كل قسم منها يعالج بنوع من أنواع الأدية.

قلت: فما المركز الأول منها؟

قال: يسمونه هنا مطاعم الشفاء، وهو مركز يهتم بالبحث فيما جعل الله في الأغذية من أسرار الشفاء.. بالإضافة إلى أنه يبحث في الأغذية المناسبة للعلل المختلفة.

قلت: ولم كانت مطاعم.. ولم تكن مطعما واحدا.. أهناك شركات مختلفة تتولى إدارة هذه المطاعم؟

قال: لا.. ولكنها قسمت على أساس المناهج التي تتبعها في العلاج بالغذاء.. وقد تركت إدارة هذا المستشفى الحرية لكل مطعم في إطعام مرضاه ما يشاء ما لم يكن حراما.

قلت: فالقسم الثاني؟

قال: هم يسمونه (مزارع الشفاء)

قلت: أهي مزارع حقيقة أم من باب المجاز؟

قال: هي حقيقة، فأهل هذا القسم لا يعرفون المجاز.

قلت: عهدي بالمزارع في الحقول، لا في المخابر والمستشفيات.

قال: في هذا القسم تستنبت جميع أعشاب العالم لتجرى عليها جميع أنواع الاختبارات ليستخلص من كل عشب ما وضع الله فيه من أسرار الشفاء.

قلت: أهناك فئران تجارب إذن؟

قال: هناك أشياء لم ترها طول عمرك.. وستراها هنا، فاحفظ سرها.

قلت: فما هو القسم الثالث؟

قال: يسمونه هنا (مصانع الشفاء)

قلت: فيه آلات إذن.

قـال: أجـل.. من كـل الأنـواع.. وهـو قسـم لا يلجـأ إليـه إلا للضرورة القصوى.

قلت: فالأدوية الكيمياوية تصنع في هذا القسم؟

قال: أجل.. ولكنها تظل آخر المـراتب، فلا يلجـأ إليهـا إلا كمـا يلجأ المضطر لأكل الميتة.

قلت: لم؟

قـال: لغرابتهـا عن حققـة الإنسـان.. فطبيعـة الإنسـان تـأبى التصنيع، وتأنف الابتداع.

قلت: ولكن أساسـها قـد يكـون من الطبيعـة.. بـل هـو من الطبيعة.

قال: ولكنه يمزق عن أصله.. فيشوه خلقه، ويكدر صفوه.

قلت: فما هو القسم الرابع؟

قال: هو ما يطلقون عليه:(مناسج الشفاء)

قلت: أينسجون فيه الثياب، أم الأكفان؟

قـال: لا.. في هـذا القسـم يعامـل الجسـد كـالثوب.. فـيرقع ويقطع وينسج.

قلت: فهمت.. تقصدون به العمليات الجراحية.

قـال: أهـل هـذا المستشـفى يحبـون صـناعة النسـيج.. لأنهـا صناعة ترمـز إلى السـلام بخلاف العمليـات، فقـد اختلطت بـألوان الصراع.

قلت: فهل سنزور هذه الأقسام جميعا.

قال: لا مناص لنا من ذلـك.. وسـيكون مرشـدك فيهـا المـدير الذي رأيته..

قلت: فهل هو كإخوانه نقطة تحت الباء.

قال: لن يصـل أحـد إلى بحـار السـلام حـتى يتضـمخ بمسـك النقطة التي تحت الباء.

قلت: فمتى نلتقي؟

قال: إذا عرفت متى نفترق.. عرفت متى نلتقي.

قلت: أتبقى معي؟

قال: من حيث تراني.. أو من حيث لا تراني.

***

في هذه الرسالة نرحل إلى مخابر مـدائن السـلام المختصـة بالأدوية التي اكتشفها البشر، أو اخترعها البشر.. لنعلم صدق قولـه ﷺ:(إن الله لم يُنزل داءً إلا أنزل له شفاء، علمه مَن علمـه وجهلـه مَن جهله)

وهذه الأدوية التي نراها في هذا القسم لا نعرضها ليعـالج بهـا المرضـى فقـط، أو لنعـرف بهـا موقـف أهـل السـلام منهـا، وإنمـا نعرضـها ليمتلئ المرضـى بالأمـل الـذي يملأ أنينهم بالابتسـامة، فلا يقتل المريض مثل اليأس، ولا يشرح صدره مثل الأمل.

أولا ـ مطاعم الشفاء

دخلت مع المعلم إلى القسم الأول من أقسام أدوية الأرض، فرأيت على بابه لافتة كتب عليها قوله تعالى: ﴿ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ ﴾ (الكهف:19)

ورأيت داخلها ما ملأني بالعجب.. لقد رأيت أجهزة كثيرة، منها القديم الموغل في القدم، ومنها الحديث الذي رأيت مثله بين قومي، ومنها ما لا أحسب إلا أنه من اختراعات أهل مدائن السلام.

سألت المعلم عن سر الآية، وسر ما يوجد في هذا القسم من ألوان الآلات، فقال: هذا هو مخبر المطاعم.. ليس لأهله من هم سوى البحث عن أسرار الشفاء التي ملأ الله بها أقوات الأرض.

قلت: والآية؟

قال: إن الهدف من البحث في أسرار الشفاء في الأغذية هو الوصول إلى هذا الغذاء الذي طلبه أهل الكهف.. فإنهم طلبوا أزكى طعام.. وكل من تراه من الخبراء في هذا القسم يجهد نفسه للوصول إلى هذا النوع من الغذاء.

قلت: أكل هؤلاء يؤمنون بتأثير الغذاء في الشفاء.. فإن من قومي من لا يؤمن بالشفاء إلا في الأقراص والحقن؟

قال: أجل.. واسأل من شئت منهم.. فسيجيبك.. فهم كأدواتهم.. منهم الموغل في القدم.. ومنهم من لم تره بعد.

قلت: أهم يمثلون المطاعم التي يمتلئ بها هذا القسم؟

قال: أجل.. فأنواع الأغذية التي يأكلها المرضى الوافدون إلى مطاعم الشفاء تطبخ هنا..

قلت: على حسب رغباتهم.

قال: لا.. على حسب رغبات الخبراء.. فكل مريض يأكل ما يتناسب مع علته، ليكون علاجا لها.

قلت: فكم عدد المطاعم الموجودة.. والتي تمثل مناهج العلاج بالغذاء؟

قال: هي كثيرة جدا.. ولا نستطيع حصرها ولا زيارتها جميعا.

قلت: فهل سنكتفي بأربعة كما تعودنا؟

قال: لا بد من ذلك.. ففي الأربعة ما يدلنا على أصول معظم مناهج العلاج بالغذاء.

قلت: فما المطعم الأول؟
قـال: هـو مطعم يعتمـد القـوى والأخلاط.. فيـداوي الأخلاط بالقوى.
قلت: لم أفهم..
قال: ستفهم.
قلت: فالثاني؟
قال: هو مطعم يعتمد الين واليانغ.. فيداوي بهما.
قلت: فما الين.. وما اليانغ؟
قال: ستفهم ذلك من أهله.
قلت: فالثالث؟
قال: هو اجتهاد لبعض المعاصرين حاول استنباطه من القرآن الكريم، سماه الغذاء الميزان.
قلت: فلم لم يكن من أدوية السماء؟
قال: نعم هو من أدوية السـماء.. ولكنـه يعتمـد منـاهج تعتمـد أساليب أهل الأرض.
قلت: فهو وسط بينهما.
قال: هو مزيج منهما.
قلت: فالرابع؟
قـال: هـو مطعم يعتمـد على مـا تعرفونـه من العناصـر والمركبات.
قلت: إذن هو مطعم عصري.
قال: أجل.. ولكنه يحمل لباس أسلافه.

القوى والأخلاط

دخلت المطعم الأول من مطـاعم الشـفاء.. فـرأيت قومـا يلبسون ثيابا عتيقة، ويحملون أسفارا ضخمة.
اقـتربت منهم، وهمسـت في أذن أحـدهم قـائلا: هـل أنت طبيب؟.. فإني أريد أن أسألك سؤالا له علاقة بالطب؟
فانتفض كانتفاضـة العصـفور قـائلا: ألي تقـول هـذا؟.. وكيـف يـؤذن لي أن أدخـل هـذا القسـم إن لم أكن طبيبـا؟.. ثم كيـف لا تعرفني؟.. فأنا أبو بكر محمد بن زكريا الرازي[1].

1) هو أبو بكر الرازي، من علماء القرن الثالث الهجري، اشتهر بالطب والكيمياء، ولد في مدينة الري جنوبي طهران بفارس، واشتهر بعلوم الطب والكيمياء، وكان يجمع بينهما لـدى وضـع الـدواء المناسـب لكـل داء. ويعتـبره المؤرخـون من أعظم أطبـاء القـرون الوسطى، فقد جاء في كتاب الفهرست: كان الرازي أوحد دهره، وفريد عصره، وقد جمع

قلت: أعرفـك.. ولكن قـومي يعتبرونـك وأمثالـك أقـرب إلى الفلسـفة منكم إلى الطب.. وبالفعـل فطبكم لا يختلـف كثـيرا عن الفلسفة.

قــال: ومن قــال ذلــك؟.. لقــد مارســت الطب في أكــثر المستشفيات ودرسته، وتركت فيه تراثا عريضا.. ألم يبلغكم؟

قلت: ولكن ....!؟

قـاطعني، وقـال: ألم تسـمع قـولي في كتـاب (المرشـد أو الفصول):(ليس يكفي في أحكام صـناعة الطب قـراءة كتبهـا، بـل يحتاج مع ذلك إلى مزاولة المرضى، إلا أن من قرأ الكتب ثم زاول المرضى يستفيد من قبل التجربـة كثـيرا، ومن زاول المرضـى من غير أن يقرأ الكتب، يفوته ويذهب عنه دلائل كثـيرة، ولا يشـعر بهـا البتة. ولا يمكن أن يلحق بها في مقدار عمره، ولو كان أكثر النـاس مزاولة للمرضى ما يلحقه قارئ الكتب مـع ادنى مزاولـة، فيكـون كما قال اللـه عـز وجـل: ﴿ وَكَـأَيِّنْ مِنْ آيَـةٍ فِي السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾(يوسف:105)

قلت: فهل كنت تعتمد على الغذاء في علاجك؟

قال: أجل.. ألم تسـمع قـولي:(إن اسـتطاع الحكيم أن يعـالج بالأغذية دون الأدوية فقد وافق السعادة)؟

قلت: لا..

قـال: مـا أعظم تقصـيرك.. كيـف أذن لـك في دخـول هـذا القسم، وأنت بهذا الجهل؟

قلت: اعذرني، فإني من جيـل آخـر.. جيـل ينكـر الكثـير ممـا ترونه.

قال: كيف هذا؟.. أيرمون بالغيب؟.. لقد كنت أعالج المرضـى بالغذاء فيهبـون معـافين بلا علـة ولا ضـرر، ألم تقـرأ كتـابي (من لا

المعرفة بعلوم القدماء، سيما الطب.

وقد ترك عدداً كبيراً من المؤلفـات، ضـاع قسـم كبـير منهـا. فمن مؤلفاتـه المعروفـة (الطب الروحـاني)، ثم كتـاب (سـر الأسـرار)، أمـا كتـاب (الحـاوي) فهـو من أعظم كتب الطب التي ألفها، ومن المؤلفات الأخرى (الأسـرار في الكيميـاء) الـذي كـان مرجعـاً في مدارس أوروبا مـدة طويلـة، وكتـاب في (الحصـبة والجـدري) الـذي عـرض فيـه أعـراض المرضين والتفرقة بينهما، كما لـه (كتـاب من لا يحضـره طـبيب) المعـروف باسـم (طب الفقراء) وفيه شرح الطرق المعالجة في غياب الطبيب منا يعدد الأدويـة المنتشـرة الـتي يمكن الحصول عليها بسهولة... وقد أربت مؤلفاته على المائتين وعشرين مخطوطة.

وقد سلك في أبحاثه مسلكاً علميـاً، فـأجرى التجـارب واسـتخدم الرصـد والتتبـع، ممـا أعطى تجاربه الكيميائية قيمة خاصة، حتى إن بعض علماء الغرب اليـوم يعتـبرون الـرازي مؤسس الكيميـاء الحديثـة. وقـد طبـق معلوماتـه الكيميائيـة في حقـل الطب، واسـتخدم الأجهزة وصنعها.

يحضره الطبيب)؟

قلت: لا..

قال: لعلك قرأت (طب الفقـراء)، وقـد اسـتوحي ابن الجـزار القيرواني منه كتابه:(طب الفقراء والمساكين)؟

قلت: لم أقرأ هذه الكتب جميعا.. ولست طبيا.. إنما أنا مجرد تلميذ في مدرسة السلام الابتدائية.

قال: ما دمت قد عرفت قدرك، فاسمع مني.

قلت: كلي آذان صاغية.

قـال بنـبرة حزينـة: لمـا رأيت كثـيرا من الفقـراء والمسـاكين يعجزون عن أن ينـالوا منـافع الكتب لفقـرهم، رأيت أن أعتمـد في شفاء المرضى على الأطعمة والأشـربة.. ليس هـذا كتـابي الوحيـد لقـد ألفت كتبـا في الأدويـة المفـردة، وكتبـا في الأدويـة المركبـة وغيرها من فنون الطب.. ولكن الكثير منها ضاع للأسف..

قلت: فالهدف إذن من العلاج بالغذاء هو تسلية الفقراء فقط.

قال: لا.. نحن لا نكذب عليهم، بل نعالجهم بالغذاء، كما نعـالج الأغنياء(1).

اقترب مني رجل كان يتصنت علينا، فقال: ما أكثر حـديثك يـا أبا بكر عن نفسك.. أنسيت أنك في مدائن السلام.

قال الرازي: أنا لا أحدثهم عني.. بل أحدثهم عن علمي.

قال: فقد سألك سؤالا.. ولم تجبه.

قال الرازي: فأجبه أنت.

قلت: قبل أن تجيبني.. أخبرني أولا من أنت؟

---

1) ذكر بعضهم أن من الأسباب التي عزفت بالأطباء عن وصف العقاقير هـو الشـفقة على المرضى الفقـراء وذكـر حجـة لـذلك أن الأطبـاء كـانوا يتقاضـون أجـورا باهظـة من الأغنياء والأمراء، وكانوا يصفون أدوية مركبة ومستوردة من الهند والصين وبلاد نائية.

وقد ذكر المؤرخون هذه الأجور وتباهى بها أمثال ابن سينا حين قال عندما اتصل به أبو عبيد الجورجاني:

لما عظمت فليس مصر واسعي لما غلا ثمني عدت المشتري

ولاشك، في أن بعض الأطباء حرصوا على جمع المال بشتى الطرق، وهذا عام في كل العصور، ولكن الكثيرين اشتهروا بكرم خلقهم وبرحمتهم بالمرضى ووضـعوا لمهنتهم مثلا عليا مثال ذلك ما قاله الرازي:« ينبغي أن تكون حالة الطبيب معتدلة، لا مقبلا على الدنيا كلية ولا معرضا عن الآخرة كلية، فيكون بين الرغبة والرهبة »

وقد ورد عنه أنه كان كريما متفضلا، بارا بالناس، حسن الرأفـة بـالفقراء والأعلاء حـتى كان يجري عليهم الجرايات الواسعة، وأنه كان رؤوفا بالمرضى مجتهـدا في علاجهم وفي برئهم بكل وجه يقدر عليه.

وروى علي بن رضـوان في سـيرته الذاتيـة:« وأجتهـد في حـال تصـرفي في التواضـع والمداراة وغيث الملهوف، وكشف كربة المكروب وإسعاف المحتاج، وأجعـل قصـدي في ذلك الالتذاذ بالأفعال والانفعالات الجميلة »

قال: ما بالك ألا تعرفني؟.. فأنا أشهر من نار على علم.. أنا ابن النفيس علاء الدين، أبو الحسن، علي بن أبى الحزم القرشى الدمشقي[1].. ليس فيكم من يجهل هذا الاسم.. أنا مكتشف الدورة الدموية.. أنا الذي قيل عني:(وأما في الطب فلم يكن على وجه الأرض مثله في زمانه)، وقيل:(ولا جاء بعد ابن سينا مثله).. ألم تسمع قصتي مع الحمام؟

قلت: لا..

قال: عجبا.. لقد دخلت الحمام، ذات مرة، فلما كنت في بعض تغسيلي خرجت إلى مشلح الحمام، وطلبت دواة وقلما وورقا وأخذت فى تصنيف مقالة فى النبض إلى أن أنهيتها، ثم عدت ودخلت الحمام وكملت غسلي.

قلت: فلم لم تنه حمامك أولا؟

قال: لقد كنت شغوفا بالعلم والتأليف بحيث لا أصبر عنهما.. ألم تسمع ما قيل عني؟

قلت: وما قيل؟

قال: قالوا:(كان إذا أراد التصنيف توضع له الأقلام مبرية، ويدير وجهه إلى الحائط، ويأخذ في التصنيف إملاء من خاطره، ويكتب مثل السيل إذا تحدر فإذا كل القلم وحفي رمى به، وتناول غيره لئلا يضيع عليه الزمان في بري القلم)

قال الرازي: لقد قصروا في وصفك.. فأنت أعظم من ذلك بكثير.. فادخل الموضوع.. فقد سأل عن سر التداوي بالغذاء.. ولم يسأل عن ابن النفيس.

قال ابن النفيس: أجل.. وأنا لم أقدم هذه المقدمات من باب الحديث عن نفسي، معاذ الله، فأنا أحقر شأنا من أن أعطي

---

1) هو أبو الحسن علاء الدين علي بن أبي الحزم، وهو طبيب وعالم وفيلسوف، ولد بدمشق سنة 607 هجرية، وتوفي بالقاهرة سنة 687 هجرية.

لم تقتصر شهرة ابن النفيس على الطب، بل كان يعد من كبار علماء عصره في اللغة، والفلسفة، والفقه، والحديث. وله كتب في غير المواضيع الطبية، منها: الرسالة الكاملية في السيرة النبوية، وكتاب فاضل بن ناطق، الذي جارى في كتاب (حي بن يقضان) لابن طفيل، ولكن بطريقة لاهوتية لا فلسفية.

أما في الطب فكان يعد من مشاهير عصره، وله مصنفات عديدة أهمها: المهذّب في الحالة (أي في طب العيون)، المختار في الأغذية، شرح فصول أبقراط، شرح تقدمة المعرفة، شرح مسائل حنين بن اسحق، شرح الهداية، الموجز في الطب (وهو موجز لكتاب القانون لابن سينا)، شرح قانون ابن سينا، بغية الفِطن من علم البدن، شرح تشريح القانون الذي بيّن أن ابن النفيس قد سبق علماء الطب إلى معرفة هذا الموضوع الخطير من الفيزيولوجيا بحيث أنه وصف الدوران الرئوي قروناً قبل عصر النهضة.

نفسي ما لم يعطها الله(1).. ولكني تحدثت عنها ليعلم صدقي فيما أقــول، ألم يقــل يوســف عليه السلام: ﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَــزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ (يوسف:55)

قلت: اجعلني في حل يا ابن النفيس، فقد أسأت بك الظن.

قــال: ﴿ سَــوْفَ أَسْــتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُــوَ الْغَفُــورُ الــرَّحِيمُ ﴾ (يوسـف:98).. أمـا مـا سـألتني عنـه، فقـد قيـل عـني كلام أرادوا جرحي به، ولكنه في الحقيقة يمثل منهجي في العلاج.

قلت: وما قالوا؟

قال: لقد قـالوا:(كـان ابن النفيس على وفـور علمـه بـالطب وإتقانه لفروعه وأصوله قليل البصر في العلاج، فإذا وصف لا يخرج بأحد عن مألوفه ولا يصف دواء ما أمكنه أن يصف غذاء، ولا مركبـا ما أمكنه الاستغناء بمفرده، وكان ربما وصـف القمحيـة، وهي نـوع من البليلـة، لمن شـكا القرحـة، والتطمـاج، وهـو نـوع من اللحم المطهو بالتوابل لمن شـكا هـواء، والخـروب والقضـامة لمن شـكا إسهالا، ومن هذا ومثله، ولكل ما يلائم مأكله ويأكلـه حـتى قـال لـه العطار الشرابي الذي كان يجلس عنـده:(إذا أردت أن تصـف مثـل هذه الوصفات اقعد على دكان اللحـام، وأمـا إذا قعـدت عنـدي فلا تصف إلا السكر والشراب والأدوية)

قلت: فهل كان العلاج بالغذاء شيئا اختصصت به، أو اختص به أبــو بكــر.. أم هــو أســلوب من أســاليب العلاج في المجتمعــات الإسلامية؟

قال ابن النفيس: بل هو أسلوب من أساليب العلاج الـتي كنـا نمارسها، فقد كـانت المعالجـة بالأغذيـة للأمـراض من أهم أسـس العلاج الطبي لكثير من الأمـراض في المستشـفيات في الحواضـر الإسلامية.

قاطعنا رجل يظهر على وجهه وثيابه أنه من العصور الخوالي، فتقـدم إليــه ابن النفيس والــرازي بالتحيــة والاحــترام، فقلت: من أنت؟.. فلا أرى إلا أنك من العصور التي لم يبق لها أي أثر.

قال: ألا تعرفـني؟ أنـا أبقـراط.. أنـا أبـو الطب(2).. لقـد كنت طبيبا قبل أطباء قومك بـ 4500 عام.. وكل من تراه هنا تلاميذي.

قلت: فهل كنت تعالج المرضى بالغذاء؟

---

1) مما يدل على تواضعه ما حكى عنه الشيخ أبو ثناء الحلـبي، قـال: شـكوت إلى ابن النفيس عقـالا في يـدي فقـال لي:« وأنـا واللـه بي عقـال فقلت: فبـأي شـيء أداويـه؟» فقال:« والله ما أعرف بأي شيء أداويه » ثم لم يزد على هذا.

2) سمي بذلك لدوره الكبير في تخليص الطب من الخرافات، ومحاولة النهوض به.

قال أبقراط: أجل.. ألا تعـرف مقولـتي:(ليكن غـذاؤك دواءك، وعالجوا كل مريض بنبات أرضه، فهي أجلب لشفائه)

قلت: فهل تركت من أثر في ذلك؟

قال أبقراط: ألم أقل لك: إن كل من تراه من تلاميذي.. لقــد وضعت للغذاء مؤلفا خاصا أوضحت فيه خصـائص الأطعمـة طعامـا طعاما، وأدخلت فكرة التدبير بالغذاء في كل مؤلفـاتتي حـتى الـتي تعني بالكسور.

ولكني مع ذلك، أثبت صعوبة تناول هذا الموضوع بدقـة تامـة، فمن المستحيل وضع قوانين محددة لهذا، نظرا للتباين بين أمزجـة الناس والأعمار والبلاد والأجواء واختلاف تركيب العينـات المختلفـة من الطعام الواحد.

قلت: لقد كنت من الإغريق.. فهل كـان لقومـك من الاهتمـام بالعلاج بالغذاء مثل ما اهتم المسلمون؟

قال أبقراط: أجل.. ومع ذلـك.. فلا يمكن تصـور الـدور الـذي أعاره الطب الإغريقي للطعام المناسب، فقد اعتبر الغذاء العنصـر الوحيد الذي يدخل المرض إلى الجسم.

قلت: لم.. فهناك أسباب أخرى.

قال أبقراط: ولكن الطعام هو العنصر الوحيد الـذي يـرد على البدن من الخارج ويتشبه به.

بينما نحن كذلك إذ سمعت صوتا رخيما ينشد:

للحفظ في الصحة جنس [illegible]	من عمل الطب على [illegible]
إن الــمزاج إن ترد [illegible]	شبـــه بـــــه غـــــداءه
والجسم إن تعزم على [illegible]	مــن طبعــه فالضـــد [illegible]
وإذا نظمت جزء حفظ [illegible]	فالآن أبدأ ببـــــــرء [illegible]
وهو من الأعمال جنس [illegible]	يقابـــل الشـــيء بمـــا [illegible]
إن كان من حرارة [illegible]	أو كـــان مـــن برودة [illegible]
أو كان من لين [illegible]	أو كـــــان مـــن يبس [illegible]

قلت لأبقراط: من هذا؟

قال أبقراط: هذا من أكبر تلاميذي.. ولولاه لما كانت لي هـذه الشهرة.

قلت: فمن هو؟ فلست ملما بأخبار الأطباء.
قال أبقراط: هذا ابن سينا[1].. ألا تعرفه؟
قلت: بلى.. أعرفه، ومن لا يعرفه؟.. إنه الشيخ الرئيس.
قال أبقراط: ألا تعرف كتابه (القانون)؟
قلت: إن شئت الصدق، فإني أعرفه ولا أعرفه.
قال أبقراط: كيف ذلك؟
قلت: أسمع به، وأحب قراءته، ولكنه يستعصي علي.. فنحن من جيل مختلف تماما.

قال أبقراط: وهل قدمتم من المريخ.. أنتم من الأرض، فكيف تجهلون أهل الأرض؟

قلت: فما به هذا القانون الذي ألفه ابن سينا؟

قال أبقراط: لقد قال فيه نظامي عروض السمرقندي، في كتابه (جهاز مقالة) الذي ألفه حوالي 550 هـ. بعد وفاة الشيخ الرئيس بأكثر من قرن، بعد أن يذكر المراجع التي على الطبيب أن يدرسها، وهي لكبار أطباء الإسلام قبل ابن سينا، يقول:(فاذا أراد الاستغناء عن هذه الكتب كلها فقد يكتفي بالقانون، فإن سيد الكونين وامام الثقلين ﷺ يقول:(كل الصيد فى جوف الفرا)[2]، فكل ما ذكرت موجود في القانون، مع زيادات كثيرة، وكل من يحيط علما بما في المجلد الأول[3] من القانون لايخفي عليه شيء من أصول علم الطب وكلياته)

---

1) هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا، الملقب بالشيخ الرئيس، فيلسوف، طبيب وعالم، ومن عظام رجال الفكر في الإسلام ومن أشهر فلاسفة الشرق وأطبائه. ولد سنة 370 هـ (سنة 980 م)

ترك ابن سينا مؤلفات متعدّدة شملت مختلف حقول المعرفة في عصره، وأهمها: العلوم الآلية، وتشتمل على كتب المنطق، وما يلحق بها من كتب اللغة والشعر، العلوم النظرية، وتشتمل على كتب العلم الكلّي، والعلم الإلهي، والعلم الرياضي، والعلم الطبيعي، والعلوم العملية، وتشتمل على كتب الأخلاق، وتدبير المنزل، وتدبير المدينة، والتشريع.

ولهذه العلوم الأصلية فروع وتوابع، فالطب مثلاً من توابع العلم الطبيعي، والموسيقى وعلم الهيئة من فروع العلم الرياضي.

ومن أشهر كتب ابن سينا الطبية كتاب القانون الذي ترجم وطبع عدّة مرات والذي ظل يُدرس في جامعات أوروبا حتى أواخر القرن التاسع عشر.

ومن كتبه الطبية أيضاً كتاب الأدوية القلبية، وكتاب دفع المضار الكلية عن الأبدان الإنسانية، وكتاب القولنج، ورسالة في سياسة البدن وفضائل الشراب، ورسالة في تشريح الأعضاء، ورسالة في الفصد، ورسالة في الأغذية والأدوية.

ولابن سينا أراجيز طبية كثيرة منها: أرجوزة في التشريح، وأرجوزة المجربات في الطب، والألفية الطبية المشهورة التي ترجمت وطبعت.

2) الفرأ مهموز مقصور: حمار الوحش، وجمعه: فراء، أي أن أفضل الصيد حمار الوحش، فكل الصيد دونه. النهاية: 2/422، والحديث رواه الديلمي.

3) المجلد الأول هو المشتمل على الأمور الكلية في الطب.

ثم يقول عني وعن جـالينوس:(ولـو بعث أبقـراط وجـالينوس إلى الحياة لحق لهما أن يسجدا لهذا الكتاب)

قلت: أتذكر هذا الكلام وتفخر به؟

قال أبقراط: وكيف لا أفتخر به.. وهل يحـزن العـالم إن غلبـه تلميذه.

قلت: صدقت.. وأحسنت.. فعهدي بك صاحب خلق.

قـال أبقـراط: لا يصـح أن يكـون الطـبيب طبيبـا إلا إذا كـان صـاحب خلـق، ألا تعـرف القسـم المنسـوب إلي، والـذي يحـدد التزامات الطبيب؟

أردت أن أجيب، فقاطعني ابن سينا بقوله: ومن لا يعرف ذلك القسم يـا معلمي.. لقـد حافظنـا ــ نحن أطبـاء المسـلمين ــ على تعاليمك الخلقية.

قلت: وما التعاليم الخلقية التي التزمتم بها؟

قال ابن سينا: سبعة.

قلت: لم أسأل عن عددها.. وإنمـا سـألت عن ماهيتهـا.. فمـا الأولى منها؟

قال ابن سينا: أن يكون تام الخلـق، صـحيح الأعضـاء، حسـن الذكاء، جيد الرؤية، عاقلا، ذكورا، خير الطبع.

قلت: ما هـذا؟.. لا أرى لهـذا أي حاجـة؟.. فقـد يكـون طبيبـا، ولكنه ناقص الخلق أو مريضا.

قـال: لا.. هـو لا يقصـد هـذا.. إنمـا يقصـد مـا تفعلـه الهيئـات الصحية عندكم من اشـتراط اللياقـة البدنيـة لمزاولـة المهنـة قبـل إعطاء الترخيص.

قلت: والثانية؟

قال: أن يكون حسـن الملبس، طيب الرائحـة، نظيـف البـدن والثوب.

قلت: والثالثة؟

قال: أن يكون كتوما لأسـرار المرضـى، ولا يبـوح بشـيء من أمراضهم.

قلت: والرابعة؟

قال: أن يكون رغبتـه في آراء المرضـى أكـثرمن رغبتـه فيمـا يلتمسه من الأجرة، ورغبتـه في علاج الفقـراء اكـثر من رغبتـه في علاج الأغنياء.

قلت: والخامسة؟

قــال: أن يكــون حريصــا على التعليم والمبالغــة في منــافع الناس.

قلت: والسادسة؟

قال: أن يكون سليم القلب، عفيـف النظـر، صـادق اللهجـة لا يخطر ببالـه شـيء من أمـور النسـاء والأمـوال الـتي شـاهدها في منازل الاعلاء فضلا عن أن يتعرض إلى شيء منها.

قلت: والسابعة؟

قال: أن يكـون مأمونـا ثقـة على الأرواح والأمـوال، ولا يصـنع دواء قتالا ولا يعلمه، ولا دواء يسقط الأجنة، يعالج عدوه بنية صادقة كما يعالج حبيبه.

قلت: هذه خصال عظيمة، وقد وردت في تعاليم الإسلام.

قال: وقد أضفنا إليها ـ نحن أطباء المسـلمين ــ آدابـا أخـرى، منها القيام بالإسعاف نهارا وليلا على قد ر الإمكان تفريجا للكربة.

ومنهــا التلطــف بــالمريض والحلم في اســتجوابه وتفهيمــه مراعاة لحالته النفسية ووضعه الثقافي.

ومنها اللباقة في تعريف المريض بمرضــه، ومحاولـة تطمينـه ورفــع معنوياتــه، وكتم الإنــذار بــالخطر عنــه وإعلامــه إلى ذويــه الاقربين.

ومنها الدعاء للمريض وهو نوع من مواساة المـريض بالكلمـة الطية.

ومنهــا إحالــة المــريض إلى أخصــائي أو عمــل لجنــة طبيــة استشارية إذا كـان الأمـر يسـتدعي ذلـك قيامـا بالأمانـة والنصـيحة المطلوبين شرعا.

ومنها أنه إذا التقى عده أطباء عند مريض، فليقدم أحدهم من هو أعلى مرتبة في الطب إن علم وإذا تقاربوا في المرتبة فليتقدم أكبرهم سنا.

ومنها الابتعـاد عن الغيبـة، وخاصـة غيبـة الـزملاء وتجـريحهم، فالغيبة من أخطر المحرمات الشرعية.

خواص الأغذية

قلت: يا ابن سينا.. يـا شـيخ الأطبـاء، وأسـتاذ الأسـاتذة.. لقـد عرفت اهتمامك واهتمـام أطبـاء المسـلمين بـالعلاج بالغـذاء.. فمـا الأصول التي ترجعون إليها في ذلك؟

قــال: لقــد وجــدنا النــاس يصــنفون مــا يمكن أكلــه إلى ثلاثــة أقسام: أغذية وأدوية وسموم.. فما استطاع الإنسان أن يتناول منه

كمية كافية لسد جوعه فهو غذاء.. وما لا يمكن تناوله بكمية كبيرة ولا لفترت طويلة، ويحدث له راحة أو اضطرابا فهو دواء.. وكل مادة لا يمكن تناولها ولو بكميات ضئيلة، لأنها تحدث فيه تأثيرا ضارا، فهي السموم، ولم يتجرأ الإنسان على الاستفادة من السموم كمواد دوائية إلا في وقت متأخر جدا.

قلت: فكيف تميزون بين هذه الثلاثة؟

قال: لقد لعبت الحواس دورا كبيرا في حفظ حياة الإنسان، فبواسطة حاستي الذوق والشم تمكنا من التفريق بين النبات النافع والنبات الضار.. فالنباتات المؤذية نجدها غالبا ذات طعم مر أو لاذع أو مغث، أو نجدها نتنة الرائحة فتنبذ، أو جميلة الرائحة فتستلطف.

هذا من ناحية.. ومن ناحية أخرى، فإن لملاحظة الصفات الخارجية لأقسام النبات دورا في التفريق بين أجناس النبات، وبهذه الصورة استطاع الإنسان العاقل المفكر أن يربط بين الاستعمال الغذائي والدوائي لأجناس النباتات وأنواعها وبين صفاتها الخارجية المحسوسة.

قلت: ولكن كيف استطاع إنسان عصركم، ومن قبله تحديد خواص الأغذية، فهي خواص كيماوية لا بد لها من علوم أخرى لم تصلوا إليها؟

قال: مثل ماذا؟

قلت: مثل الأكسدة والاختزال والحموضة والقلوية.. زيادة على أنه لم يكن لديكم علم بالخمائر والفيتامينات والهورمونات.. وغيرها مما تأخر اكتشافه.

قال: لكل عصر وسائله وأساليبه الخاصة.. وقد وصلنا بوسائلنا ـ التي تعتبرونها بسيطة ـ إلى كثيرمن خواص الأغذية والأدوية مما لا تزالون تستفيدون منه.

قلت: لا أنكر ذلك.. فما سر ذلك؟

قال: لقد استعملنا القياس ووسائل الفحص الفيزيائية، فاستنتجنا مرتبة الحرارة مثلا من سرعة الاحتراق، ومرتبة البرودة من سرعة التجمد، مستعينين بالحواس، أي المذاق والرائحة واللمس واللون لاعتقادنا أن اختلاف الإدراكات الحسية مردها اختلاف مقادير الأركان وكيفياتها.

قلت: فكيف تتعرفون على الخواص عن طريق اللسان؟

قال: الكيفيات البسيطة التي يدركها اللسان تسع: المسخ

والقــابض والعفص والمــالح والمــر والحريــف والحــامض والحلــو والدسم.. وقد عرفنا كل واحدة منها، وحددنا أفعالها ونشأتها.

قلت: فما المسخ؟

قال: هو كل شيء مذاق لا يفعل في اللسان شـيئا، ولا يحس منه بلذة أو بأذى، وذلك مثل الماء، لأن جوهره لا ينحل منــه شــيء يخالط اللسان فيدركه.

قلت: فما القابض؟

قال: هو ما جمع اللسان وجففه وخشـنه.. وينشـأ عن بـرودة مع تركيب متوسط بين الغلظ واللطف.

قلت: وما العفص؟

قال: إذا كانت أفعاله مماثلة، ولكنها أشـد.. وأفعالـه العصـر.. وينشأ عن غلظ ورطوبة.

قلت: فما المالح؟

قال: إذا غسل اللسان مما لصق به، وجلاه.. وأفعالـه الغسـل والتجفيف ومع العفونة.. وينشأ عن حرارة وتركيب متوسط الغلـظ واللطف.

قلت: فما المر؟

قال: هو ما جلا أكثر من جلاء المالح، وخشن اللسان تخميشـا مؤذيا.. وينشأ عن سخونة وغلظ.

قلت: فما الحريف؟

قال: هو مـا أحـدث لـدغا وأكلا مـع حـرارة شـديدة.. وأفعالـه التحليل والتقطيع والتعفين.. وينشأ عن حرارة ولطف.

قلت: فما الحامض؟

قال: هو ما كان لدغه خاليا من الحرارة التي يحدثها الحريـف، ومع ذلك يحدث غليانا.. وأفعاله التبريد والتقطيع.. وينشأ عن برودة مع تركيب لطيف.

قلت: فما الحلو؟

قـال: هـو مـا لقي اللســان فأصـلحه، وسـكن أذى قـد نالـه، وملس خشونته، وصار كالمرهم.. وهو لـذلك يحـدث اسـتلذاذا في اللسان.. وأفعاله الإنضاجوالتليين وإكثـار الغـذاء.. وينشـأ عن غلـظ في التركيب، ومزاج متوسط بين الحرارة والبرودة.

قلت: فما الدسم؟

قـال: هـو مـا كـان كـالحلو دون اسـتلذاذه، وأفعالـه التلـيين والإزلاق، وبعض الإنضـاج.. وينشـأ عن تـركيب لطيـف مـع مـزاج

متوسط بين الحرارة والرطوبة.

قلت: ولكن الطعوم قد تختلف.

قال: صحيح ذلك.. وقد وضعنا مصطلحات خاصة بذلك، فالمر ــ مثلا ــ مع القبض يسمى بشعا، ومع الملوحة يسمى زعفا.. وهكذا.

قلت: فكيف استعملتم الشم في التعرف على خصائص الأغذية؟

قال: البخارات المنبعثة من الأشياء المشمومة تؤثر في الشم، وتميز بين المشمومات مثلما تؤثر المذاقات.. ولكنا مع ذلك نعتبر الرائحة أضعف الأدلة.. فهي أدنى كثيرا من من الطعم.

قلت: لم؟.. أليس الشم حاسة من الحواس؟

قال: بلى.. ولكن الرائحة لا تدل إلا على البخار الذي ينحل، وهو لا ينحل من جميع أجزاء المشموم.. بخلاف اللسان، فإنه يلتقي بجميع أجزاء الشيء الذي يذاق.

قلت: فكيف استعملتم البصر في التعرف على خصائص الأغذية؟

قال: ذلك بسيط.. وقد عرفت من علم الألوان ما يدلك على بعض هذا.. ولكنا مع ذلك اعتبرناه دون الروائح في صحة دلالته إلا في مختلف أصناف النوع الواحد.

قلت: كيف ذلك؟

قال: لقد رأينا أن ما يضرب إلى البياض أقل حرارة مما يضرب إلى الحمرة، وأما الأسود فقد يكون قاتلا.

قلت: فكيف استعملتم اللمس في التعرف على خصائص الأغذية؟

قال: لقد استعملنا اللمس في التعرف على خصائص الأغذية والأدوية.. وقد ذكرنا لذلك صفات كثيرة منها اللطافة والكثافة، واللزوجة والهشاشة، والسيلان والجمود، واللعابية والدهنية، والنشف والخفة والثقل.

قلت: فكيف استعملتم القياس في التعرف على خصائص الأغذية؟

قال: لقد استقرأنا القوى المجهولة عن طريق معرفة القوى المعلومة.

قلت: وهل اكتفيتم بالقياس؟

قال: لا.. لقد أخضعنا الاستنتاجات القياسية لمحك التجربة،

ألم تسمع قولي:(إن قال الإنسان في هذا شيئا،فإنما يقوله على وجه التخمين)

قلت: فهل استخدمتم المنهج التجريبي في عصركم؟

قال: أجل.. ووضعنا له دستورا حددنا له شروطا.. منها خلو المادة التي نريد التعرف على خصائصها من كيفيات مكتسبة كالتبريد والتسخين.

ومنها إجراء التجربة على شخص مصاب بعلة واحدة مفردة.. والتجربة على علل متضادة للحكم إن كان الفعل بالعرض.

ومنها مراعاة وقت ظهور الفعل، فإذا ظهر مع أول استعمال الدواء استنتج أنه يفعل بذاته، وإن تأخر كان موضع شك.. ومنها تكرار التجربة ولو نجحت للتأكد من سلامتها.

قلت: فهل كنتم تجربون على الإنسان؟

قال: نعم.. فالفئران البيضاء لم يعرفها إلا عصركم.. ولن تفلحوا حتى تطعموها القطط الجائعة، أو ترسلوها تهيم على نفسها.

قوى الأغذية

قلت: عرفت خصائص الأغذية.. فما أسرار التأثير فيها؟

قال: سر التأثير فيها يرجع إلى القوى التي أودعها الله فيها، والتي تجعل من الغذاء أو الدواء مؤثرا.

قلت: إن هذه القوى في الطب الذي نعرفه يرجع إلى العناصر الكيميائية التي تكون ذلك النوع من الغذاء أو الدواء.. فما الأصول التي كنتم ترجعون إليها؟.. وأنتم لما تتعرفوا على هذه العناصر.

قال: عدم معرفتنا بها لم يمنع من معرفتنا بفوائدها.. وإلا فإن ما سيكتشف المستقبل من أسرار الشفاء سيمحو كل ما تتباهون به منه.

قلت: فكيف استطعتم التعرف على هذه القوى؟

قال: لقد قررنا بمقدمات كثيرة لا يمكن ذكرها هنا أن فعل أي مادة ترد على البدن إنما هو نتيجة فعل وتفاعل بين طبيعة المادة وطبيعة البدن.

قلت: هذا واضح لن تحتاج إلى إثباته.

قال: وقد رأينا بمقدمات لا يمكن ذكرها هنا أن طبائع الكائنات ـ سواء أكانت حيوانية أو نباتية أو معدنية ـ هي حصيلة كيفيات عناصرها أي حصيلة كيفيات نسب الأرض والماء والنار والهواء

فيها.

قلت: عرفت الآن.. أنتم تقصدون بهذه الأربعة ما نقصده نحن من المركبات الكيميائية.

قال: سم ذلك بما تشاء.. المهم أننا عرفنا هذه العناصر الأربعة واستقرأنا تأثيرها، فوجدناه صحيحا.

قلت: ثم ماذا؟

قال: لقد وجدنا أن كيفيات هذه العناصر أربع، اثنتان تقابل اثنتين.

قلت: هذا واضح.. فالحرارة تقابل البرودة، والرطوبة تقابل اليبس.

قال: وقد رأينا أن هذه الكيفيات تمتزج بنسب مختلفة في الكائنات، وتستقر على تعادل أو تغالب، وإذا استقرت سميت حصيلتها المزاج.

قلت: فهمت هذا.. ولكن المزاج قد يختلط مع غيره.

قال: ولذلك قسمنا المزاج إلى نوعين: مزاج أول عن العناصر، كل بكيفيته، ومزاج ثان جديد يحدث عن التمازج، وهو ما تطلقون عليه التركيب الكيماوى، وهو يختلف عن المزاج الأول.

قلت: فهمت كل هذا.. وكل ما ذكرته مرتبط بقوى العناصر، فكيف تؤثر هذه القوى في البدن؟

قال: لقد رأينا أن جسم الإنسان لا يختلف عن الغذاء والدواء.

قلت: كيف ذلك؟.. وهل الإنسان غذاء أو دواء؟

قال: هو مادة كمادة الغذاء والدواء، فلذلك يتكون من أربعة أركان، وهي التي تحولت إلى الأخلاط الأربعة.

قلت: أسمع كثيرا بهذا، فماذا تقصدون به؟

قال: يتكون جسم الإنسان من أربعة أخلاط هي: الدم والبلغم والصفراء والسوداء، وهي التي تحدد صحة المرء ومزاجه.

قلت: كيف تعرفتم على هذه الأخلاط؟

قال: لقد لاحظ هذا ـ بادئ الأمر ـ أستاذنا أبقراط على أساس الملاحظة العينية للدم.. فقد حلله إلى أربعة ألوان: الأحمر والأصفر والأسود، ثم طورنا ما قاله بحيث فسرنا كافة الأمراض من خلال نظرية الخلل في التوازن بين الأخلاط الأربعة.

قلت: فهمت هذا، فما علاقته بعناصر الكون الأربعة؟

قال: كل واحد من الأخلاط الأربعة التي ذكرناها له طبيعتان، فالدم ساخن وجاف مثل النار، والبلغم بارد ورطب مثل الماء،

والصفراء باردة ورطبة مثل الهـواء، والسـوداء بـاردة وجافـة مثـل الأرض.

قلت: فما علاقة هذا بالصحة؟.. ثم ما علاقة ذلك بالتغذية؟

قال: هي علاقة عظيمة.. لأن الدور الأساسي للغـذاء الصـحي هو حفظ التوازن بين المتضـادات.. فعنـدما تكـون الأخلاط طبيعيـة في الكمية والجودة يتمتع الإنسـان بصـحة جيـدة.. ولكن إذا حـدث اضطراب في الأخلاط، فيمكن أن يسقط على البعض الآخر.. وهنـا يحدث المرض.

قلت: فكيـــف تعرفـــون اختلاط الأخلاط.. ولم تكن لـــديكم وسائل التحليل؟

قـال: نعـرف اضـطراب الأخلاط عن طريـق الاضـطراب في البول أو البراز وغيرهما.

قلت: فما مهمة الطبيب عندما تختلط الأخلاط؟

قال: توجيه العلاج لمساعدة قوة الشفاء الداخلية على العمل وتجنب ما يمكن أن يثيرها.

قلت: فما وسيلته إلى ذلك؟

قـال: اتبـاع نظـام معين في الغـذاء والحيـاة.. مـع الاسـتعانة ببعض العقاقير.

قلت: فكيف تفرقون بين الأغذية والأدوية.. وكلهـا قـد تحتـوي ما ذكرتم من العناصر؟

قال: هناك مراتب لذلك.. فأقل المراتب هـو الغـذاء المجـرد، ثم يليـه الغـذاء الـدوائي، ثم يليـه الـدواء الغـذائي، ثم يليـه الـدواء المطلق، ثم يليه السم.

قلت: فما الغذاء المطلق؟

قال: هو مـا تغـير تغـيرا تامـا عنـد تناولـه، فيتشـبه بالبـدن ولا يغيره.

قلت: هو ضعيف إذن؟

قال: لضعفه صار غذاء مجردا من بركة الشفاء.

قلت: فما الغذاء الدوائي؟

قال: هو ما تغير.. ولكنه غير البدن.

قلت: فما الدواء الغذائي؟

قال: هو ما قهر البدن في أول الأمر، ثم قهره البدن.

قلت: فما الدواء المطلق؟

قال: هو ما قهر البدن قهرا كاملا، ولم يتشبه به.

قلت: فما السم؟

قال: هو ما تتقنون صنعه، فسل قومك عنه.

قلت: قد سألتهم، فدلوني عليك.

قال: هو ما لم يتغير.. وغير البدن.. لعدم انسجامه مع طبيعته.

قلت: ولكن الغذاء له خصائص أخرى غير ما ذكرت، قد يكون لها تأثير خاص في الصحة؟

قال: أجل.. وقد سمينا هذه القوى القوى الثواني، وهي كثيرة العدد، ولا يختص بها عضو معين، وقد ذكر بعض أصحابنا عشرين صنفا، وذكرت أنا في القانون أربعين صنفا.. ومنها القوى الملطفة(1)، والمحللة(2)، والجالية(3) والمخشنة(4).. وغيرها.

قلت: أهذه هي قوى الأغذية؟

قال: هناك القوى الثوالث: وهي المفتتة للحصى - المدرة للبول - المدرة للطمث - المدرة للبن - المولدة للمني والقاطعة له - المنقية للصدر.

التدبير:

قلت: فحدثني عن كيفية التدبير الذي أستطيع به تطبيق ما ذكرته.

قال: ذلك يكون بأربعة أمور.

قلت: أعلم أنها أربعة، فما هي؟

قال: أما أولها، فملاءمة الطعام لبدن المغتذي به في الوقت الذي يعتذي به فيه، فمتى كان الغالب على البدن الحرارة احتاج إلى الأغذية البادرة، ومتى كان الغالب عليه البرد احتاج إلى الأغذية الحارة، ومتى كان معتدلاً احتاج إلى الأغذية المعتدلة المشاكلة له.

قلت: والثاني؟

قال: تقدير الطعام بأن يكون على مقدار قوة الهضم، لأنه وإن كان في نفسه محموداً، وكان ملائماً للبدن، وكان أكثر من قدر

1) الملطف: هو الدواء الذي من شأنه أن يجعل قوام الخلط أرق بحرارة معتدلة.

2) المحلل: هو الدواء الذي من شأنه أن يفرق الخلط بتبخيره إياه وإخراجه عن موضعه الذي اشتبك فيه جزءاً بعد جزء حتى إنه بدوام فعله يفني ما يفني منه بقوة حرارته.

3) الجالي: هو الدواء الذي من شأنه أن يحرّك الرطوبات اللزجة والجامدة عن فوهات المسام في مسطح العضو حتى يبعدها عنه مثل ماء العسل. وكل دواء جالٍ فإنه بجلائه ويليّن الطبيعة وإن لم يكن فيه قوة إسهالية وكل مر جالٍ.

4) المخشن: هو الدواء الذي يجعل سطح العضو مختلف الأجزاء في الارتفاع والانخفاض إما لشدة تقبيضه مع كثافة جوهره وإما لشدّة حرافته مع لطافة جوهره فيقطع ويبطل الاستواء.

احتمال قوة الهضم ولم يستحكم هضمه تولد منه غذاء رديء.

قلت: والثالث؟

قال: تقديم ما ينبغي أن يقدم من الطعـام، وتـأخير مـا ينبغي أن يؤخر منه.

قلت: لم أفهم هذا.

قال: مثال ذلك أن الإنسان ربما جمع في أكلة واحـدة طعامـاً يلين البطن وطعمـاً يحبسـه.. فـإن هـو قـدم الملين، وأتبعـه الآخـر سهل انحدار الطعام منه، ومتى قدم الطعام الحابس وأتبعه الملين لم ينحدر وفسدا جميعاً.

قلت: ما السر الذي تفسر به ذلك؟

قال: لأن الملين حال فيما بينه وبين النزول الطعام الحـابس، فبقي في المعدة بعد انهضامه، ففسد به الطعام الآخر.

قلت: فإن حصل العكس؟

قال: متى كان الطعام الملين قبل الحابس انحدر الملين بعـد انهضامه، وسهل الطريق لانحدار الحابس.

ومثل هذا إن جمع أحد في أكلة واحدة طعاماً سريع الانهضام، وآخر بطيء الانهضام، فينبغي له أن يقدم بطيء الانهضـام، ويتبعـه سريع الانهضام ليصير البطيء في قعـر المعـدة، لأن قعـر المعـدة أسـخن، وهـو أقـوى على الهضـم لكـثرة مـا فيـه من أجـزاء اللحم المخالطة له، وأعلى المعدة عصـبي بـارد لطيـف ضـعيف الهضـم، ولذلك إذا طفا الطعام على رأس المعدة لم ينهضم.

قلت: فما الرابع؟

قال: أن من يتناول الطعام الثاني بعد انحدار الأول، وقد قـدم قبله حركة كافية وأتبعه بنوم كاف استمرأه.. ومن أخذه، وقـد بقي في معدتـه أو أمعائـه بقيـة من الطعـام الأول غـير منهضـمة فسـد الطعام الثاني ببقية الأول.

التكامل:

قلت: فهل تربطون الصحة بما يدخل الإنسان فقط من غـذاء ودواء؟

قـال: لا.. نحن لـدينا نظـرة شـمولية للإنسـان، فلـذلك نربـط العلاج بهذه النظرة الشمولية.

قلت: كيف ذلك؟

قال: من ذلك ما نسميه الضروريات الستة.

قلت: تقصـد حفـظ الـدين والنفس والعقـل والمـال والنسـل

والعرض..

قال: لا.. تلك الضروريات التي جاءت الشريعة لحفظهـا.. أمـا هذه الضروريات التي اهتممنا بالبحث في أسرارها وتفاصيلها، فهي ترتبط بحفظ الجسم من العلل وتقوية مناعته.

قلت: فما أولها؟

قال: حفظ الهواء، وهو يشمل المناخ باختلاف أنواعه والتربـة وغيرها مما تسمونه بالبيئة..

قلت: فما الثاني؟

قال: حفظ الطعام ويشمل أوقات الوجبـات، ومـا يجب أكلـه وشربه والكميات اللازمة.. وهو ما نبحث أسراره العلاجيـة في هـذا القسم.

قلت: والثالث؟

قال: راحة الجسم وحركته بالتمارين الرياضية.

قلت: والرابع؟

قـال: النـوم.. أليس النـوم ضـرورة من ضـروريات الحيـاة، وقانونا من قوانين الصحة؟

قلت: بلى.. وقـد عـرفت ذلـك في حصـون العافيـة.. فمـا الخامس؟

قال: الراحة النفسـية، وتشـمل الحـالات النفسـية الـتي تنفـع الصحة أو تضرها.

قلت: فالسادس؟

قال: الإفراز والاحتبـاس، ويشـمل هـذا مـا رأيتـه في حصـون العافية من اللهو واللعب.

الين واليانغ

خرجت من المطعم الأول بعد أن عرفت الأصول الـتي ينبـني عليهـا الطعـام في ذلـك القسـم، فلاح لي بمجـرد خـروجي مطعم يشبه مطاعم الشرق الأقصى، ورأيت بجانبه رجلا تبدو عليـه ملامح كونفوشيوس، منفردا عن الناس، فأحسسـت بقلـبي يـدعوني إلى لقائــه والاســتفادة منــه، فــاقتربت منــه، وقلت: لا شــك أنــك كونفوشيوس.

قال: لا.. أنا جـورج أوشـاوا.. ألا تعرفـني؟.. أنـا من اليابـان... وقـد اهتممت بهـذا النـوع من العلاج بعـدما أصـبت بالسـل، وكـان عمري 22 عاما.. وقد ماتت أمي وأختي بالسل أيضـا.. وقـد ألفت

300 كتاب، وطبع من كتابي Zen macrobioitic 700 طبعه.
قلت: فبأي علاج أتيت؟
قال: أنا مؤسس ما تسمونه الماكرو بيوتيك.
قلت: ماهو الماكروبيوتك؟
قال: هي كلمـة يونانيـة معناهـا الحيـاة الطويلـة.. وهي نظـام علاجي يعتمد على تحديد الأغذية الـتي يـرى أنهـا مفيـدة للانسـان، ويبعد الأغذية التي يرى أنها ضارة وتسبب الأمراض للإنسان.
قلت: فمتى بدأ هذا الفن من العلاج؟
قال: عندما بـدأت ريـاح التـأثيرات الغربيـة تهب على اليابـان، خاف بعض اليابانيين من أن يضيع تـراثهم الطـبي والأخلاقي، فقـام ساغان إيشيزوكا، وهو طبيب عسـكري يابـاني (1850 -1910م) بدراسة التقاليد الصحية والغذائية، وبدأ بالتحرك نحو هـدف أسـماه شوكويوكاي، أي مجتمع التداوي بالغذاء.
ثم تطـورت هـذه النظريـة، وانتشـرت في أنحـاء أخـرى من العالم تحت اسم آخر هـو الماكروبيوتيـك بواسـطتي.. فقـد أصـبت بالسل ـ كما ذكرت لك ـ وشفيت منه باتباع تعاليم إيشيزوكا.
ثم قام كل من ميشيو وإيفيلين كوشي بإدخال هـذه التعـاليم إلى الولايـات المتحـدة الأمريكيـة بعـد الحـرب العالميـة الثانيـة، وانتشـرت المراكـز الـتي تعـنى بهـذا المجـال في معظم المـدن الأمريكيــة، وهي تمــارس الآن نشــاطات متنوعــة كالمحاضــرات والدورات التدريبية ولقاءات الطبخ وغيرها.
قلت: وهل هذا النظام خاص بالمرضى؟
قـال: لا.. هـذا النظـام يسـتخدمه المرضـى والأصـحاء على السـواء، فالمرضـى يسـتخدمونه رغبـة في الشـفاء ــ بـإذن اللـه ـ والأصحاء رغبة في الحيوية والنشاط الدائم والوقاية من الأمراض.
قلت: هل هو نظام تغذية؟
قال: هو في الحقيقة ليس نظام أكل فقـط إنمـا هـو طريقـة حياة.

فلسفة الماكروبيوتيك

قلت: ما تعني؟
قال: نحن ننظـر إلى الإنسـان على أنـه جـزء ممـا حولـه من أرض وسماء، فهو يؤثر بها وتؤثر به.. فالإنسان ليس مفصـولا عمـا حوله.. بل إنه معتمد على الشمس والهواء والمـاء والأرض والنـار، وهو مرتبط بها، ويتناولها عن طريق النبات والهواء والماء...

قلت: فالصحة تعتمد إذن على ما يأخذه الإنسان منها؟
قال: أجل.. فالإنسان ابن ما يحيط به.
قلت: ولكن الإنسان قد لا يكون له السيطرة على بعض العناصر التي ذكرت.. كالهواء مثلا.
قال: ولكن هناك عناصر أخرى لنا سيطرة كبيرة عليها.. فنحن نستطيع أن نختار ما نأكل.. ولذلك كان الغذاء هو العامل الأساسي المؤثر في صحتنا.
قلت: فكيف تميزون بين المطاعم المختلفة؟
قال: الماكروبيوتك يحث على التوازن والتناغم بين الين واليانج، والمحافظة على هذا التوازن من خلال تناول الغذاء المتوازن بين الين واليانج.. وهذا التوازن ينعكس على الصحة.. أي أن المرض ينشأ من عدم تناول الغذاء المتوازن كأن يأكل غذاء يميل كله للين أو يميل كله لليانج.. وأما الأمراض المزمنة فنفسرها بأنها ناتجة من عدم التوازن لمدة طويلة.
قلت: الين واليانغ!؟.. ما هذه المصطلحات؟
قال: ألم تسمع قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (الذريات:49)؟
قلت: بلى.. فهذه الآية تتحدث عن الزوجية التي طبع الله بها جميع الأشياء.
قال: بل صرح في هذا الخصوص، فقال: ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾(الرعد:3).. فقد أخبر تعالى أنه جعل في كل الثمرات زوجين.. ومما تحتمله الآية ما نقصده بالين واليانغ.
قلت: أنا لم أسألك عن تأصيل الين والينغ.. فلا حرج عليك في عدم تأصيله.. فهذا من الدنيا..وقد جعل الله لنا مطلق الاجتهاد فيه.. ولكني أسألك عن حقيقتهما.. وحقيقة التوازن بينهما، فلن أفهم التوازن قبل أن أفهم الحقيقة.
قال: أنا ياباني.. ولليابان علاقة بالصين..
قلت: أعلم ذلك.. ولذلك تصورتك كونفوشيوس.
قال: لا أقصد جنسيتي.. بل أقصد طريقة تفكيري.. أي أني استلهمت الماكروبيوتك من الطب الصيني.. والطب الصيني مختلف تماما عن الطب الغربي الذي تعرفه، فهو علم شامل يقوم على نظام بديل ومتكامل في التفكير، وهو يستخدم هذين المصطلحين لوصف مختلف الحالات الفيزيائية المتناقضة في

الجسم.

قلت: أهما متناقضان؟

قال: تناقضا ضروريا.. ولكنه ليس تناقض صراع.. بـل تنـاقض تكامل.

قلت: فسر لي ذلك.

قـال: هـل تسـتطيع أن تفهم معـنى الحـرارة إذا لم تكن قـد اختبرت البرودة؟

قلت: لا.. فلا يمكن معرفة الحرارة لمن يجهل الـبرودة.. كمـا لا يمكن معرفة سائر الأشياء بدون معرفة ما يقابلها.

قـال: وهكـذا لا يمكن للين أن يوجـد من دون نقيضـه اليـانغ، والعكس صحيح.

قلت: فالين واليانغ إذن شيئان يكمل أحدهما الآخر.

قال: أجل.. وهما يشكلان معا كلاً واحداً متكاملا.

قلت: فما اختصاص كل منهما؟

قال: الين يرتبط بأنسجة الأعضاء، بينما اليانغ يرتبط بنشاطها.

قلت: أبهذا تعرفون نقص الين أو نقص اليانغ؟

قال: أجل.. فعندما يعاني أحدنا من نقص في الين، فهذا يعني أن العضو لا يملك مـا يكفي من المـواد الخـام لأداء وظيفتـه.. أمـا النقص في اليـانغ، فيـدل على عجـز العضـو عن اتخـاذ رد الفعـل الملائم عند الضرورة.

قلت: فهمت هذا.. فما سر التكامل أو الترابط بينهما؟

قال: الترابط بينهما واضح وهو ضـرورة.. فنقص الين ــ مثلا ـ في معدل الهرمونات الدرقية يتسبب بنقص اليانغ فيها، لأن أداءهـا سيتعطل بفعل الافتقار إلى الهرمونات.

ونفس الشيء ينطبق على النقص في اليانغ المتمثل بالخلــل في وظيفة الغـدة الدرقيـة، فإنـه يـؤدي إلى نقص الين لأن معـدل إفراز الغدة للهرمونات سينخفض، وبالتالي يؤثر في جوهرها.

قلت: فإلام يرجع سر فقدان التوازن بينهما؟

قال: إلى عدم تطبيق الماكروبيوتيـك.. أو بعبـارة أخـرى: إلى أنماط الحياة التي تتنافى مع طبيعة الجسم.. وأهمها نوع التغذية.

قلت: فهل تفسر الأمراض بسبب التغذية؟

قال: أجل.. فعندما يتغذى الجسم بصورة جيدة، تصـبح جـودة

دمه[1] عالية، وبالتالي تؤدي الخلايا وظائفها بصورة طبيعية، أمـا إذا أصبح الطعام غير متوازن، فـإن جـودة الـدم تبـدأ بالتـدهور، وربمـا تصبح خلايا الجسم نتيجة لـذلك معتلـة..فعافيـة الخلايـا تعتمـد على جودة العناصر الغذائية التي يتلقاها الجسم.

قلت: هذا قد يفسر بعض الأمـراض.. ولكن قائمـة الأمـراض أكثر من أن تحصر.. فكيف تفسر كلها بهذا الأسلوب البسيط؟

قال: سأضرب لك مثالا بمرض خطير عجز أطبـاء قومـك عن علاجه.

قلت: تقصد السرطان؟

قال: أجل.. فهو أكثر الأمراض الخطـيرة انتشـارا.. ومـع ذلـك بقيت مخابركم عاجزة عن إيجـاد علاج لـه.. كمـا عجـزت عن أكـثر الأمراض.

قلت: فهل وجدتم علاجا له؟

قال: أجل..

قلت: ما هو؟.. لأبشر به قومي.

قال: هو الماكروبيوتيك.

قلت: كيف ذلك؟

قال: لتفهم ذلك.. لا بد أن تعرف علاقة السرطان بالغذاء.

قلت: فما العلاقة بينهما؟

قال: تظهرالدراسات أنه من 40 بالمائـة إلى 60 بالمائـة من أمراض السرطان التي تصيب الإنسان مردها إلى العادات الغذائية الخاطئـة، و30 بالمائـة بسـبب التـدخين، و10بالمائـة لهـا أسـباب عديدة أخرى.

قلت: فكيف تفسر فعل العادات الغذائية الخاطئـة في التـأثير في حصول السرطان؟

قال: إن تكرار تناول الطعام غير المتوازن يولد حالة من عدم التوازن وإرباكا في ميكانيكية العديد من أجهزة الجسـم ممـا يـوفر لها الأرضية الصالحة لظهور السـرطان.. لهـذا يركـز الماكروبيوتـك على اجتثاث المرض من جذوره وعـدم السـماح لـه بـالعودة مـرة أخرى.

قلت: أريـد تفاصـيل أكـثر توضـح لي كيفيـة تـأثير العـادات

---

1) الدم في الطب الصيني هو المـادة الحيويـة الـتي تتكـون وتتخلّـق أساسـا من روح الطعـام الـذي ينهضـم بوسـاطة المعـدة ويـوزع بوسـاطة الطحـال، أمـا القلب فهـو الحاكم(المحافظ) للدم والعروق، والكبد يضمن الانسياب الحر للدم ويخزنه ويحافظ على حجمه.

الخاطئة في التسبب في السرطان.
قال: ألا ينشأ السرطان حين تبدأ خلية غير طبيعية لم يكشفها جهاز المناعة بالتكاثر عشوائياً.. وحين تتكـون مجموعـة من الخلايـا غير الطبيعية، تتحول إلى ورم.
قلت: هذا صحيح.. فالجسم يتـألف من مليـارات الخلايـا الـتي تتجدد باستمرار وتدرج في معظم الأنسجة.. وهي عملية مضـبوطة بـالموازين الإلهيـة بحيث تتولـد كميـة كافيـة من الخلايـا لاسـتبدال الخلايا القديمة الميتة فقط.
قال: ويبدأ السرطان بالبدعة.
قلت: كيف؟
قال: ألم يقل ﷺ:(من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهـو رد)(1)
قلت: بلى.. وما علاقته بهذا.
قـال: إن صـاحب الأمـر هـو صـاحب الخلـق.. فلـذلك يبـدأ السرطان عندما تتكون الخلايا غير الطبيعية، ثم لا يستطيع الجسـم إماتة بدعتها أو السيطرة على تكاثرها.. بل نسمي أورامها (خبيثـة) (2) كما نسمي البدعة ضلالة.
قلت: عرفت حقيقة السـرطان.. ولكـني لم أسـأل عن هـذا، فهــو من المعلــوم من الصــحة بالضــرورة.. ولكــني أســأل عن تفسيركم له.. والذي تنطلقون منـه لوضـع علاج يجتثـه من جـذوره كما تزعمون.
قال: عندما أصبح الإنسـان يأكـل أكـثر ممـا يحتـاج، أو يتغـذى بغذاء غير صحي.. فإن ذلك ولد ضـغطا على أجسـامنا للتخلص من هذه الزوائد.
قلت: وهذا من رحمة الله.. فاللـه تعـالى جعـل في الأجسـام هذه القدرة على طرح ما لا تحتاجه من فضلات وسموم.
قال: ويظهر ذلك بصور مختلفة كالإسهال أو التعرق الزائـد أو التبول الزائد.. حتى أن عادة حك الرأس ورفرفة الجفون تدل على عدم وجـود تـوازن في الطاقـة وتـراكم الزوائـد.. حـتى أن ارتفـاع درجة حرارة الجسم إحدى الطـرق غـير الطبيعيـة في التخلص من

(1) البخاري.
(2) ليست كل الأورام خبيثـة، أي سـرطانية، فهنـاك العديـد من الأورام غـير العدائيـة، وحتى لو كبرت كثيراً، لا تميل إلى اجتياح أنسجة محلية أو الانتشار إلى مواقـع أخـرى من الجسم، ويقال عن هذه الأورام إنها حميدة، وهي عادة غير مؤذية ولا تعود للظهـور عـادة بعد استئصالها جراحياً.

الزوائد.
قلت: فهذه رحمة إلهيـة تـدل على مـدى إبـداع اللـه في بنـاء الإنسان، فكيف تتحول إلى نقمة؟
قال: بـالإفراط وعـدم التـوازن يعجـز البـدن عن توفـير هـذه الخدمة، فعندما تتكرر عمليات طـرح الزوائـد بطـرق غـير طبيعيـة تتحول إلى حالة مزمنة، وعادة ما تظهر على شكل أمراض جلدية، وخصوصا عنـدما تصـبح الكليـة غـير قـادرة على تنظيـف الـدم من الفضلات.
وكمثال على ذلك البقع السوداء والنمش المتـأخر في الجلـد، فإنها تدل على محاولة الجسم التخلص من الزوائد كالسكر المكرر وطرحهـا خـارج الجسـم، بينمـا البقـع البيضـاء تـدل على محاولـة الجسم التخلص من الحليب والاجبان الزائدة.
قلت: كيف عرفتم ذلك.. فمن الصعب التنبأ بمثل هذا؟
قـال: لنـا وسـائلنا الخاصـة في معرفـة ذلـك، واطمئن فهي وسائل موثوقة قد لا يسلم بها بعض قومك، ولكنا لا نعبأ بهم فهم لا يكادون يسلمون لغير أنفسهم.
قلت: لقــد فســرت ســرطان الجلــد فقــط.. ولكن أنــواع السرطان كثيرة.. فلا ينجو من بدعته أي عضو من الأعضاء.
قال: ذلك صحيح.. ولنا تفسير لكل ذلك، فالدهنيات الحيوانيـة ـ مثلا ـ تتجمـع داخـل عمـق الجسـم ـ في الأوعيـة الدمويـة وفي الأعضـاء مثـل المبيضـين والبنكـريس وفي العظـام ـ كمـا تـتراكم الدهنيات الحيوانية القاسية في الجـزء السـفلي من اللجسـم مثـل البروستات والقولون والشرج.
وتتراكم الدهنيات الفائضة عن حاجـة الجسـم الـتي تـأتي من الحليب والسكر والشوكولا والكربوهيـدرات البسـيطة في الأجـزاء القلوية من الجسم مثل الثديين والجلد.
ولهذا نرى أن سرطان البروستات يتطور بسبب الإفـراط في استهلاك اللحوم والأجبان والدواجن والبيض، وكلها من أغذية اليانغ، لأنها تقوم بتسريع إنتاج هرمون التستوسترون، الذي يساعد بـدوره في نمو السرطان في الجزء السفلي من الجهاز الهضمي.
ومثـل ذلـك نـرى أن سـرطان الثـدي يتطـور من الاسـتهلاك المفرط من الحليب والأيس كريم والزبدة والسكر المكرر والجبنة الطرية والشكولا لأنها من أغذية الين، فهي تزيد من إفراز هرمـون الإستروجين، كما يساعد بدورة في نمو السـرطان الجـزء العلـوى

من الجهاز الهضمي.
أما الاستهلاك المفرط لأطعمـة اليـانغ، فإنـه يسـاعد في نمـو سرطان الجزء السفلي من الجهـاز الهضـمي.. ولهـذا تعـود قابليـة اليابانيين للإصابة بسرطان المعـدة إلى تنـاولهم كميـات كبـيرة من السكر والمواد الكيميائية المعتبرة من أقصى الين.
ومثل ذلـك ترجـع إصـابة الأمريكـيين بسـرطان القولـون إلى استهلاك كميات كبـيرة من اللحـوم والـبيض والأجبـان وغيرهـا من المأكولات الحيوانية لأنها من أقصى اليانغ.
وهكذا انطلاقا من عادات الشعوب والأفـراد عرفنـا كثـيرا من الأسـرار المرتبطـة بـأنواع السـرطان.. ومن ثم عممنـا ذلـك على سائر الأنواع.
فالبـاعث لتطـور سـرطان الجلـد هـو الاسـتهلاك المفـرط للمـأكولات والمشـروبات المائلـة إلى الين بالنسـبة إلى اللوكيميـا حيث أن ارتفاع عدد كريات الدم البيضاءهي حالة (ين) مفرطة في الدم،والباعث لهذه الحالة هـو الإسـتهلاك المفـرط للسـكر والأيس كريم والمشروبات الغازية والحليب والإضافات الكيميائية.
قلت: فهمت هذا.. فـأنت تريـد أن تقـول بـأن الطعـام إذا زاد على المسـتويات الـتي لا يسـتطيع الجسـم التعامـل معهـا ـ إمـا بتحويلها إلى طاقة للجسم أو بطردهـا خـارج الجسـم ـ يـؤدي إلى هذه العلل.
قال: أجل.. فعندما تتراكم الكميات الزائدة عن قدرة الجسـم على التعامل معها.. ومع مرور الـوقت تـتراكم تحت الجلـد ثم إلى أعماق الجسم ممـا يـؤدي إلى ارتفـاع الكولسـترول في الجسـم.. وبذلك تتأثر الكليةوالرئتين اللذان يرجع لهما الفضل في تنقية الدم، مما يؤدي إلى تفاقم مشكلة نقاوة الدم.

***

بينمـا كـان جـورج أوشـاوا يشـرح لي تصـور الماكروبيوتيـك للسـرطان وأسـبابه إذ دخـل علينـا رجـل ببذلـة عصـرية لا تخفي ملامحه الغربية، فقلت: من أنت.. فلا أراك صينيا.
قال: وهل الطب حكر على الصينيين؟
قلت: ولكن الماكروبيوتيك حكر عليهم.
قال: لا.. ليس هناك احتكـار في هـذا البـاب.. فالبشـر جميعـا يتعاونون للتعرف على أسرار الحياة، والشـفاء امتـداد للحيـاة.. ألم تسـمع قولـه تعـالى: ﴿ يَـا أَيُّهَـا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـاكُمْ مِنْ ذَكَـرٍ وَأُنْثَى

وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا (الحجرات:13)؟

قلت: بلى.. وقد سلمت لك في هذا.. فمن أنت؟

قال: أنا مجرد نصير.. وقد دفعني بغضي للداء، وحبي للشفاء للبحث في أسرار هذا الداء.

قلت: السرطان..

قال: أجل.. فهو غول من الغيلان..

قلت: فما عرفت من أسراره؟

قال: سأذكر لك ما ينصر جورج أوشاوا، فإني لا أنتصر له، بل أنتصر للبحث الذي أجريته.. بل أجريناه في معاملنا.

قلت: وهل الطب الغربي يسلم له؟

قال: هو في طريقه إلى ذلك.. فالبحوث الكثيرة ترمي به إلى هذا السبيل.

قلت: فاذكر لي منها ما يطمئن له قلبي وينشرح صدري.

قال[1]: قبل ذلك أود أن أخبرك بأن البشر عرفوا استخدام بعض أصناف الخضروات والفواكه في معالجة الأمراض عبر التاريخ، حيث كان يعتقد أن لها دورا في معالجة هذه الأمراض والوقاية منها، ابتداء بالصداع وانتهاء بأمراض القلب والشرايين.

قلت: أعلم هذا.. ولكني أسأل عن مدى تسليم الطب الحديث لهذا.

قال: لقد اسخدم الطب الحديث هذه الأصناف في العديد من الوصفات الطبية.. ومع تطور العلم، وتطور البحوث المتعلقة بأمراض السرطان، فقد وجد أن 70 بالمائة من حالات الاصابة بأنواع السرطان المختلفة تعزى بشكل رئيسي إلى الغذاء الذي يتناوله الانسان في حياته اليومية.

وقد وضعت العديد من الفرضيات العلمية التي تهدف إلى ايجاد العلاقة بين تناول بعض الأغذية وظهور أنواع من السرطان.. منها العلاقة مابين تناول كميات كبيرة من الأغذية الغنية بالدهون وسرطان الثدي والقولون، والعلاقة ما بين الافراط في تناول الكحول والسرطان الذي يصيب كلا من الجهاز التنفسي والجهاز الهضمي والثدي والكبد، وأخيرا مابين الاستهلاك الضئيل للألياف

---

1) انظر: دور الخضروات والفواكه في الوقاية من أمراض السرطان، معز الاسلام عزت فارس، ماجستير في علم التغذية الجامعة الأردنية، وقد اعتمد في مقاله أساسا على المقال العلمي المنشور في مجلة جمعية التغذية الأمريكية (بتصرف).Steinmetz, K. A. and Potter, J. D. 1996. Vegetables, Fruits; Cancer Prevention: A review. Jornal of The American Dietitic Association, vol. 96: 1039.

الغذائية وسرطان القولون.
ولعل من أقوى الفرضيات التي وضعت لايجاد العلاقة مـا بين الغـذاء والسـرطان هي الفرضـية المتعلقـة بالاسـتهلاك اليـومي للخضـروات والفواكـه الطازجـة، فهي الفرضـية الـتي حـازت على اكبر قدر من البحث والتأييد العلمي.
وقـد أظهـرت الدراسـات الـتي أجـريت عليهـا نتـائج واضـحة وملموسة أكثر من أي فرضية أخرى.
قلت: فاذكر لي منها ما تؤكد لي ما ذكرت.
قال: قام البـاحثون في مجـال السـرطان بـإجراء العديـد من الدراسات العلمية، والـتي تصـل في مجموعهـا إلى مـائتين وسـتة دراسـة وبائيـة استقصـائية على البشـر واثنـتين وعشـرين دراسـة علميـة على الحيوانـات، وأظهـرت معظم هـذه الدراسـات وجـود العلاقـة العكسـية المباشـرة مـا بين اسـتهلاك الخضـر والفواكـه والاصابة بـأمراض السـرطان في مواقـع الجسـم المختلفـة، حـتى غدت هذه العلاقة حقيقة علمية مقررة، خاصة في أنواع السرطان التي تصيب كلا من المعدة والمريء والرئة وتجويف الفم والبلعـوم وبطانة الرحم والبنكرياس والقولون.
قلت: فاضـرب لي أمثلـة على علاقـة اسـتهلاك الخضـروات والفواكه بالسرطان.
قال: من أمثلـة ذلـك سـرطان المعـدة، فقـد أظهـرت جميـع الدراسـات المقارنـة أن اسـتهلاك الخضـروات الطازجـة والورقيـة بشكل متكرر يرتبط ارتباطا مباشرا بمنع الاصابة بسرطان المعدة، وهو النوع الأكثر انتشـارا في العـالم، وبدرجـة أقـل، فقـد وجـد أن تناول الحمضيات ثم الزنبقيات مثل الثوم والبصل والكراث يسـاعد على التقليل من الاصابة بالسرطان.
ومنها سرطان القولـون، فقـد أظهـرت معظم الدراسـات أن الخضروات بشكل عام سواء كانت طازجة أوغـير طازجـة تسـاعد على التقليل من إصابة الانسان بسرطان القولون، ذلـك أنهـا تزيـد من سـرعة مـرور فضـلات الأغذيـة المهضـومة من خلال الأمعـاء وتقلل من الضغط الـذي تولـده هـذه الفضـلات على جـدر الأمعـاء الغليظة، وهذا بدوره يقلل من فرصة تكون جيوب الأمعاء، وهو مـا يعـرف بـداء الأمعـاء الـردبي، ويقلـل كـذلك من فرصـة الاصـابة بسرطان القولون.
ومنها سرطان المريء، فقـد بينت جميـع الدراسـات العلميـة

التي استخدمت الخضروات بشكل عام، والورقيـة منهـا والبنـدورة بشـكل خـاص، بالاضـافة إلى الحمضـيات، أن الاسـتهلاك المنتظم لهذه الأطعمة يساعد على منع حصول السرطان في تلك المنطقة من الجسم، وأظهرت أن خضروات الفصيلة الزنبقيـة ليس لهـا أي دور في منع هذا النوع من السرطان.

ومنها سرطان الرئة، فهو يعد أحد أكثر أنواع السـرطان الـتي تسبب حـالات الوفـاة في الولايـات المتحـدة في كـل من الرجـال والنساء، وقد بينت نتائج الدراسـات الـتي أجـريت هنـاك أن تنـاول الخضروات الورقية والبندورة بشكل خاص يحد بشـكل واضـح من فـرص التعـرض لهـذا النـوع من السـرطان، كمـا بينت أن الجـزر يساعد ـ ولكن بدرجة أقل ـ على الحد من الإصابة به.

وهكذا الأمـر بالنسـبة لكثـير من أنـواع السـرطان كسـرطان المـريء وتجويـف الفم والبلعـوم، وسـرطان القولـون، وسـرطان الثدي..

قلت: فحدثني عن هذا النوع من السـرطان، فالنسـوة عنـدنا يخافونه كثيرا.

قال: وكيف لا يخافونه.. فهو يعد أكثر أنواع السرطان شـيوعا عند النساء في الولايات المتحدة، وثاني أكبر مسبب لحالات الوفاة من بين أنواع السرطان المختلفة.

وتشير الدراسات إلى أن هناك علاقة عكسية واضـحة مـا بين استهلاك الخضروات الورقية والجزر والفواكه، والاصابة بهذا النــوع من السرطان.

قلت: فهمت هذا، وهو يؤكد ما قاله جورج.. ولكني أسأل عن تعليلكم لهذا.. فهل تعللونه بالين واليانغ؟

قال: لا يهم التعليل.. بـل تهم النتيجـة.. ويهم علاج المـريض.. ولكنا ـ مع ذلك ـ نرى أن التأثير الوقائي للخضروات والفواكه يعزى أساسا إلى احتوائها على مجموعـة من المركبـات الكيميائيـة الـتي تتوافر فيها بكميات تكفي للحد من تطور ونمو الخلايـا السـرطانية، حيث تمتاز كل مجموعة من أصناف الخضروات والفواكه باحتوائهـا على مركبات معينة تعطيها القدرة على منع السرطان.

قلت: فاضرب لي أمثلة على ذلك.

قـال: من أمثلــة ذلــك أن نباتــات الفصــيلة الصــليبية تمتــاز باحتوائها على كميات كبيرة من مركبـات تـدعى الـدايثيول ثيونـات والأيثوثيوسيانات، وهي مركبات عضوية كبريتيـة تعمـل على زيـادة

فعالية الأنزيمات المحطمة للمواد المسـرطنة والمركبـات الغريبـة الوافــدة إلى الجســم، كمــا تشــتمل على مركبــات انــدول -3-كاربونيــل، والــتي تــؤثر على اســتقلاب وأيض الاســتروجين لــدى الانســان، بحيث ينتج عن ذلــك إنتــاج مركبـات تحمي من الاصـابة بـأنواع السـرطان المرتبطـة بالاسـتروجين مثـل سـرطان الثـدي وبطانة الرحم لدى النساء.

أما نباتات الفصيلة الزنبقية، فهي تمتاز باحتوائها على مركبات كبريتيـة مثـل الـدايأليل سـلفايد والأليـل ميثيـل ترايسـلفايد، وهي مركبـات تعمـل على زيـادة فعاليـة وتنشـيط الأنزيمـات المحطمـة للسموم والمواد المسرطنة، ولها تأثير مضاد لأنواع البكتيريـا الـتي تساعد على انتاج المواد المسرطنة، وذلك من خلال منـع التحويـل البكتـيري للنيـترات إلى نيـتريت في المعـدة ومن ثم التقليـل من كميـة النيـتريت اللازمـة للتفاعـل مـع المركبـات الأمينيـة الثانويـة الضرورية لانتاج مركبات النيتروزو أمينـات، اذ يعتقـد أن لهـا تـأثيرا مسرطنا بالأخص على المعدة.

وهكذا الأمـر بالنسـبة للحمضـيات، فهي تتمـيز باحتوائهـا على كميات كبيرة من حـامض الاسـكوربيك (فيتـامين ج) والـذي يحمي جدر الخلايا والمـادة الوراثيـة فيهـا من عمليـات التأكسـد الضـارة، نظرا لطبيعة الحامض التي تؤهله للعمل كمانع للتأكسد. كما يعتقـد أن لفيتامين "ج" دورا في منع الاصابة بالسرطان من خلال قدرتــه على ربــط وتقليــل النيــتريت، ومن ثم التقليــل من فرصــة تكــون النيتروز أمينـات المسـرطنة، كـذلك فـإن الحمضـيات تحتـوي على مركبات الكومارين والليمونين، والتي تعمل على تنشـيط أنزيمـات الجلوتاثيون ترانسفيريز المحطمة للمركبات المسرطنة.

ولا يقتصر تأثير الخضروات والفواكه المضـاد للسـرطان على احتوائهـا للمركبـات السـالفة الـذكر، بـل إن هنالـك مجموعـة من المركبات والعناصر الكيميائية التي تقوم بهذا التـأثير المضـاد، وهي تتوزع على أنواع شـتى من الخضـروات والفواكـه دون أن تنحصـر في نوع واحد منها.

الغذاء المتوازن

التفت إلى جورج، وقلت له: لقد رغبني هذا الـذي انتصـر لـك في التعرف على أنواع الغذاء المتوازن التي تحفظ الجسم.

قال: بالإضافة إلى ما ذكره هذا المنتصر ــ جـزاه اللـه خـيرا ـ من الخضر والفواكه، فإنا نركز على الحبوب والحنطـة والبقوليـات

وقليل من السمك وثمار البحر والفواكه المحلية.

ونحن لا نحبذ تناول اللحوم إلا في الحالات النادرة لأنها سبب لكثير من الأمراض ومثلها السكر، فهو العدو الأول للإنسان.

وبصورة عامة، فإن الماكروبيوتك نظام غذائي بسيط يدعو للرجوع للطبيعة والابتعاد عن الاطعمة المحضرة والمصنعة، فكل إنسان عليه أن يأكل من بيئته حسب المواسم والحالة الصحية....فابن الاسكيمو يعيش على السمك، وابن الصحراء يعيش على الغلال والبقوليات والخضار والتمر وقليل من المواد الحيوانية الطبيعية الحلال.

قلت: فإلام تستندون في هذا؟.. أليس الإنسان ابن الأرض.. جميع الأرض؟

قال: بلى.. ولكنه الابن الحقيقي للأرض التي يولد فيها.. أو يعيش فيها.. فلذلك يحتاج إلى الغذاء الذي يتناسب مع تلك الأرض.

قلت: لقد ذكرتني بآية ربما يكون فيه إشارة إلى ما ذكرت.

قال: تقصد قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ ﴾ (البقرة:61)

قلت: أجل.. ففي هذه الآية إشارة واضحة إلى اختلاف المآكل بحسب البيئات.

قال: ذلك صحيح.. فلهذا أطعم الله بني إسرائيل في التيه المن والسلوى، وعندما طلبوا ما طلبوا من مآكل أمرهم أن ينزلوا البلاد التي تحمل هذه الأنواع من المآكل.

قلت: ولعل ما يشير إلى هذا أيضا ما ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ سئل عن الضب لما قدم إليه، وامتنع من أكله: أحرام هو؟فقال:(لا.. ولكن لم يكن بأرض قومي، فأجدني أعافه)، وقد أكل بين يديه وعلى مائدته وهو ينظر[1].

قال: وقد ورد في الاستعاذة الشرعية قوله ﷺ:(بسم الله تربة أرضنا بريقة بعضنا يشفى سقيمنا بإذن ربنا)[2]، فقد نسب التربة إلى الأرض التي يوجد فيها المريض.

قلت: فهمت هذا ووعيته.. وهو من الأصول التي اتفقت عليها الشريعة والطب.. ولكني أسألك عن وجهة نظركم حول الغذاء

---

1) البخاري ومسلم.

2) البخاري ومسلم.

المتوازن الذي يستقيم معه الجسم.

قال: الغذاء المتوازن من وجهة نظرنا هو الذي يتكون من:حبوب كاملة من 50 بالمائة إلى 60 بالمائة، وخضار من 25 بالمائة إلى 30 بالمائة، وبقوليات وأعشاب البحر من 5 بالمائة إلى 10 بالمائة، وحساء 5 بالمائة.

وبهذه النسب نكون قد حصلنا على ما يقارب 73 بالمائة كاربوهيدرات مركبة و15بالمائة دهون و12بالمائة بروتين.

قلت: لقد ذكرت بأن نوعية الغذاء تختلف من منطقة إلى أخرى.

قال: أجل.. فمن أهم مبادئنا أن يتوائم الإنسان مع البيئة المحيطة به.. لذا يجب أن يكون أكل الإنسان من ما حوله.. فالإنسان الذي يعيش في شمال أوربا ـ مثلا ـ يجب أن لا يأكل من هذه الفواكه الاستوائية.

قلت: فإذا سافرت إلى مناطق أخرى في العالم.

قال: كيف نفسك على أكل الطعام الخاص بتلك المنطقة.. فعندما تسافر للإسكيمو لا حرج عليك، بل يجب عليك أن نأكل الأسماك المليئة بالدهون والكاري.

قلت: أنا من منطقة تشتهر بالحرارة.. فما هو نوع الغذاء المرتبط بها؟

قال: الغذاء المتوازن في المناطق الحارة يميل إلى جهة الين.. والطريقة المثالية لذلك هي أن تأكلوا من النباتات المتكيفة مع بيئتكم وبصورة طبيعية.

قلت: لقد فتحت أسواقنا لجميع أغذية العالم.. بل إن هناك فواكه كثيرة تأتينا من أنحاء الأرض، وحتى في غير مواسمها التي نعرفها.

قال: فلا تأكلوها.. فهي غير متناسبة مع بيئتكم.. ولا تنسوا أن هذه الفواكه مرشوشة بمواد كيماوية، وهي محفوظة، وغير ناضجة.

ولا تأكلوا الباذنجان والبطاطا، فهي من نباتات الين المتطرفة جدا ـ وإن كانت من نباتات المناطق الحارة ـ لذا يجب تجنبها على الأطلاق وخاصة لمرضى السرطان.

قلت: فهل هناك أغذية يصح أكلها لكل الحالات، ولجميع البشر؟

قال: أجل.. إنها الحبوب.. تلك السنابل المباركة، فهي متوازنة

بين الين واليانج، لذلك تؤكل حول العالم وفي كل الفصول.
قلت: لقد ذكرت بأن التغذية تختلف باختلاف المناطق، ولكنه في المنطقة الواحدة تختلف الوظائف، وقد تستدعي اختلافا في التغذية.
قال: هذا صحيح، وهو من مبادئنا.. فلذلك ننصح الذين يؤدون أعمالا بدنية كالزراعة أو العمال الذين يحتاجون إلى غذاء يانج أكثر لمقابلة هذا الجهد البدني.
أما الأعمال الذهنية ـ والتي لا تحتاج لأعمال بدنية كالكتابة والرسم ـ فيحتاج أكثر إلى أغذية ين لتقابل الجهد الذهني المبذول.

التدريب على الماكروبيوتك

قلت: لقد شوقتني إلى هذا النوع من العلاج، فهلا دللتني على كيفية تحصيله؟
قال: ذلك يحتاج إلى الدخول إلى هذا المطعم، ففيه أدرب مجموعات مختلفة من الناس أهلكتها سموم العصر لتندمج مع الحياة، أو لتعود للحياة.
قلت: فهيا نذهب لزيارة هذا المطعم.
قال: استأذن معلمك أولا.. فهو رخصة جوازك في هذه المدائن.
ما إن ذكر جورج معلم السلام حتى كان حاضرا بيننا، وكأنه وجه بطاقة دعوة إليه، فسرت مع المعلم، وجورج إلى مطعم الماكروبيوتيك، وقد رأيت على بابه مكتوبا قوله تعالى: ﴿ فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً ﴾ (النساء:4)
فسألت المعلم عن سر وضع هذه الآية في هذا الموضع، فقال: لقد ذكر الله تعالى في هذه الآية جميع خصائص الطعام المبارك.
قلت: كيف ذلك؟
قال: ماذا قال المفسرون في معنى الهنيء؟
قلت: لقد ذكروا أنه أنه ما تؤمن عاقبته، أو ما أعقب نفعا وشفاء، أو ما لم ينغص بشيء.
قال: والمريء؟
قلت: مرى الطعام هو ما يسهل هضمه، وتحمد عاقبته.
قال: فالآية تنبه إلى الطعام المحمود، وتحذر من الطعام السيء.
قلت: عرفت الطعام الحميد، فما الطعام السيء؟

قال: هو ما تخلف فيه أحد الأمرين، بأن كان لذيذ المبدأ خبيث المنتهى، أو كان هنيء المطعم، ولكنه يؤذي أجهزة الجسم الهاضمة، ويصيبها بالتلف.

قلت: فهمت هذا.. ولهذا أرى كثيرا من الناس ينصرفون عن مآكل محمودة خوفا على معدهم من ثقلها، أو على أمعائهم من احتباسها.

دخلنا المطعم، فرأيت عجبا.. المرضى مجتمعون مجموعات مختلفة، ليس لهم من عمل سوى الأكل.

فقلت للمعلم: أنحن في مستشفى أم في مطعم؟

قال: هنا يعالج المرضى بالغذاء.

قلت: ولكني أرى الناس مجموعات مختلفة.

قال: لكل مرض غذاؤه الخاص به.

أمسك جورج بيدي، وقال: هيا.. فلا تنشغل عما جئت من أجله.

رأيت سبع مجموعات.. كل منها يأكل طعاما خاصا، فسألت جورج عنها، فقال: هنا يدرب المرضى والأصحاء على التغذي على طريقة الماكروبيوتيك.

قلت: فلم قسموا إلى سبع مجموعات؟

قال: هذه سبع مراحل يمر بها من يريد التمرن على غذاء الماكروبيوتيك، فمن يدخل أولا ينضم إلى المجموعة الأولى، فإن تمرن على غذائها تحول إلى المجموعة الثانية، وهكذا.

قلت: فما هو غذاء المجموعة الأولى.

قال: لقد دللتك عليهم لتسألهم.. فدعني، فإني أريد العودة إلى المخبر، فقد جاءتني مكالمة بأن سموما جديدة أصدرها قومك.. ولا بد من البحث فيها.. فلا يمكن أن ننهى عن المنكر إلا بمعرفته.

اقتربت من **المجموعة الأولى**، فسألتهم عن نوع الطعام الذي يأكلونه، فقال أحدهم: نحن نتناول الحبوب الكاملة يوميا.. كالرز البني والخبز المصنوع من الحب والطحين الأسمر والمكرونة المصنوعة من الطحين الأسمر.

قلت: لماذا الأسمر؟ أخلت أسواقكم من الأبيض؟

قال: لأن الأسمر يظل محافظا على قشوره.. أما الأبيض فيؤكل عاريا مجردا من ثيابه.

قلت: أليس القصد من الطعام اللباب، فما حاجتكم إلى

القشور؟

قال: ألا تعلم الفوائد العظيمة التي تحملها القشور المباركة؟

قلت: لا أ علم.. فعلمني مما علمك الله.

قال: سأضرب لك مثلا عن الخسائر التي نخسرها عند نزع القشرة من حبة الأرز.. إنها خسائر عظيمة.. فنحن بنزعها ننزع 40 بالمائة من الكالسيوم، و55بالمائة من الفوسفور، و55 بالمائة من الحديد، و56بالمائة من البوتاسيوم، و78بالمائة من فيتامين ب1، و50 بالمائة من فيتامين ب2، و69بالمائة من فيتامين ب، و70 بالمائة من الألياف.

قلت: ولكن تناول مثل هذا الطعام يحتاج إلى إرادة صلبة.

قال: قد بدأنا نتعود على مثل هذا الطعام.. فالإنسان ابن ما تعود عليه.. ثم إن ذلك خير لنا من معاناة العلل التي جلبتها لنا سموم قومنا.. ثم بعد ذلك.. أليس ذلك من هدي النبي ﷺ؟

قلت: أأكل الحبوب بنخالتها من هديه ﷺ؟

قال: أجل.. ألم تسمع حديث سهل بن سعد، فقد قال: ما رأى رَسُول اللَّهِ ﷺ النقي(1) من حين ابتعثه اللَّه تعالى حتى قبضه اللَّه، فقيل له: هل كان لكم في عهد رَسُول اللَّهِ مناخل؟ قال: ما رأى رَسُول اللَّهِ منخلاً من حين ابتعثه اللَّه تعالى حتى قبضه اللَّه تعالى، فقيل له: كيف كنتم تأكلون الشعير غير منخول؟ قال:(كنا نطحنه وننفخه فيطير ما طار وما بقي ثَرَّيْنَاه (2)) (3)

اقتربت من **المجموعة الثانية**، فسألتهم عن نوع التدريب الذي يمارسونه، فقال أحدهم: نحن نتدرب هنا على التوقف نهائيا عن تناول اللحوم الحمراء والدواجن والبيض.

قلت: لماذا؟ أليست من الأغذية المباركة؟.. أم أنكم تخافون من كونها لم تذبح على الطريقة الشرعية؟

قال: لا.. هذه الأغذية من أغذية اليانج المتطرفة، لذا نصحنا بتجنبها.

قلت: لو نصحتم بالتقليل منها، أو بالبحث عن الحلال لكان ذلك أجدى، فلا ينبغي أن تحرموا على أنفسكم ما أحل الله.

قال: أولا تدري السموم التي تأكلها هذه الحيوانات التي تذبحونها على الطريقة الشرعية.. إنكم تذبحونها على الطريقة الشرعية، ولكنكم تبتدعون بدعا كثيرة في تسمينها وتحضيرها

1) هو الخبز الحواري، وهو الدرمك.
2) أي: بللناه وعجناه.
3) البخاري.

للذبح.
قلت: كيف ذلك؟
قال: سل الرعاة ولا تسلني.. هل يخرجون بهـا إلى المـراعي أم يسقونها الفضلات.. ألم يحرم الشرع الجلالة؟
قلت: بلى..
قال: فهذه السـموم الـتي تـذبحونها على الطريقـة الشـرعية شر من الجلالة.. أم أنك لم تسمع بجنون البقر؟
قلت: بلى..
قال: أتدري ما سببه؟
قلت: أجل.. سببه الغذاء الذي لا يتناسـب مـع طبيعـة البقـر.. وقد روى لي الثقاة أن الأبقار البريطانية قـد أصـابها ذلـك المـرض بعد أكلها لحوم أغنام مصابة بمرض الخرف.
قال: معلوماتك محدودة جدا في هذا المجـال.. لـو انضـممت إلينا لعلمت من أخبار سمومكم ما ينقضي دونه العجب.
قلت: فأخبرني عما تعلمه أنت عن هذا الجنون.
قال: قصة هـذا الـداء بـدأت عنـدما ظهـرت في وقت سـابق أعراض غريبة على قطعان الخراف البريطانية، وعرف العلمـاء مـا أسـموه آنـذاك المـرض الأكّال.. لأن الخـراف المصـابة بـه تقضـي الساعات الطوال، وهي تحك نفسها على أعمدة حظائرها، وجــرى البحث عن أسباب المرض، فاكتشف المحققون أن عظام الخراف وسقطها، تطحن وتقدم كمكملات بروتينية في علف الأبقار، وهكذا اشتبه في أن الجراثيم المسببة لمـرض الأكـال كـانت تنتقـل بهـذه الصورة إلى الأبقار.
وفي عام 1988م حظرت الحكومة البريطانية إضافة نفايات الخراف وسقطها وعظامها المسحوقة إلى علف الأبقار، ولكن هذا التدبير لم يتم احترامه، وهكذا تفاقمت الأمور واستشـرى المـرض بين الأبقار، وأصبح يهدد بالانتقال إلى الإنسان.
وفي مارس من عام 1996م اكتشـف العلمـاء وجـود علاقـة بين مرض الجنون البقري ومرض كروتزفلت ــ جـاكوب أو التهـاب الدماغ الإسفنجي الذي يصيب الإنسان.
وفي يوليو 1996م صرح العلماء بوجود احتمال كبـير بانتقـال مرض جنون البقر إلى الأغنـام، واحتمـال انتقالـه إلى الإنسـان عن طريـق أكـل أنسـجة الـدماغ والحبـل الشـوكي والمصـران التابعـة للأغنام.. ومن القائلين بهذه النظرية البروفيسـور ريتشـارد لايسـي

أخصائي علم الجراثيم في جامعة أيدز.
قلت: أنت مهتم كثيرا بهذا.. فهل جنت بقرة من أبقارك؟
قال: لا.. نحن من حزب حذيفة بن اليمان .
قلت: لا أعرف أن حذيفة أسس حزبا.
قال: بلى.. إن حزبه هو حزب توقي الشر.. ألم تسمع قوله : (كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر، مخافة أن يدركني) إلى آخر الحديث[1].
قلت: بلى.. وهو حديث عظيم ذكر فيه رسول الله ﷺ ما يحصل لهذه الأمة.
قال: والشر الذي يحيق بالأمة قد يبدأ من غذائها.. فلذلك أقمنا نحن في هذا الثغر ننبه إلى مخاطر الأغذية والسموم التي توضع فيها.
قلت: لكنا ـ بحمد الله وبفضل ورعنا عن أكل لحومهم ـ وقينا هذا الخطر.
قال: ومن قال ذلك.. ألا يفتي علماؤكم بحل ذبائحهم؟
قلت: بلى....؟
قال: فلنقل بأنكم تورعتم عن أكله.. ألا تعلمون الاستخدامات التي يستخدمون فيها هذه اللحوم؟
قلت: اللحوم تؤكل مشوية أو مقلية أو مسلوقة..
قال: لا أقصد هذا.. بل أقصد أن هذه اللحوم تستعمل في صناعات مختلفة، كلها تمس حياة كل البشر، فمن هذه اللحوم تستخدم بعض الأدوية، واللقاحات، والأمصال، وصولاً إلى أدوات الزينة التي تستخدمها نساؤكم.
ولا يقتصر الأمر على ذلك.. بل إن هذه اللحوم تستخدم في تصنيع كل منتجات اللحوم الحديثة التي يقبل عليها شباب اليوم وكبارهم كالهامبورجر، والسوسيس، والهوت دوج، والبيتزا باللحم، أو اللانشون..
قلت: لقد أسلت لعابي.. فهل أجد مثل هذه المأكولات هنا؟
قال: اسكت وإلا سمعتك أجهزة الحزم، وأخرجتك من هذه المدائن.
نهض أحدهم، وقال لى مسرا: أتعرفني؟
قلت: لا.. فمن أنت يرحمك الله؟
قال: ستراني عند زيارتك لعيون الطهارة، فقد اغتسلت في

1) نعيم بن حماد في الفتن والعسكري في الأمثال.

مياهها قبل أن آتي إلى هنا.
قلت: فما حديثك؟
قال: لا يهمك ما حدث لي.. ولكن سيرى قومك من الفضائح في عالم اللحوم ما يجعلهم يتوبون من أكله.
قلت: أخفتني، فما الذي حصل؟.. هل ستتمرد الحيوانات على من يذبحها؟
قال: الحيوانات سخرها الله لكم، فلا تتمرد ولكنا نحن الذين تمردنا، فأطعمنا هذه الحيوانات ما قتلنا، وما سيقتلنا.
قلت: فحدثني حديثك، فإني أعلم كل هذا.
قال: أنا من مدائن الصراع.. وقد كنت فلاحا صاحب مواش كثيرة، وكنت أستعمل طرقا عديدة في تسمين المواشي التي أملكها لكي أخفف من تكاليف علفها.. فاستعملت ــ مثل زملائي في الحرفة ـ النفايات المختلفة في غذاء المواشي والدواجن دون مراعاة للأضرار التي قد تنجم عن ذلك.
وآخر ما فعلته ــ مع زملائي طبعا ــ هو استخدام فضلات الدجاج كعلف للمواشي بالرغم من كل المخاطر التي ينطوي عليها هذا الابتكار الجديد على صحة المستهلكين.
قلت: فضلات الدجاج تسمن المواشي!؟
قال: أجل..
قلت: لو علمها قومي لما تركوا استعمالها.
قال: ومن قال لك بأنهم لا يفعلون.. إنهم يفعلون كل شيء في سبيل رطل زائد.
قلت: ولكن لماذا لا نكون واقعيين فنعرض هذه الفضلات على المخابر.. فلعل فيها من المنافع ما يسيغ استعمالها؟
قال: لقد عرضوا ما ذكرت على المخابر.
قلت: فما ذكروا؟
قال: لقد رأوا أن فضلات الدجاج غالباً ما تتضمن نوعين من أنواع البكتيريا يتسببان في إصابة الإنسان ببعض الأمراض، كما يتسببان في وجود طفيليات في معدة الإنسان، ويساعدان أيضا على تجمع الرواسب التي تخلفها الأدوية البيطرية، فضلاً عن وجود ترسبات معادن تحتوي على نسبة عالية من المواد السامة مثل الزرنيخ والرصاص والكادمسيوم والزئبق.
وتنتقل مثل هذه البكتيريا إلى المواشي بكل سهولة، كما أنه من الممكن أن تنتقل إلى جسم الإنسان عند تناوله لحوما ملوثة

بروث المواشي أثناء ذبحها في المسالخ.

ومن ناحية أخرى، فقد أفاد مركز مكافحة الأمـراض والوقايـة منها في ولايـة أتلانتـا بأنـه توجـد في الولايـات المتحـدة فقـط 80 مليون حالة مرضية ناجمة عن تناول المواد الغذائيـة، و9000حالـة وفاة ناجمة أيضا عن تنـاول بعض الأصـناف من الأغذيـة،و4 ملايين حالة مرضية ناجمة عن الإصابة ببكتيريـا سـالمونيلا حيث انتهت مـا بين 500 ـ 1000 حالة من هذه الحالات إلى وفـاة المـريض، كمـا تتسبب البكتيريا من النوع المنطوي في إصابة ما بين 4 ـ 6 ملايين شخص بالتهابات حادة في المعدة ويقتل 100 منهم سنويا.

أما البكتيريا من نوع إي كـولاي والـذي تم اكتشـافه في بعض اللحوم الملوثة، فإنها تودي بحياة 250 شخصاً سنويا فضلا عن أنها تتسبب في إصابة ما لا يقل عن 20 ألف شخص في أمريكا سـنويا بأمراض خطيرة، وهنـاك 17 مريضـاً على الأقـل ثبت أن مرضـهم ناجم عن تناولهم لحوما ملوثة من إنتاج شركة واحدة.

قلت: أكل هذه الإحصائيات نتائج شركة واحدة؟

قال: أجل.. وليس ذلـك فقـط، بـل قـد دأب مربـو المواشـي على استخدام مخلفات المحاصيل الزراعية وقشـارة الخضـراوات وعلائـق الحبـوب والمـواد الداخلـة في صـناعة الخـبز والخمـر في تسمين المواشي، وذلك بالإضافة إلى اسـتخدام حـوالي 40 مليـار رطل سنويا من مخلفات المسالخ مثـل الـدماء والعظـام والأمعـاء بالإضافة إلى ملايين القطط والكلاب السقيمة التي يوصي الأطبـاء الـبيطريون بـأن يكـون مآلهـا القتـل الـرحيم أو الـتي يُسـلمها لهم القائمون على ملاجئ الحيوانات، حيث تحوَّل لحوم هذه الحيوانـات إلى علف مما يعتري سلوكيات المواشي والخنـازير الـتي سـرعان ما تتحول من حيوانات آكلة للأعشاب إلى حيوانات آكلة للحوم.

قلت: أكل هذا يحصل مع الحيوانات المسكينة؟

قال: أجـل.. لقـد ذكـر اللـه أنـواع الـرزق الـتي أفاضـها على الأنعام، فقال تعالى: أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُـوقُ الْمَـاءَ إلى الْأَرْض الْجُـرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ (السجدة: 27)،ـ و قال تعالى بعد أن ذكر ما أخرج لعباده من أصـناف الـرزق: كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَـامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَآيَـاتٍ لِأُولِي النُّهَى (طــه:54).. ولكنهم أبوا إلا أن يطعموها سموما.

قلت: ولكن مـا حصـل من جنـون البقـر جعلهم يثوبـون إلى رشدهم.

قال: ومن قال ذلك؟.. لقد وردتنا الأخبار بأن المزارعين، ومثلهم الشركات المنتجة للأعلاف بدأوا في استخدام أو محاولة استخدام فضلات الأطعمة الجافة المستخرجة من حاويات القمامة، ومخلفات المطاعم من الشحوم وزيت القلي والشحوم المتجمعة في محابس الشحوم والغبار المتصاعد من مصانع الإسمنت.. وحتى أوراق الجرائد والورق المقوى المستخرج من النباتات، كما أجرى الباحثون بعض التجارب على سماد المواشي والخنازير والرواسب الطينية.

ولا تتوافر في الوقت الراهن أي إحصائيات دقيقة حول عدد المزارعين الذين يطعمون مواشيهم بفضلات الدواجن، لكن يعتقد بأن هذه الظاهرة قد عمت في نصف الولايات المتحدة أو ثلاثة أرباعها، وبالرغم من الرائحة الكريهة المنبعثة من فضلات الدجاج والديك الرومي، فإنه يمكن استخدامها كعلف بعد تكديسها على نحو سليم وإخضاعها لمدة تتراوح ما بين 4 ـ 8 أسابيع لدرجة حرارة تتراوح ما بين 160 ـ 170 درجة فهرينهايت، وهي درجة عالية تكفي لقتل البكتيريا، وقد ذكر بعض المزارعين بأنهم يقدمون لدواجنهم سماد المواشي الخام دون إخضاعها لأي تصنيع.

وقد ازداد الاهتمام بمكونات أعلاف الحيوانات في الولايات المتحدة مؤخراً في أعقاب الضجة التي قد أثارها في بريطانيا موضوع جنون البقر والمخاوف التي انتابت الشعب الأمريكي من أن تنتقل العدوى إليهم، وقد لقي مئات من البريطانيين حتفهم نتيجة تناولهم لحوم الأبقار الملوثة.

وتفيد الإحصائيات بأن 75 بالمائة من رؤوس المواشي في أمريكا والبالغ عددها 90 مليون رأس ظلت تأكل مخلفات المسالخ، وأن الحظر المفروض على تقديم المنتجات الثانوية لمصانع اللحوم قد يدفع مربي المواشي ومصانع الأعلاف إلى اللجوء إلى مضافات مثل السماد ومخلفات أخرى مشكوك فيها.

قلت: فنلفرض أني اقتنعت بما قلت، وطلقت لحوم المواشي ثلاثا.. فماذا آكل بدل اللحوم؟

قال: قد يعيش الإنسان طول عمره لا يأكل قطعة لحم واحدة، ومع ذلك يعيش سليما معافى.. إن رزق الله موزع في الأرض بحيث يغني بعضه عن بعض.

قلت: ولكن الإنسان يحتاج إلى بروتينات حيوانية.

قال: نحن ـ هنا ــ في تدريبنا نأكل الأسماك بدل اللحوم..

ولكن لا نتناول منه إلا قطعا صغيرة فقط.. ولا تتعدى وجبة السمك ثلاث مرات بالأسبوع.

قلت: فما الغذاء الأساسي إذن؟

قال: الغذاء الأساسي هو الحبوب والبقوليات مع سلطة خضراء.

قلت: فسأذهب لأبشر الفقراء إذن.

قال: بم؟

قلت: إن الفقراء عندنا لا يحزنهم شيء كما يحزنهم خلو أطباقهم من تلك اللحوم التي تملأ أطابق الأغنياء.

قال: فبشرهم.. ولا تنس أن تخبر الأغنياء بالفضلات التي يأكلونها.

اقتربت من **المجموعة الثالثة**، فسألتهم عن التدريب الذي يعانونه، فقال أحدهم: نحن ـ هنا ـ نحاول التخلص من عادة أكل السكر بتبديله بما هو أفضل منه.

قلت: ولم تعادون السكر كل هذه العداوة؟

قال: لأنه من أطعمة الين المتطرفة.

قلت: فبم تستبدلونه؟

قال: هناك الكثير من الأشياء التي نستطيع أن نستبدلها بالسكر.. كالفاكهة الحلوة مثل التمر والدبس.. بل يمكن أن نستخدم الدبس بعمل الحلاوة الطحينية، وهي أفضل بكثير من التي تصنعونها من السكر الصناعي.

قلت: فسهل إذن تخليص غذائنا من السكر المصنع.

قال: أجل.. ولكن انتبه، ففي البداية ستشعر أنك بحاجة للسكر، فاصبر وحاول التخلص منه بالتدريج.

اقتربت من **المجموعة الرابعة**، فسألتهم عن التدريب الذي يعانونه، فقال أحدهم: نحن نتناول الحساء يوميا، بل نجعله من الوجبات الرئيسية.

قلت: وما يحتوي هذا الحساء؟

قال: على الخضار ذات الجذور، وجزء من ذات السيقان، وبعدها الأوراق.. أي أن غذاءنا يكون متنوعا بين الين واليانج.

قلت: ما هذه الأعشاب التي أراها في حسائكم؟

ضحك، وقال: هذه أعشاب البحر.. ألا تعرفها!؟.. هي جزء أساسي من غذائنا.

قلت: أعشاب البحر!؟

قال: نعم من الطحالب وغيرها.. ألا تعلم أن الذي يتغذى على الطحلب يكــون في مــأمن من العديــد من الأمــراض المصــاحبة للشيخوخة وخاصــة الأمـراض المؤرقــة والمعقـدة والمفنـدة.. وأن الــبروتين النــاتج من الطحــالب يحتــوي على الأحمــاض الأمينيــة الأساسية والتي يمرض الإنسان إذا لم يتناولها مع الغذاء!؟

اقتربت من **المجموعـة الخامسة**، فسـألتهم عن التـدريب الذي يعانونه، فقال: نحن نتدرب على اسـتبدال الألبـان ومشـتقاتها بمشتقات نباتية.

قلت: ولكن الحليب ومشتقاته غني بالكالسيوم وبمواد كثــيرة ضرورية، وقد عرفت في القسم السابق ما عرفت من أهميته.

قال: نحن نبني موقفنــا من اللبن على إحصـائيات علميـة، ولا حرج عليك في أن لا توافقنا فيها.. فالأمر في هذه المسائل نسبي.

قلت: فاذكر لي قولك.. ولن أجادلك.

قال: هناك إحصائية أجريت في اليابان ـ وهم عادة لا يتناولون الحليب ـ مع دول شمال أوروبا ـ وهم يتنــاولون الحليب ومشـتقاته بصورة كبيرة جدا ـ للنساء المصابات بهشاشـة العظـام، وقـد دلت النتائج عكس ما هو معتقد فقد تبين أن النساء اليابانيـات نـادرا مـا يصبن بهشاشة العظام مقابل نسبة عالية في شمال اوروبا.

قلت: فمــا مصــادر الكالســيوم الــتي تعتمــد عليهــا النســاء اليابانيات؟

قــال: هي الخضــار الورقيــة ذات اللــون الاخضــر الغــامق، والأعشـاب البحريـة الـتي تحتـوي على نسـب عاليـة منـه، وبعض المكسـرات والبقوليـات ويوجـد جبن التوفـو المصـنوع من حبـوب الصويا، والطحينية التي يمكن أن يدهن بها الخبز بدل الزبدة.

قلت: ولكن اللبن من المصادر المهمة للكالسيوم.

قال: ذلك صحيح.. ولكن المشكلة هي أن الجســم لا يسـتفيد من هذا الكالسيوم كما ينبغي.

قلت: ألا يمكن أن يكون نوع الحليب المسـتعمل، والـذي أثـر فيه نوع الغذاء الذي تتناوله الحيوانـات، ونمـط معيشـتها ومعيشـتنا هو السبب في هذا.. لا الحليب في حد ذاته، فإني أقرأ في القــرآن الكريم أن الله تعالى هو الذي سقانا الحليب، والله تعالى لا يسقينا سما.

قال: كلامك صحيح.. فـإن الإحصـائيات المـذكورة مبنيـة على الحليب الموجــود في الســوق.. وعلى البشــر الــذين غــيرتهم

الحضارة.
قلت: لقـد ورد في النصـوص أن الحليب يرمـز إلى الفطـرة السليمة.. أفلا يدل تأثيره العكسي على فساد الفطرة؟
قال: هذا ممكن أيضـا.. وأزيـدك شـيئا قـد يجعـل الهـوة بيننـا وبينكم ضيقة.
قلت: ما هي؟
قال: لم يرد في نص واحد من النصوص أن النـبي ﷺ شـرب الحليب مغلى على النار.
قلت: هذا ما أعلمـه.. فقـد كـانوا يشـربونه بعـد حلبـه بـدفء ضرعه.
قال: وهذا يقيهم كثيرا من مخاطر الحليب المغلى.. فمخـاطر الحليب المغلى تقضي على أكثر محاسن الحليب.
قلت: فاذكر لي من ذلك ما يريح ألباننا من النار.
قـال: من ذلـك أن تعقيم الحليب يجعلـه أكـثر صـعوبة على الهضم، وذلك بسبب تغـير مـيزة الـبروتين.. وغليـه يـدمر البكتيريـا المرغوبة ويترك البكتيريا غير المرغوبـة خلفـه..ويـدمر الفيتامينـات بنسبة 50 بالمائة من فيتامين ج، ونسبة 25 بالمائة من فيتامينـات ب.. ويدمر أيضاً الأجسام المضادة الطبيعية، وهي بروتينات خاصـة يتم انتاجها لمقاومة العدوى ببعض البكتيريات غير المرغوبة[1].
اقتربت من **المجموعة السادسة**، فسـألتهم عن التـدريب الذي يعانونـه، فقـال أحـدهم: لقـد كنـا من المـدمنين على القهـوة والشاي، ونحن الآن نتمـرن على اسـتبدالها بمشـروبات طبيعيـة لا تحتوي على كافيين كشاي الشعير المحمص.
قلت: ولم تعادون القهوة والشاي، فإني لا أراهما إلا محسنين لعقولنا؟
قال: كيف ذلك؟
قلت: إنهمـا ينبهـان النـائم، وينشـطان الكسـول، ويوقظـان الغافل.
قال: هما من أغذية النفاق..
قلت: ما تقـول.. إن مـا تدعيـه خطـير.. فلا ينبغي أن تحملـك عداوتهما على سبهما.. ألم تسمع قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْـطِ وَلا يَجْـرِمَنَّكُمْ شَـنَآنُ قَـوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

1) مجلة الدليل إلى الطب البديل.

(المائدة:8)

قال: بلى، سمعته، ولكني لم أقل إلا ما وصلت إليه الدراسات العلمية، فقد ذكرت أن الكافيين المتواجد بالقهوة والشاي يولّد شعوراً مؤقتاً بالطاقة واليقظة والرفاهية، لكنه يدفع إلى الإدمان.

قلت: لا حرج في أن ندمن عليه ما دام متوفرا وما دمنا نستفيد منه.. ألسنا ندمن على الماء والخبز؟

قال: ولكن الاستهلاك الدوري للكافيين يمكن أن يؤدي إلى التعب والصداع والاحباط والأرق والاهتياج والقلق.. بالإضافة إلى أن له دوراً في تطوير سرطان البروستات والبنكرياس والمثانة.

بالإضافة إلى هذا، فإن تناول الكافيين بكثرة يؤدي إلى رفع مستوى التوتر بزيادة إفراز الهرمونات المنشطة للأعصاب(1)، فيجعل ذلك نومك صعبا أو متقطعا، ويجعلك أكثر قلقا وارتباكا واضطرابا.

بالإضافة إلى هذا، فإن المشروبات المنبهة تؤدي إلى صداع نابض يتعرض له المصاب صباحا عقب اليقظة من النوم.. فسبب الصداع هو احتواء تلك المشروبات على الكافيين الذي يؤدى إلى حدوث تقلص بالأوعية الدموية، وعندما تقل نسبة الكافيين في الجسم فإن الأوعية تعود للتوسع مسببة نوبة الصداع.

قلت: لك أن تتحدث عن القهوة بما تشاء، فإنه لا رغبة لي فيها، ولكن الشاي لا يحق لك أن تتهمه بأي تهمة، فقد أثبتت الدارسات الكثير من المصالح المرتبطة به.. ولا يضره بعض المفاسد التي وصفتها.

قال: فأخبرني لعلي أقتنع بما تقول، فأعود لشرب الشاي، فإني أحن له أكثر من حنين الناقة إلى حوراها.

قلت: لقد ذكرت الدراسات من فوائد الشاي الأخضر ما يجعله مشروبا صحيا من الدرجة الأولى، فمن فوائده أنه يخفض من مستوى الكوليستيرول، ويعمل على خفض ضغط الدم المرتفع، لأنه يؤدى لاسترخاء العضلات الملساء المتحكمة في درجة قبض الشرايين.. وهو مضاد للعدوى بأنواع عديدة من البكتيريا المعدية، وخاصة الأنواع المسببة للإسهال وللنزلات المعوية، ولذلك فإن تناول الشاي الأخضر يساعد على الشفاء من

---

1) منبهات الجهاز العصبي المركزي وهي المواد التي تنشط خلايا المخ وتؤدي الى الهياج والارتباك ويندرج تحتها (الكوكايين – الامفيتامينات – القات – النيكوتين – الكافيين)

هـذه الحـالات.. وهـو يحافـظ على سـيولة الـدم ويقـاوم حـدوث الجلطات.. وهو يزيد من كفاءة جهـاز المناعـة.. وهـو يحتـوي على نسـبة جيـدة من معـدن الفلـورين المعـروف بمفعولـه المقـاوم لتســوس الاســنان.. ويمكن أن يســاعد في التخلص من الــوزن الزائد.. ويساعد على انتظام حركة الأمعاء، ويقي من الإمساك.

بالإضافة إلى هذا كله، فقد ذكر البـاحثون أن الشـاي الأخضـر يكافح الأورام السرطانية، إذ يمنع نمو الأوعية الدمويـة الـتي تغـذي هذه الأورام وتساعدها على البقاء والنمو، ويساعد مفعوله المضـاد للأكسدة في المحافظة على الخلايا من المواد المدمرة.

قال: بورك فيك، فقد كنت مخطئا بشأنه.. وأستغفر الله.

قلت: لا حرج عليك.. ولكن لا تنس إن عدت إلى شربه قولــه تعــالى: ﴿ وَكُلُــوا وَاشْــرَبُوا وَلا تُسْــرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْــرِفِينَ ﴾ (لأعراف:31)، فإن الإسراف أصل من أصول العلل.

اقـتربت من **المجموعة السـابعة**، فسـألتهم عن التـدريب الذي يعانونه، فقال أحدهم: نحن نتدرب على أكل الفواكه المناسبة المرتبطة ببيئتنا.

قلت: أليست كل الفواكه فواكه الأرض.. وقد خلقها الله لنا؟

قال: ذلك صـحيح.. ولكن اللـه تعـالى بحكمتـه جعـل في كـل أرض ما يتناسب مع طبائع أهلها.. ومن مخالفة الفطرة أن نأكل ما لا يتناسب مع ما خلقه الله لنا.

قلت: فهلا ضربت لي مثلا على هذا يطمئن له قلبي وينشــرح له صدري.

قال: لو أن رجلا استضافك وقدم لك طعامـا.. ولم يقـدم لـك غيره.. أكنت تشترط عليه أن يقدم لك ما تشاء من الطعام؟

قلت: لا.. فليس ذلك من الأدب.. وقد ذكرتني بأبي وائل، فقد قال: مضيت مع صاحب لي نـزور سـلمان فقـدم إلينـا خـبز شـعير وملحاً جريشاً، فقال صاحبـي: لـو كـان في هـذا الملح سـعتر كـان أطيب، فخرج سلمان فرهن مطهرته وأخذ سعتراً، فلما أكلنـا قـال صاحبي: الحمد لله الذي قنعنا بما رزقنا. فقـال سـلمان: لـو قنعت بما رزقت لم تكن مطهرتي مرهونة.

قال: هذا ليس خاصـا بـالأدب مـع اللـه فقـط، بـل لـه علاقـة بالصحة، وله فوق ذلك علاقة بالمدنية والحضارة.

قلت: ما علاقة هذا بالمدنية والحضارة؟

قال: ستعرف ذلك عندما ترحل للبحث عن مفاتيح المــدائن..

وسترى أنـه لن تقـوم لكم قائمـة حـتى تـأكلوا من ثمـر أشـجاركم وحصاد زرعكم.

النظام الشامل:

قلت: لقـــد أنهيتم ـــ أنتم ـــ جميـــع المراحـــل المرتبطـــة بالماكروبيوتيك، فما ترون؟.. هل هو نظام غذائي صالح وصـحي؟.. أم أنه لا يختلف عن سائر الأنظمة؟

قال: لقد اخطأت خطأ شـديدا.. كيـف تـزعم أن هـذا النظـام نظام عذائي؟.. إنه نظام حياة صحية.. والأكل أحد جوانبه.

قلت: كيف ذلك.

قـال: اسـمع هـذه النصـائح السـبع.. فإنـك لن تـدخل هـذه الطريقة حتى تلتزم هذه النصائح كما تلتزم الأوراد.

قلت: فما النصيحة الأولى؟

قال: اختر غذاءا مغذيا.. زود معدتك بمـا تحتاجـه من الفاكهـة الطازجة والخضار.. واختر تشكيلة واسـعة لأطعمـة طازجـة لذيـذة وصحية.

قلت: عرفت هذا.. فما النصيحة الثانية؟

قال: اشرب ماء نقيـا، واجعـل بعض مائـك على شـكل شـاي بأعشاب.. وجرّب بعض عصائر الخضـار المعمولـة طازجـة كعصـير الجزر، والكرفس، والبنجر..

قلت: فالثالثة؟

قـــال: شـــارك في تمـــارين منتظمـــة.. وليكن التمـــرين من اختيارك، وفي مستوى متوافق مع مستوى لياقتك.

قلت: فالرابعة؟

قال: اضمن الراحة والترويح من الكافيين.. وخذ قسطا كافيـا من النوم والترويح على أساس منتظم.

قلت: فالخامسة؟

قـــال: اجتنب الكحـــول، والســـيجارات المحرمـــان شـــرعاً، والأطعمة المعالجة والمعبّـأة للحفـظ.. ولا تنس اجتنـاب المنبهـات الأخـــرى المـــدمرة للصّـــحّة كـــالقهوة، والملح المكـــرر، والســـكر، والشوكولاته، ومشروبات الكولا ومنتجات الدقيق الأبيض.

قلت: فالسادسة؟

قـال: اسـتمتع بالطبيعـة في أجوائهـا النقيـة.. فـالهواء النقي والعناصر الطبيعية يجلبان الإنتعاش والنشاط إلى الجسم والـروح.. فاستغل هذه الهدية الطبيعية بقدر الإمكان.

قلت: فالسابعة؟

قال: كل وجباتك في جو هـادئ، ولا تأكـل إلا إذا كنت جائعًـا.. وعند مضغ طعامـك تبـدأ عمليـة الهضـم وتزيـد فرصـة الامتصـاص الكامل للأغذية بدقة.

الغذاء الميزان

ما إن خرجت من مطعم الماكروبيوتيك حـتى رأيت رجلا جـاء من أقصى القسم يسعى، وهو يقول: أنا معاصر لك.. ولا شك أنـك تعرفني..

قلت: بلى.. وقد عرفت اهتمامك بالغذاء في القـرآن الكـريم، ولكني لا أعلم أنك تبحث عن العلاج بالغذاء.

قال: بل هو من صلب اختصاصي.

قلت: فأنت طبيب، وعهدي بالأطباء ينكرون مثل هذا.

قال: هم يختلفـون.. فمنهم الجـافي الغليـظ.. ومنهم الواسـع الـذي فتح اللـه مداركـه، فعلم أن قـوانين الشـفاء أكـثر من أن يحصرها الحاصرون.

قلت: فأخبرني عنك.

قال: بل سأخبرك عن اكتشافي.. فقـد شـغلني عن نفسـي.. فرحت بكل الوسائل أبشر به.

قلت: فحدثني عنه.

قال: لعلك تسأل عن دوافع اكتشافي مع أني طبيب باطني؟

قلت: لم تخطئ قصدي.

شفاء لكل داء:

قال: بدأ ذلك أثناء فترة عملي في مستشفى لنيل التخصـص في الطب البـاطني، ولا أنسـى تلـك الليـالي الطويلـة الـتي كنت أناوب فيها، وأقف عاجزا عن إعطـاء حـل جـذري لمشـكلة مزمنـة مستعصية من خلال ما تعلمته من الطب الحديث، وخصوصا عندما يأتيني مريض مثلا بهجمة ربـو حـادة، وضـيق نفس شـديد، فلا أجـد عندي ما أعطيه، غير ما تعلمنـاه في هـذا الطب الحـديث من دواء فنتولين على شكل رذاذ أو بعض مضـادات الالتهـاب السـتيروئيدية مثـل البريـدنيزولون، وهـو نـوع من أنـواع الكورتـيزون، حيث كنت أعطيه إياه حقنا وريديا.

وقد كنت أشعر ببعض الارتياح عندما أجـد التحسـن عنـد هـذا المريض، ولكني في نفس الوقت أشعر بالعجز، وأنا أعلم أنني قـد

أحبطت هجمة الربو هذه لديه الليلة، وأنا متأكد أنـه سـيعود لي في الليلة القادمة أو بعدها، أو غيرها بهجمة قد تكون أشد، وقد لا أكون قادرا على إحباطها أبدا، وقد يكون فيها حياة المـريض، وقـد حـدث ذلك سابقا، ورأيناه.

وكنت في تلك الأيام العصيبة تحت ضـغط شـديد، ويـدور في خلدي دائما كيـف أصـل إلى حـديث رسـول اللـه ﷺ الـذي يقـول: (تداووا، فإن الله لم ينزل داء إلا أنزل له شـفاء، علمـه من علمـه، وجهله من جهله)(1)

نعم فهناك شفاء لكل داء، فهذا من المنطق الطبيعي لرحمـة الله سبحانه وتعالى، أن يكون لكـل داء دواء وشـفاء، ولكن قصـور الإنسان هو المشكلة، ولذلك ختم رسول اللـه ﷺ الحـديث بقولـه: (علمه من علمه وجهله من جهله)

قلت: ولكن الطب الحديث قد حقق معـنى هـذا الحـديث بمـا اكتشفه من الأدوية الكثيرة.. ألا تعرف ذلك.. فأنت طبيب مختص؟

قال: وكوني كذلك جعلني أشـعر بالإحبـاط، فـالطب الحـديث نجح ـ بفضل الله ـ في تحقيق كثير من العلاجات الناجحة والرائعــة في الحالات الحادة، ولكنه وقف عاجزا قاصرا ضعيفا أمام الحـالات المزمنة المستعصـية، والـتي كنت أقـف أمامهـا عـاجزا لا أسـتطيع فعل أي شئ لها، وما أكثرها.

قلت: أهنــاك علــل لم يتوصــل الطب الحــديث بأســاطيله وجيوشه إلى علاجها؟

قـال: مـا أكـثر هـذه الحـالات، فالتهـاب القولـون العصـبي، والتهاب القولون التقرحي، وداء كرون، والتهاب المفاصل الرثياني، وداء الذئبة الجهازية الحمامية، وارتفاع الضغط الدموي الشــرياني، والسـكري، وتصـلب الشـرايين، وارتفـاع الكوليسـتيرول، والتليـف العضلي الليفي، والربو، والأشكال المختلفة من الحساسية الأنفيــة والجلدية، والتهابات الكبـد المزمنـة، والالتهابـات المعديـة المزمنـة وضـعف البنيـة وغيرهـا من الأمـراض الطويلـة في القائمـة، يقـف الطب الحديث عاجزا عنها نهائيا، وكـل مـا يسـتطيع أن يقدمـه هـو تسكين الألم، ومحاولة تأخير الهجمات أو تخفيفها.

قلت: فكيف وقفت من هذه العلـل.. هـل ظللت حزينـا؟.. أم استقلت من وظيفتك؟

قال: لا.. كيف ذلك.. أنا قائم على ثغـر من ثغـور بنيـان اللـه..

---

1) مسلم.

فكيف أستقيل.. بل إن هذه الآلام المتراكمة بالشعور بـالعجز تجـاه الأمـراض المزمنـة المستعصـية المعذبـة لأصـحابها، دفعتـني إلى البحث الدائم عن طريقة أخرى لتخفيـف هـذه الآلام، وكنت أشـعر بأن هذا واجبي، فأنا طبيب ووظيفتي الأساسـية إراحـة النـاس من آلامها ومعالجتها للوصول بشكل دائم تام كامـل إلى الشـفاء التـام الكامل بإذن الله تعالى.

قلت: هذه نية طيبة.. فما السنن التي اتبعتهـا لتحقيقهـا؟.. فلا بد من امتطاء السنن للوصول إلى الثمرات.

قال: لقد اتجهت في البداية إلى دراسـة كتب طب الأقـدمين من المسلمين، ـ والذين تشـرفت في هـذا المستشـفى بـالجلوس معهم ـ وقد رأيت أن الأنظمة الغذائية التي وضعها علماء كبار مثـل الرازي وابن سينا تعتبر صعبة التطبيق في مثـل هـذا العصـر الـذي أصبحت الابتسامة فيه مغرمـا، ولا وقت للبشـر لكي يطبقـوا مثـل هذه الأنظمة الغذائية التي تحتاج إلى تفرغ تام، ومن ثم اصطدمت بعدم عملية هذه الأنظمة الغذائية التي ذكرت في الكتب الإسـلامية القديمة في عصرنا هذا، وذلك بالرغم من نجاحهـا الفـائق وتفوقهـا المطلق في عصرها.

قلت: فماذا فعلت؟

قـال: لقـد اتجهت إلى الرجـوع إلى المصـدرين الأساسـيين: كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، وكنت متأكدا أني لن أضـل أبـدا ما التزمت بهما..

قلت: ولكنهما مصدار هداية، لا مصدر شفاء.

قال: كونهما مصدر هداية لا ينفي كونهمـا مصـدر شـفاء.. بـل إن الهداية الشاملة تدل على ضرورة وجود مثل هذا العلم في هذه المصادر.

قلت: فما الذي اكتشفته من هذين المصدرين؟

قـال: أشـياء كثـيرة.. لقـد أصـبح لـدي مـأكولات وأطعمـة ومشروبات محددة، هي التي وردت في القـرآن الكـريم، وبتكـرارا معين، موزعـة على وجبـات محـددة، خلال فـترة زمنيـة محـددة، بتسلسل معين، وبقواعد ذهبية معينة، وبعلاقات خاصـة مـع بعضـها بعضها، وما كان علي بعد كل هذا الفتح من الله إلا أن أبدأ الدراسة العملية على ذلك.

قلت: فهل طبقت العلاج بهذا عمليا، وعلى المرضى؟

قال: أجل.. ألم يقل لك المعلم: إنه لا وجود للفئران في هـذا

القسم؟

قلت: فاذكر لي كيف طبقت هـذا النـوع من العلاج.. ومـا هي نتائجه؟

قـال: بـدأت بتطـبيق أسـس علم التغذيـة والطاقـة القـرآني، والذي سميته (نظام الغذاء الميزان) على أكـثر من مـائتي مـريض بدراسة جديدة دقيقة متناهية في الدقة، بحيث نقـوم بأخـذ القصـة المرضية المفصلة لمريض يعاني من مرض مزمن مستعصى على العلاج الحديث، ثم نقوم بالفحص السريري الكامل لنجـد مـا عنـده من علامات مرضية أظهرها مرضه المزمن، ثم نقـوم بالفحوصـات المخبرية والشعاعية اللازمة لكل مريض كـل حسـب مرضـه، وفي الخطـوة الرابعـة نقـوم بعمليـة تنظيـف غـذائي للجسـم، ثم نقـوم بتطبيق نظام الغذاء الميزان عليه 0

قلت: فما هي النتائج التي توصلت إليها؟

قال: لقد كانت النتائج مذهلة بشـكل معجـز رائـع، فقـد رأيت الحالات تتحسن الواحدة تلو الأخرى تحسنا تدريجيا، مضطردا شـيئا فشيئا، وقد وصل بعض المرضى إلى الشفاء التـام في خلال ثلاثـة أسـابيع أوشـهر، بعـد أن عـانوا سـنين طويلـة من أمـراض مزمنـة عضال لا شفاء لها في الطب الحديث.

قلت: فهلا حدثتني عن بعض هذه النتائج ليطمئن قلبي؟

قال: كانت أكثر نتائج الشفاء تـأثيرا في نفسـي امـرأة كـانت تعاني من عقم سـببه ارتفـاع هرمـون الحليب الـذي وصـل لأرقـام مخيفة عجز الطب الحديث عن علاجه.

قلت: فهل جربته قبل أن تأتي إليك؟

قال: أجل.. لقد كانت تتناول دواء البارلوديل، وقد كان يـذيقها ألوان العذاب، فقد ورم وجهها ويداها وأصـابها بالاكتئـاب والضـعف والغثيان والقرف من الطعام والهـزال والتعب والنـوم الكثـير وآلام في العضـلات والمفاصـل وغـير ذلـك.. ومـع كـل هـذه التـأثيرات الجانبية العظيمة لهذا الـدواء الجبـار على الجسـم، فقـد اسـتمرت المريضة في تناوله وتحمل كل قرفه وآثاره الجانبية رغبة منهـا في الحصول على طفل، ولكن كانت كـل المحـاولات الـتي قـامت بهـا هذه المرأة قد باءت بالفشل الذريع.

قلت: فما فعلت معها؟

قال: طبقت عليها نظام الغذاء الميزان، ولثلاثة أسابيع فقــط، وهي أقـل من المـدة المقـررة حسـب الشـيفرة القرآنيـة.. وقـد

سجدت لله شكرا عندما رأيت هرمون الحليب قد عاد إلى أرقامــه الطبيعية بعد سنوات طوال من الارتفاع، وما هــو إلا شــهران حـتى حملت هذه المرأة بطريقة طبيعية.

قلت: لقد كان هذا أول فتح.. فهل تلته الفتوح؟

قـال: أجـل.. فتـوح كثـيرة بحمـد اللـه.. فقـد بـدأت الحـالات المزمنة والمستعصية تتعافى واحدة تلو الأخرى، وأصـبحت أتعامـل مـع الأمـراض المستعصـية مثلمـا أتعامـل مـع الرشـح، والزكـام البسيط.. فخلال أيام قلائل وخلال شهور قليلة نحصـل على شـفاء تام في معظم الحالات، وحتى الحالات التي لم تشف تمامـا نراهـا قد تحسنت بدرجة كبيرة، بحيث أصـبح المـرض المـزمن لا يشـكل معها معضلة ومنغصا على الحياة.

قلت: فهل كانت تكلفة العلاج شديدة على المرضى؟

قـال: لا.. بـالعكس.. لقـد كـان حصـول الشـفاء سـهلا جـدا، ورخيصا جدا.. فلم نكن نحتاج لدفع مئات الألـوف من أجـل عمليـة جراحيــة أو الحصــول على علاج من بلاد الــواق واق، بــل لم يكن هناك أي استغلال من قبل التجار في بيـع مـواد غذائيـة غريبـة عن ثقافتنا، بأسعار باهظة الثمن.

بل لم نر داعيا لتحريم اللحم واللبن والعسـل والتمـر وغيرهـا خلافـا لمن يـرى تحريمهـا، فهـذه الأطعمـة تمثـل لب هـذا النظـام الغذائي القرآني، الذي يمثل نجاحا فائقا عظيما بفضل الله ونعمته.

قلت: فهل ذكـرت لي الأمـراض الـتي جـربتم هـذا النـوع من العلاج عليها، ورأيتم فاعلية هذا الدواء في علاجها؟

قـال: هي كثـيرة، منهـا أمـرا ض الجهـاز التنفسـي، كـالربو المـزمن، والتهـاب الانـف التحسسـي المـزمن، والتهـاب اللـوزات المتكرر عند الاطفال، والتهاب الجيوب المزمنة، والتهاب القصـبات المزمن، والنفاخ الرئوي، والرشوحات المتكررة الناجمة عن ضعف المناعة.

ومنها أمراض الغدد والامراض الاستقلابية، مثل الورم المفـرز للبرولاكـتين في الغـدة النخاميـة، وزيـادة نشـاط الغـدة الدرقيـة، ونقص نشاط الغدة الدرقية، والداء السكري بنوعيـه المعتمـد على الإنسـولين وغـير المعتمـد على الإنسـولين، إضـافة إلى اختلاطـات الداء السكري، ومتلازمـة كوشـينغ الناجمـة عن زيـادة الكورتـيزول داخل الجسم، وترقق العظـام، وهشاشـة العظـام، وحـالات العقم خصوصا تلك التي من مصدر هرموني، وآلام الدورة الشـهرية عنـد

النساء، واضطرابات الدورة الشهرية عند النساء.

ومنهـا أمـراض الكلى، مثـل التهـاب الكلى الحـاد والحصـى المتكررة في الحالب والكلية، ومتلازمة النفروز، وحتى بعض أنـواع قصور الكلية الحاد، والتهابات المسالك البولية المتكررة.

ومنها أمـراض القلب والشـرايين، مثـل ارتفـاع ضـغط الـدم، وارتفاع كوليسـترول الـدم، وبعض حـالات قصـور القلب، وتصـلب شرايين القلب.

ومنها أمراض الدم، مثل فقـر الـدم، وبعض أنـواع سـرطانات الدم، وسرطانات العقد اللمفاوية.

ومنها أمراض المفاصل، مثـل التهـاب المفاصـل الرثيـاني، وآلام الظهر المزمنة، وقد لاحظنا تحسنا في مرض الذئبـة الحماميـة الجهازية وآلام المفاصل العامة.

ومنها الأمـراض الجلديـة، كالحساسـية، والاكزيمـا، والشـرى، والطفح الجلدي، وتساقط الشعر، حتى بعض حالات البهاق، وبعض حالات الصدفية.

ومنها أمراض الجهاز الهضمي، مثل التهاب المعـدة، والقرحـة المعدية، والتها ب القولون المتهيج،وبعض حـالات التهـاب القولـون التقرحي.

وغيرها كثير من الأمراض.. والتي لا مجال لذكرها كاملة.

أصول الشفاء:

قلت: لقد ذكرت أنك اعتمدت أساسـا على القـرآن الكـريم.. وأنت طبيب، وتعلم أن لغة الطب ـ قديمـه وحديثـه ـ لا تتحـدث إلا بالأرقام والمقادير.. فكيف وجدت هذا في القـرآن الكـريم.. فإنـه ـ وإن ذكر الأطعمة والأشربة ـ إلا أنه لم يبين مقاديرها.

قال: صدقت.. ولا شك في ما قلت.. بل قد وجدت ما ذكـرت في القرآن الكـريم، فاللـه تعـالى يـذكر العـدد بشـكل دقيـق جـدا، ويشير إلى أهميته بشـكل مفصـل في كثـير من آياتـه.. ألم تسـمع قوله تعالى: لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَـدّاً (مـريم:94)، ويشـير في آية أخرى إلى أهمية العدد في كل شـئ، فقـال تعـالى: وَأَحْصَـى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً (الجـن:28)

ولذلك اعتقدت أنني إذا قمت بدراسة إحصائية على الأطعمـة والمـأكولات والأشـربة الـتي ذكـرت في القـرآن الكـريم فـإني سأحصل على شيء، وهذا ما فعلته.

قلت: أراك تفرق بين الأكل والطعـام فمـا سـر ذلـك، أم أنـه

مجرد غرام بالمترادفات؟
قال: لا.. هناك فرق كبير بين الطعام والأكل، فالأكل هو كل ما يؤكل ويدخل الجوف مثل الخيار والجزر والمكسرات وغيرها، أما الطعام فهو ما يقتات به، أي يمكن للإنسان أن يعيش عليه، لوحده ولفترات طويلة، كما حدث مع أهل مصر في عصر يوسف ﵇ إذا عاشوا على الحنطة سبعة أعوام متواصلة، وعلى الحنطة فقط، ومثلما حدث مع رسول الله ﷺ إذا كان يعيش شهرين كاملين على الأسودين، التمر والماء.

قلت: فهل قمت بالدراسة الإحصائية التي ذكرتها عن الأطعمة والأكل الوارادة في القرآن الكريم.. وما استنتجت منها؟

قال: لقد قمت ـ أولا ـ بإحصاء جذر كلمة طعم في القرآن الكريم، ومثلها جذر كلمة أكل في القرآن الكريم على أساس الفرق الذي ذكرناه، مع قيامي بالتمييز بين كلمة أكل بمعنى الأكل الحقيقة، بأن يضع الإنسان شيئا في فمه ويأكله، والأكل المجازي في القرآن مثل أكل مال اليتيم وأكل الربا، وأكل الغنائم.. وقد رأيت هنا المفاجأة الأولى.

قلت: بشرتني.. فما رأيت؟

قال: لقد ثبت لدي أن كل المواد المأكولة التي وردت في القرآن الكريم من تمر وحب وعنب ولحم وزيتون وأعناب وفواكه، وغيرها من كل المواد المأكولة التي وردت في القرآن الكريم قد وردت بتكرار مجموعه يعادل كلمة أكل ومشتقاتها (بمعنى الأكل الحقيقي) في القرآن الكريم.

وليس ذلك فقط فقد ثبت معي أن المواد الطعامية التي ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم مثل التمر والعنب واللبن والحب وغيرها، وهي نفسها التي كان رسول الله ﷺ يخرج الصدقة والزكاة منها، كما ورد في الحديث: كنا نخرج زكاة الفطر إذ كان فينا رسول الله ﷺ صاعا من طعام أو صاعا من شعير أو صاعا من تمر أو صاعا من زبيب أو صاعا من أقط)[1]، فعندما أحصيت هذه المواد الطعامية بتكراراتها التي وردت فيها في القرآن الكريم كاملا وجدت أنها مطابقة لعدد كلمة طعم ومشتقاتها التي وردت في القرآن الكريم.

ومثل ذلك عندما أحصيت الأشربة بتكراراتها التي وردت في القرآن الكريم مثل الزيت والخل واللبن والزنجبيل والكافور

1) الترمذي.

وغيرها، وجدت أنها مطابقة تماما لعدد كلمة شرب ومشتقاتها التي وردت في القرآن الكريم.

وليس هذا فقط.. بل إنني عندما جمعت عدد كلمات (شرب) ومشتقاتها في القرآن الكريم، مع عدد كلمة طعم ومشتقاتها في القرآن الكريم وجدت أنها تساوي جميعا مجموع كلمة أكل ومشتقاتها في القرآن الكريم.

قلت: فما استنتجت من كل هذا؟

قال: لقد استنتجت من هذا أن العدد ذو أهمية شديدة، وهو ضروري لتشكيل نظام غذائي كامل متكامل يطبق خلال فترة معينة.

قلت: فإلى أين بلغ بك هذا الاكتشاف؟

قال: لقد قمت بدراسات إحصائية في القرآن الكريم حول الأطعمة والمأكولات والأشربة، ومنه استطعت أن أستنبط هذا العلاج.

قلت: فحدثني عن هذا النظام الغذائي العلاجي.. وكيفية استعماله.

قال: هذا النظام الغذائي العلاجي يفوق كل الانظمة الغذائية المعروفة، وهو مستنبط أساسا من القران الكريم، فبعد الآيات التي يقول فيها الله تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ (الرحمن:7 ـ 9) جاءت الآيات التي توضح الميزان الغذائي والذي يستعيد الانسان من خلاله الميزان الغذائي الذي فقده فقد قال تعالى: ﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ (الرحمن:10 ـ 12)

فقد احتوى هذا النظام على الفواكه، وثمار النخل، والريحان، وهو يشمل كافة الخضروات بالإضافة إلى النباتات العطرية إذ أنه يتبع في تصنيفه إلى كلتا هاتين المجموعتين.

وأضفت إلى هذه العناصر الأساسية الخل من حديث الرسول ﷺ:(نعم الإدام الخل).. وأضفت الحبة السوداء لذكره ﷺ أن فيها شفاء من كل داء.. وأضفت اللبن الذي اختاره الرسول ﷺ ليلة الإسراء والمعراج.

ثم حسبت ــ وبطريقة علمية ــ كمية العناصر المطلوبة كحاجة يومية للإنسان بما فيها العناصر النادرة والاملاح والفيتامينات.

وقد فرقت فيه بين الأحوال المختلفة للأصحاء والمرضى.

قلت: لقد سمعتك تتحدث كثيرا عن الطاقة.. فهل لهذا النظام علاقة بالطاقة؟

قال: أجل.. هناك علاقة وثيقة.. الهدف من هذا النظام هو استعادة الطاقة.. وكمثال على ذلك اعتمادي على إعطاء القمح المبرعم(1) لاستعادة طاقة الأجسام وحتى النفوس، فقد عالجت به بعض حالات الاكتئاب.

قلت: القمح المبرعم.. لم القمح المبرعم؟

قال: لقد تمكن العلماء من قياس هالة من الموجات الكهرومغناطيسية ذات الطاقة العالية تظهر حول حبة القمح بعد أن نبرعمها.. بالإضافة إلى أن العناصر النادرة في حبة القمح تتضاعف أضعافا عديدة بعملية البرعمة، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك، فقد قال تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾(البقرة:261)

بالإضافة إلى هذا، فقد أثبت العلم الحديث أن كل عنصر من العناصر النادرة ينشط الملايين من الإنزيمات، والتي تعتبر بدورها قاعدة التفاعلات الحيويه في الجسم، فبدون هذه العناصر النادرة تتوقف الكثير من الانزيمات عن العمل وما يتبعها من توقف لاعداد هائلة من التفاعلات الحيويه في جسم الإنسان التي تؤثر بدورها على نشاطه وطاقته.

قلت: فما هي المقادير التي تحقق الفائدة في هذا النظام؟

قال: الجرعة القصوى لتناول القمح المبرعم هي 6 ملاعق، أما في البرنامج الذي وضعته فقد وضعتها ضعفين ونصف كما هي نسبة الزكاة في الإسلام.. فأصبحت الجرعة اليومية 15 ملعقة.

وذلك لأني اعتقد أن المريض يكون بحاجة أكثر للعناصر الغذائية النادرة والموجودة في القمح، وبسبب نقص هذه العناصر لديه، فقد أصبح مريضا وقد قال تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ (التوبة:103)، فإذا أردنا تطهير أجسادنا مما تراكم فيها من خبائث، فعلينا أن ناخذ من الطعام الطيب (القمح

---

1) طريقة برعمة القمح هي أن ينقع القمح لمدة 12 ساعة... ثم يوضع بعد نقعه في صفاية، ويكون بين القمح وبين الصفاية منشفة بيضاء وتغطية القمح بأطراف المنشفة لكي لا يضربه المكيف فيبرد ويجف بسرعة... ويجب رشه بعد كل فترة بالماء... وبعد حوالي يوم ونصف إلى يومين سينبت القمح ويجب أن يوضع في الثلاجة ويستخدم بمدة تتراوح من 3 الى 4 أيام.

المبرعم) ما يطهر أجسامنا وينظفها.

قلت: فحدثني عن تفاصيل هذا النظام للمرضى والأصحاء.

قال: ستجد كل هذا في صيدلية هذه المدائن، وقد كلفت الصيدلاني بشرح كل التفاصيل لمن أراد أن يعلمها.

برنامج ازالة السموم الغذائي:

قلت: لقد أخبرني معلمي بعدم إمكانية ذهابنا إلى هذه الصيدلية، فدلني على شيء أنتفع به إذا رجعت إلى أهلي.

قال: سأدلك على كنز من كنوز الصحة.

قلت: ما هو ـ زادك الله من فضله ـ

قال: سأدلك على برنامج غذائي يطهر جسمك من كل السموم.

قلت: أي سموم!؟.. فلا أظن أني شربت سما.

قال: تلك السموم التي تمتلئ بها أغذيتكم.. هل نسيت ما قال لك جورج؟

قلت: لا.. ما نسيت.. وقد ندمت على كل ما اقترفته من أكل فيما سبق من حياتي.

قال: فاستعمل هذا البرنامج ليطهرك من جميع أوزارك.

قلت: ما هي الأغية التي يعتمد عليها؟

قال: أغذية بسيطة تمتلئ بها أسواقكم وبساتينكم، فما هي إلا كرفس، وجزر سبانخ، وبقدونس، وورق اللفت، وورق الشمندر، وورق السلق، والخس والهندباء، والرشاد، والفجل، والبصل، والثوم، والخيار، والقرع، الملفوف، والباذنجان، والملفوف والقرنبيط واللفت، والشمندر، والحمص الأخضر، والبازلاء.

قلت: فكيف أستعملها؟

قال: تؤخذ هذه الخضراوات نيئة أو مطبوخة قليلاً أثناء اتباع هذا البرنامج، ويجب أن تتناول يومياً مالا يقل عن خمسة عشر ملعقة من القمح المبرعم، وثلاث ملاعق طعام من خل التفاح، وملعقة طعام من السمسم، ونصف ملعقة صغيره من الحبة السوداء، ونصف ليتر أو أكثر من عصير الليمون الطازج، ونصف ليتر أو أكثر من الخضروات الطازجة، ونصف لتر أو أكثر من شوربة الخضار المطبوخة طبخاً خفيفاً، ونصف لتر أو أكثر من اللبن الرائب منزوع الدسم، وبعض النباتات العطرية مثل الزيزفون، والبابونج، وهو ممنوع للحوامل بعد تغليتها.. وتضيف إلى هذه المآكل حماما ليلياً دافئا ليغسل الفضلات المطروحة عن

الجلد.

قلت: هذا كثير.. كيف أسير على هذا البرنامج طول عمري؟.. أنت تدفنني حيا بهذا الأسلوب.

قال: ومن قال بأنك تلتزمه طول عمرك؟.. هو برنامج غـذائي لمدة محدودة لا تتجـاوز أسـبوعا، ويمكنـك إعادتـه يومـاً واحـد في الأسبوع أو 3 أيام في الشهر أيام، وهي الأيام البيض.

قلت: والخضر والفواكه.. فإني شديد التعلق بها!؟

قال: لا تأكل من الخضروات أو الفواكه إلا مـا تحبـه، لأنـك إذا أكلت مـا لا تحب، فسيصـبح مـا أكلتـه مخالفـاً لطاقتـك وتوازنـك الخاص.

قلت: لم تحدثني عن السكر والملح.

قـال: بـدل السـكر اسـتخدم الـدبس الطـبيعي، وبـدل الملح استخدم الملح البحري الخام.

قلت: عرفت هذا.. فكيف أطبقه؟

قال: اجلس مع أولئك المرضى وسأطبقه عليك.

قلت: وهل أنا ملك نفسي؟.. معلمي هو الـذي يوجهـني حيث شاء وكيف شاء.

العناصر والمركبات

سـرت قليلا أبحث عن مطعم من مطـاعم الشـفاء.. فلاح لي مطعم عصري بألوانه وبريقه.. فـدخلت إليـه.. فـرأيت رجلا شـديد النشاط يدور على مجموعـات من المرضـى الجالسـين فيـه، وهـو في حركته بينهم لا يختلف عن النادل الذي يقـدم الطعـام للزبـائن، فاقتربت منه، وقلت: هل أنت نادل بهذا المطعم؟

قال: بل طبيب به.. بل خبير تغذية مشهور.. كيف لا تعرفني؟

قلت: من أنت؟.. فليس لي كبير معرفة بالأطباء.

قال: أنا د. جون بريفا.

قلت: عرفتك.. أنت صاحب كتاب (الطعام الصحي)

قال: أجل.. وحسبي أنك عرفت كتابي، فمن أنت؟

قلت: أنا لست شيئا.. أنا مجرد زائر لهذه المدائن.

قال: لا أعلم أنها فتحت المجال للسـواح.. كيـف هـذا؟.. لقـد حــذرتهم من فتح المجــال للســواح.. ســيخربون هــذه المــدائن الجميلة..

قلت: اطمئن أنا لست وحدي.. لقـد جئت مـع معلم السـلام..

وأنا تلميذ من تلاميذ مدرسة السلام.

قال: مرحبا بك.. إن شئت أن تجلس، لأقدم لك شيئا من الطعام فعلت.

قلت: ما أكرمك من طبيب.. كيف تتواضع كل هذا التواضع؟.. عهدي ببني قومك يتعالون.

قال: لا تقل هذا.. ألم يقل رسول الله ﷺ:(الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا)(1)

قلت: صدقت.. لا أحسبني إلا أسأت إليك.

قال: لا عليك.. قل لي: ما بك حتى أرشدك إلى ما تأكل؟

قلت: أنا لم آت هنا لآكل طعاما.. بل جئت لأسألك عن العلاج بالغذاء.. فأنا أبحث عن الغذاء الذي جعل الله فيه الشفاء من العلل.

قال: فعلى الخبير سقطت، تعال لننتح جانبا، فلن يتركني هؤلاء المرضى لحظة دون تلبية طلباتهم.

قلت: هل تؤمن أنت وقومك بجدوى العلاج بالغذاء؟

قال: هم عموما لا يؤمنون.. ولكني، وبعد معاينتي لمعجزات العلاج بالغذاء، شذذت عنهم.. ولست وحدي في ذلك، بل معي ثلة صالحة ذهبت إلى ما ذهبت إليه.

قلت: فما الذي شذ بكم عن قومكم؟

قال: الأمراض الدوائية..

قلت: الأمراض الدوائية!؟.. ما الأمراض الدوائية!؟

قال: هي الأمراض التي تسببها الأدوية.. وقد فتحنا لهذا النوع من الأمراض قسما خاص أطلقنا عليه الأمراض الدوائية، أو ما نطلق عليه بلغتنا iatrogenic وتفسيرها: التي يحدثها الطبيب.

وقد نشأ لمواجهة هذا النوع من الأمراض جماعات طبية داعية إلى العودة إلى الطب الطبيعي على نمط الطب الأبقراطي.

قلت: فهل ستعودون إلى أبقراط وأساليب أبقراط في البحث عن خصائص الأدوية؟

قال: لا.. نحن نمزج بين الأصالة والمعاصرة، فلذلك ندعوا إلى إعادة الفحص عن الخواص العلاجية للمواد التي تعد غذائية بالأساليب المخبرية والتجارب الدقيقة بدلا من الاعتماد على المذاق والرائحة والحدس والقياس.

---

1) أحمد.

قلت: هذا شيء جميل.. فكيف تتعاملون مع الأخلاط؟

قال: بدل تحاليل الأخلاط نعمـد إلى تحاليـل الخلايـا، كمـا هـو منهج الطب الحديث.

قلت: فــأنتم تجمعــون إذن بين خصــائص الطب الحــديث والقديم.

قال: أجل.. ولهذا قدمت معي بهذا الفأر..

أخرج من جيبه فأرا أبيض، وقال: انظر إليه.. مـا أجملـه.. إنـه الجمال عينه!؟

قلت: فما حاجتك إليه.. ألست في مطاعم الشـفاء، والأغذيـة لا تحتاج لتجارب على الحيوانات!؟

قال: أحتاج إليه كثيرا.

قلت: فيم؟

قال: قد ألقحه بمرض من الأمراض، ثم أطعمه مـا أشـاء من الأغذية لأرى مدى عملها فيه.

قلت: ولكنه فأر.. وليس إنسانا.. فقد يتضرر بما لا يتضـرر بـه الإنسان.. أو ينتفع بما لا ينتفع به.

قـال: صـدقت.. ولكـني مـع ذلـك لا أرى نفسـي خبـيرا إلا إذا حملته معي.

قلت: فهل أذن لك أهل هذه المدائن في هذا؟

قال: لم أر في حياتي أطيب من أهل هذه المدائن.. فالقاعدة عنـدهم هي البحث عن الشـفاء بغض النظـر عن أسـاليب البحث عنه.

قلت: فحدثني عن دور الغذاء في الشفاء.

قال: ألم تقرأ كتابي؟

قلت: بلى.. قرأته.. ولكني أريد أن أسمع منك.

قال: لقد ذكرت فيه أن هناك عوامل عديدة تؤثر في صحتنا.. ومن أهمها العوامل الوراثية، والبيئـة، ونـوع الرعايـة الصـحية الـتي نلقاها، ونمط عيشنا.

قلت: فما محل الغذاء من هذه المنظومة؟

قال: تدل الإحصائيات على أن مظاهر نمـط العيش مسـؤولة بنسبة 50 بالمئة عن العوامل المؤثرة في صحتنا.. وذلك يدل على أن المرض قلمـا ينجم عن الوراثـة.. بـل هـو في الغـالب نـاتج عن اختيارنا لنمط حياتنا.. والغذاء هو الذي يشكل الـدور الأساسـي في هذه الأنماط الحياتية.

قلت: ما هو المنطلق الذي انطلقت منه في تأكيد دور الغـذاء في الصحة؟

قال: من البديهيات الصـحية أن الجسـم البشـري يقـوم على الدوام بتجديد نفسه، ففي كل لحظة من كـل يـوم تبلى المكونـات الأساسية للجسم ليتم استبدالها بأنسجة ومكونات كيميائيـة حيويـة جديدة.. وهكذا يتجـدد نحـو من 98 بالمئـة من كامـل الجسـم كـل سنة.

وهذا التجديد لا يكون إلا بالغذاء.. فلذلك كان الغذاء هو الركن الأساسي من أركان الصحة.

قلت: فهل يقتصر دور الغذاء الصحي على الوقايـة، أم أن لـه تأثيرا علاجيا؟

قـال: بـل لـه تـأثير في كلا الجـانبين.. فهـو يقي من التعـرض للأمراض في المستقبل، بالإضـافة إلى الحـد من آثـار المـرض في حال وقوعه.

قلت: فحدثني من تفاصيل ذلك ما أنتفع به، وينتفع به قومي.

قال: اعذرني، فقد أجريت تجربة على هـذا الفـأر.. وإني أرى أنها بدأت تؤثر فيه.

قلت: فإلى أين أذهب لأتعلم من أصول الغذاء ما يـدلني على أصول الشفاء؟

قال: اذهب إلى أولئك النفر الذين كنت أغذيهم، فقـد علمتهم من العلم ما يغنيك عني.

غذاء الطاقة

ذهبت إلى المجموعــة الأولى، فســألتهم عن عللهم، والعلاج الذي يقـدم لهم، فقـال أحـدهم، والطعـام في فمـه: نحن مرضـى الطاقة..

قلت: أأصابتكم إشعاعات الطاقة النووية؟

قال: لا.. لقـد فقـدنا الطاقـة الـتي تمـدنا بالحركـة والنشـاط، فأصبنا بتـوترات كثـيرة، فجئنـا إلى هـذا المطعم لنسـتعيد طاقتنـا، ونملأ خزاننا بالوقود.

قلت: فما التوترات التي ألجأتكم إلى هنا؟

قال: كل واحد منا أصابه توتر مختلف عن توتر زميله.. وكلهـا ترجع إلى انخفاض مستوى السكر في الـدم.. فأنـا ــ مثلا ــ أشـعر بتعب شديد عند الاستيقاظ وعند العصر.. وقد فسـر لي ذلـك بـأن الطاقـة الـتي أخزنهـا قـد تكـون منخفضـة جـداً في الصـباح رغم

حصولي على نوم ملائم.. وسر ذلك هو أن مستوى السكر في الدم يميل إلى الهبوط أثناء الليل، وقد ينخفض عصراً، لأن الجسم يستطيع غالباً التعويض عن ازدياد السكر في الدم بعد الغداء، مما يؤدي إلى مستوى منخفض من السكر بعد بضعة ساعات.

قال آخر: أما أنا فأشعر بتعب وألم خفيف في الرأس أو اهتياج في حال تفويت وجبة أو تأجيلها.. وقد فسر لي ذلك بأن الاخفاق في تزويد الجسم بالوقود الملائم على أساس دوري يميل إلى خفض مستوى السكر في الدم.. وسر ذلك هو أن التعب والألم الخفيف في الرأس والاهتياج عوارض دالة على تضور الدماغ والجسم إلى مصدر الوقود الأساسي.

قال آخر: أما أنا فأشعر بمشاكل دورية في التركيز.. وقد فسر لي ذلك بأن الدماغ يستخدم نسبة كبيرة من السكر في الدورة الدموية.. فلذلك يؤثر فقدها في حصول مشاكل في عمله.

قال آخر: أما أنا فأشعر بمشاكل دورية في المزاج السيء، بل بالاحباط، وحدة الطبع.. وقد فسر ذلك لي بأن انخفاض مورد السكر في الدماغ سبب تغييرات في المزاج أدت إلى هذا.

قال آخر: أما أنا فأتوق إلى الطعام بشكل عجيب، خصوصاً الحلوى والأطعمة النشوية.. وقد فسر لي ذلك بأنه حين ينخفض السكر في الدم، فإنه من الطبيعي أن يطلب الجسم الأطعمة التي تطلق السكر بسرعة في الدورة الدموية.

قلت: فما علاقة الطعام بكل هذه الحالات التي ذكرتموها؟

قال أحدهم: الطعام هو الوقود الأولي الذي تستخدمه أجسامنا لتوليد الطاقة.. فمثلما تحتاج النار إلى الفحم للبقاء مشتعلة، كذلك نحتاج نحن إلى الطعام لابقاء جسمنا يعمل على ما يرام.

قلت: فهل أنتم سيارات تحتاج إلى الوقود؟

قال: أنسيت تشبيه معلمك جسد الإنسان بالسيارة.

قلت: أجل.. نسيت ذلك.. لكني أعلم كيف يتحول الوقود في السيارة إلى حركة، ولا أعلم كيف يتحول الطعام إلى طاقة.

قال أحدهم: فاسمع لما نقول، فقد أخبرنا معلم الطعام أنه بعد مضغ الطعام يدخل إلى الجهاز الهضمي، فيتفكك تدريجياً نتيجة المضغ وتأثير الحمض في المعدة والإنزيمات الهاضمة الموجودة في الأمعاء الدقيقة بحيث يمكن امتصاص المواد المغذية عبر جدار القناة الهضمية إلى الدورة الدموية.

قلت: فإذا وصلت هذه العصارة المهضومة إلى الدم.

قال: تنتقل مبدئياً إلى الكبد، حيث يتم تفكيك المزيد من جزيئات الطعام هنا أيضاً، فيما تتحول جزيئات أخرى إلى أشكال يمكن استخدامها لتخزين الوقود حول الجسم.

قلت: وبعد أن تنتهي معالجة الطعام في الكبد؟

قال: يذوب في الدورة الدموية لينتقل إلى حيث تدعو الحاجة اليه في الجسم.

قلت: كيف يحدث ذلك؟

قال: بالأيض.. ألا تسمع بالأيض؟

قلت: بلى.. ولكني لا أعلم حقيقته.

قال: الأيض هو العملية التي يحترق وفقها الطعام مع الأوكسيجين لتوليد الطاقة، وهي تحدث عموماً ضمن الخلايا، فالجسم يتألف من عدة مليارات من الخلايا، لكل منها قدرة على امتصاص جزيئات الطعام، وتعريضها لتفاعلات كيميائية تولّد الطاقة.. ولكي تعمل بفاعلية، تحتاج هذه التفاعلات إلى مجموعات مختلفة من المواد المغذية.

قلت: فلنفرض أن بعض هذه المعالجات لم تتم بطريقة صحيحة.. كما يحصل بالنسبة لمحرك السيارة حين لا يستطيع الانتفاع بالوقود.

قال: إذا أخفقت أي عملية من هذه العمليات الأساسية قد يتعطل توليد الطاقة في الجسم.. لأن إبقاء الأنظمة المولّدة للطاقة قيد العمل الصحيح مرتبط بصحة الوظائف الهضمية والدموية والكيميائية والحيوية ضمن الجسم.

قلت: عرفت هذا.. فما المكونات الأساسية التي تمدكم بالطاقة؟

قال: ثلاثة: السكريات والدهون والبروتينات..ونسب هذه المكونات الأساسية هي التي تجعل الطعام مصدراً جيداً أو رديئاً للطاقة بالنسبة إلى الجسم.

قلت: عرفت هذا في حصون العافية.. ولكني أريد التعرف على الأطعمة التي تتناولونها هنا.. والتي تساهم في علاجكم.

قال: هناك أربع فئات أساسية من الأطعمة المهمة للحافظ على إطلاق الطاقة.. وهي تحتوي على نوعية وقود جيدة، بسبب احتوائها على مواد مغذية تؤدي دوراً أساسياً في العمليات الداعمة لانتاج الطاقة ونشاط الجسم.

قلت: فما الأول منها؟

قال: الفاكهة الطازجة، فهي من أفضل مصادر السكريات، بالإضافة إلى غناها بالبوتاسيوم المعدني المهم لعمل الأعصاب والعضلات، وغناها بالمياه التي تؤدي دوراً أساسياً في كل عمليات الجسم تقريباً.

بالإضافة ذلك، فهي سهلة الهضم، ولا تستنفد لذلك أي طاقة من الجسم.. وهي تطلق السكر عموماً ببطء في الدورة الدموية، مما يساعد في الحفاظ على استقرار السكر في الدم.

قلت: هذا طعام طيب.. ويكفيه شرفا أن ذكر في القرآن الكريم في أحد عشر موضعا كلها في الجنة ما عدا قوله تعالى: ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبّاً ﴾(عبس:31)، وقوله: ﴿ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴾ (الرحمن:11)

قال: صدق الله عظيما، والحمد لله رب العالمين، فقد أذاقنا من فضله في الدنيا، ونسأله مزيد فضله في الآخرة.

قلت: فما الطعام الثاني؟

قال: الخضار الطازجة، لا سيما الخضار الشعرية مثل البطاطا والجزر واللفت، فهي مصدر جيد للسكريات التي تتحول فوراً إلى طاقة في الجسم.

وهناك خضار أخرى ــ مثل الخضار الخضراء ــ وهي غنية بالكلسيوم والمغنزيوم وتؤدي دوراً مهماً في وظائف الأعصاب والعضلات.. وهي غنية بالبوتاسيوم المعدني الذي يؤدي دوراً أساسياً في وظائف الأعصاب والعضلات، وغنية بالمياه الضرورية لكل عمليات الجسم.

بالإضافة إلى أنها سهلة الهضم، وتطلق السكر ببطء في الدورة الدموية، مما يساعد في الحفاظ على استقرار السكر في الدم.

زيادة على أن بعض الخضار (خصوصاً الخضار الخضراء) غنية بالحديد وحمض الفوليك الضروريين لتكوين الخلايا الحمراء في الدم.

قلت: فما المصدر الثالث؟

قال: النشويات الكاملة والحبوب، فهي تطلق السكر عموماً ببطء في الدورة الدموية، مما يساعد في الحفاظ على استقرار السكر في الدم.. وهي غنية بالفيتامينات ب التي تؤدي دوراً في التفاعلات التي تحوّل الطعام إلى طاقة.. وهي غنية بالكروم

الضـروري لأيض السـكر واسـتقرار السـكر في الـدم.. وهي غنيـة بالحديد وحمض الفوليك الأساسـيين للتكـوين الخلايـا الحمـراء في الدم.

قلت: فما المصدر الرابع؟

قـال: اللوبيـاء والحبـوب، فهي تحتـوي على نسـبة عاليـة من السكريات، وهي كسابقاتها تطلق السكر عمومـاً ببطء في الـدورة الدموية، مما يساعد في الحفاظ على اسـتقرار السـكر في الـدم، كما أنها غنية بالفيتامينات ب اللازمة لتحويل الطعام إلى طاقة في الجسم.

قلت: عرفت أصدقاء الطاقة، فهل لها من أعداء.. ومن هم؟

قال: هناك أطعمة مشـهورة بقـدرتها على امتصـاص الطاقـة من الجسـم، وأبرزهـا القهـوة والشـاي والشـوكولاته والمرطبـات والسكر.

قلت: عرفت خطر هذ النوع من الغذاء من قبل.

قال: عرفت فالزم.. واعلم بأن الشوكولاته تحتوي على مـواد شبيهة بالكافيين، ولها أثر مماثل في الجسم.

قلت: ولكن مـادة الكـافيين تحسـن مسـتويات الطاقـة في الجسم.. خاصة طاقة التركيز.

قال: هذا التحسن يفضي لاحقاً إلى فترة من الوهن المتزايد.. حيث يجد شاربو القهوة والشـاي والمرطبـات أنهم بـاتوا يعتمـدون على مستوى معين من استهلاك الكافيين للحفـاظ على مسـتويات طاقتهم.. وقد يؤدي الافـراط في اسـتهلاك الكـافيين إلى مشـاكل في خفقان القلب وقلق وأرق.

قلت: والأطعمة والمشروبات السكرية؟

قال: إن استهلاك الأطعمة والمشروبات الغنية بالسـكر، مثـل المربى والبسكويت والحلوى والمرطبات يؤثر سلباً في مسـتويات الطاقة.

فهذه الأطعمة ترفع بسـرعة مسـتوى السـكر في الـدم ممـا يـدفع الجسـم إلى الافـراط في التعـويض عن ذلـك، فتنجم لاحقـاً مشاكل في انخفاض مستوى السكر في الـدم وانخفـاض مسـتوى الطاقة العقلية والجسدية، وعلى المدى الطويل، قد يتلـف السـكر المـواد المغذيـة الـتي تـؤدي دوراً أساسـياً في توليـد الطاقـة في الجسم.

غذاء العظام:

ذهبت إلى مجموعة أخرى، فسألتهم عن عللهم، والعلاج الذي يقدم لهم، فقال أحدهم، والطعام في فمه: نحن مرضى عظام..

قلت: ما بها عظامكم.. وما علاقتها بالأغذية؟

قــال: ألا تعلم أن العظــام والمفاصــل الصــحية شــرط من شروط الحياة النشطة والصحية.

قلت: أعلم هـذا.. ولكـني أتسـاءل عن سـر علاقـة العظـام وأمراضها بالغذاء.

قـال: أليسـت العظـام كسـائر الجسـم تتكـون من الغـذاء؟.. فالغذاء هو المادة الأولية التي تتـألف منهـا العظـام، فلـذلك يسـهم في نمــو العظــام خلال الطفولــة والحفــاظ على قــوة العظــام والمفاصل في سن النضج.

قلت: فلم أصبتم بما أصبتم به من أدواء؟

قال: لذلك أسباب كثيرة منها مثلا أنـا أفرطنـا في أكـل بعض أعـداء العظـام، كالسـكر والمشـروبات الغازيـة فقـد قضـى على المحتوى المعدني للعظام، وزاد من خطر ضعف العظـام وترققهـا لاحقاً.

قلت: عرفت أعداء العظام، فمن أصدقاؤها؟

قـال: المـواد الغذائيـة المحتويـة على الكلسـيوم والمغـنزيوم فهي المـواد الأكـثر أهميـة في تكـوين العظـام.. ومن أمثلـة ذلـك الحليب والأجبان، فهما مصدران جيدان للكلسيوم.. وهنـاك العديـد من الأطعمـة الغنيـة بالكلسـيوم والمغـنزيوم، كالخضـار الخضـراء، والسردين، وثمار البحر، وبذور السمسم.

قال آخـر: أنـا مصـاب بـداء المفاصـل، وهـو نـوع من التهـاب المفاصل الناجم عن تراكم الحمض البولي في الجسم.

قلت: كيف ذلك؟

قـال: يمكن أن تتجمـع بلـورات الحمض البـولي في مفصـل، ويكـون ذلـك عـادة في الأصـبع الكبـير، ويـؤدي ذلـك إلى ألم حـاد والتهاب.

قلت: فما علاقتك بهؤلاء.. وما علاقة دائك بالغذاء؟

قال: مرضي يصنف في أمراض العظام.. أمـا علاقـة مرضـي بالغذاء، فهي علاقة وطيـدة، فالفاكهـة والخضـار الطازجـة تسـاعد على مواجهة تأثير الحمض البولي في الجسم.

قلت: هؤلاء أصدقاء المفاصل، فمن أعداؤها؟

قال: كل الأطعمـة المحتويـة على تركـيز عـالي من الـبيورين

كاللحم وثمار البحر والبـازيلا والفاصـولياء واللحـوم العضـوية مثـل الكبد والكلى.

قال ثالث: أما أنا فمصاب بداء ترقق العظام..

قلت: ما ترقق العظام؟

قال: هو ضعف العظام ضعفا يجعلها سهلة الكسـر، خصوصـاً في العمود الفقري والوركين.. ويصاب المرء به حين يتفكك نسـيج العظم بسرعة أكبر من تكونه.. وهـو يشـيع لـدى النسـاء أكـثر من الرجال، وهو مرتبط عندهن غالباً بانخفـاض مسـتوى الأسـتروجين، وهو أحد الهرمونات الجنسية الأنثوية بعد انقطاع دورة الطمث.

قلت: فكيف يحال بين العظام والترقق؟

قال: هذا ممكن.. ولكنه عمل يبدأ من الشباب، فكلمـا كـانت عظامك أقوى في مرحلـة الشـباب، ازداد احتمـال الاحتفـاظ بهـذه القوة لاحقاً.

قلت: فما هي الأطعمة الحائلة بين العظام والترقق؟

قـال: هنـاك بعض الأطعمـة القـادرة فعلاً على زيـادة تقهقـر العظام، فيما تقوم أطعمة أخـرى بتزويـد الجسـم بـالمواد المغذيـة الأساسـية لتكـوين عظـام صـحية.. أمـا الأعـداء، فيشـكل السـكر والمبالغة في أكل اللحوم الحمراء والمشروبات الغازيـة والتـدخين أهمها، فهي تسارع في معدل فقدان الكلسيوم من العظام.

أما الأصـدقاء، فهي من عـرفت من المـواد المغذيـة المقويـة للعظام، أي الكلسيوم والمغنزيوم، وهي تشمل الخضـار الخضـراء والسردين وثمار البحر وبذور السمسم.

بالإضافة إلى هذا كله هناك التمارين الرياضـية، فقـد أشـارت الدراسات أن التمارين الناعمة تخفف من تقهقر العظام، لا بل إنها تزيد من كثافة العظام، ومثل ذلك المشي اليومي من 20 إلى 30 دقيقة، فإنه يساعد في تقوية العظام.

غذاء الشباب:

ذهبت إلى مجموعة أخرى، وقد كانوا شبابا يافعين، فسـألتهم عن عللهم، والعلاج الـذي يقـدم لهم، فقـال أحـدهم، والطعـام في فمه: نحن لسنا مرضى ـ بحمد الله ـ ولكنا جئنا إلى هنا لنـتزود بمـا يحفظ لنا شبابنا.

قلت: وهل الشـباب يحفـظ، ألم يقـل ﷺ:(إن اللـه تعـالى لم ينزل داء إلا أنزل له الشـفاء إلا الهـرم، فعليكم بألبـان البقـر فإنهـا

ترم من كل الشجر)[1]

قال: نحن لا نسعى لأن نحذف سن الشيخوخة من أعمارنا.. فذلك ليس لنا، فقد قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾(النحل:70).. ولكنا نسعى للتخفيف على شيخوختنا حتى لا تبكر، وحتى لا تؤذينا.

قلت: صدقتم.. فهل عرفتم من أسباب الشيخوخة ما دلكم على سبل تفاديها؟

قال: هناك دراسات مهمة وكثيرة في هذا المجال.. وتركز الأبحاث الأخيرة ـ خصوصاً ـ على دور الجزيئات المدمرة المعروفة بالجذور الحرة، وهي تتولد غير المستقرة في الجسم أثناء العمليات التي تولّد الطاقة، وهناك دليل على وجودها في خضم عملية الشيخوخة.

قلت: فما تأثير هذه الجذور في الشيخوخة؟

قال: على مر السنين، يمكن أن تسبب الجذور الحرة حدوث خلل في الجسم، مما يؤدي إلى ازدياد القابلية لمختلف الاضطرابات والظواهر الخارجية للشيخوخة.

قال آخر: من آثار الجذور الحرة تلف جدران الخلايا، مما يعرض الجسم إلى مرض القلب والسكتة الدماغية.. ومنها تلف الآلية الداخلية للخلايا مما يؤدي إلى تلف جيني واستعداد محتمل للسرطان.. ومنها انخفاض وظيفة المناعة مما يؤدي إلى استعداد أكبر للالتهاب، وتزايد مخاطر السرطان والالتهابات مثل التهاب المفاصل الرثياني.. ومنها تلف البروتينات في الجلد مما يؤدي إلى فقدان قدرة الجلد على المط وازدياد تجاعيده.

قلت: فما الذي ينقذنا من هذه الجذور الخطيرة؟

قال: لقد زود الله ـ بفضله وكرمه ـ الجسم بطرق عديدة للتعاطي مع الجذور الحرة.. فالجزيئات التي تعرف بالمواد المقاومة للتأكسد يمكن أن تتصدى للجذور الحرة في الجسم.

وهكذا تتحدد الشيخوخة لدرجة معينة بالتوازن النسبي بين الجذور الحرة والمواد المقاومة للتأكسد، فكلما ازدادت نسبة المواد المقاومة للتأكسد على الجذور الحرة بطأت عملية الشيخوخة.

قلت: فأين نجد كنوز هذه المواد الثمينة؟

---

1) الحاكم وقال: صحيح، ووافقه الذهبي.

قال: من أبرز المواد المغذية المقاومـة للتأكسـد: الفيتـامين أ والمواد الكاروتينية مثل البيتا ـ كاروتين هي مـواد محتملـة مقاومـة للتأكسد، وهي تؤدي دوراً أساسياً في حماية الرئـتين والجلـد، ومن مصادرها زيوت كبد السمك، والكبـد، والبرتقـال الأخضـر والفاكهـة والخضار الصفراء مثل الجزر والشـمام والفلفـل الأحمـر والأصـفر والأخضر والمانغا والمشمش.. وغيرها.

ومنهـا الفيتـامين ج هـو مـادة قويـة مقاومـة للتأكسـد وتعـزز المناعة، ومن مصادرها البرتقال والكريب فروت والليمون والزبيب والفلفل الأحمر والأصفر والأخضر.. وغيرها.

ومنهـا الفيتـامين هــ وهـو مـادة مقاومـة للتأكسـد ومعـززة للمناعة.. وهي تؤدي دوراً أساسياً في الحيلولة دون مـرض القلب، ومن مصــادرها الزيــوت النباتيــة، والمكســرات واللــوز والبــذور والحنطة.

ومنها السيلينيوم، وهو مادة قويـة ومقاومـة للتأكسـد تسـاعد في التخفيف من خطـر الاصـابة بالسـرطان، ومن مصـادره اللحم واللحوم العضوية، والسـمك والمحـار والزبـدة والفاكهـة الحمضـية والأفوكادو والاجاص والحبوب الكاملة.

غذاء القلب:

ذهبت إلى مجموعة أخرى، فسألتهم عن عللهم، والعلاج الذي يقدم لهم، فقال أحدهم، والطعام في فمه: نحن مرضى القلب.

قلت: وهـل هنـاك من لم يمـرض قلبـه؟.. ولكن كيـف تعـالج الأمراض القلبية، وهي معنوية بالغذاء.. لا أحسـب أن الغـذاء يجتث جذور الحسد، ولا أحسبه قادرا على طأطأة رأس الكبر.

قـال: لا.. نحن ــ بحمـد اللـه ــ قـد رزقنـا السـلامة من هـذه الناحية، وإلا لما كنا هنا، ولكنا نقصـد أمراضـا ترتبـط بـذلك العضـو الصنويري الذي يجثم على يسار صدورنا.

قلت: القلب الحسي.. ما الذي أصابه؟.. فلا أعلم إلا أنه أكــبر مضخة لأعقد شبكة.. وهو من الدقـة في الصـنع مـا يجعلـه أطـول المضخات عمرا.

قـال: هـذا صـحيح.. هـو من نعم اللـه العظمى على عبـاده.. ولكن تقصيرنا في حفظه والتعامل معه جرنـا إلى متـاعب كثـيرة.. ولم يجرنا وحدنا.. ألا تعلم أن أمراض القلب من الأسباب الرئيسية للوفـاة في العـالم المتقـدم؟.. وقـد كـان يظن بـأن مـرض القلب ذكوري أساساً، ولكنه الآن هو القاتل الأول للنساء كما هو للرجال..

وقد قالت منظمة الصحة العالمية أن 25 بالمئة من الوفيات الــتي تحدث سنوياً في المجتمع الغربي، والتي تطال 11 مليون شخص، تعزى أساساً إلى مرض القلب.

قلت: فما سر كل هذه الأعداد الهائلة من المرضى؟

قـال: أكـثر هـذه الحـالات تعـود إلى أنمـاط المعيشـة الـتي يختارونها، والتي يشكل الغذاء جـزءا رئيسـيا فيهـا.. بـل قـد وردت الأدلـة الكثـيرة تؤكـد إمكانيـة الحيلولـة دون مشـاكل القلب.. ومن أهمها إجراء تعديلات في عادات الأكل لتتناسب مع صحته.

قلت: هذا خبر سار.. ففسر لي بعض ذلك ليطمئن قلبي.

قال: لتعرف ذلك لا بد أن تعرف ما هية القلب.. فهـو مضـخة عضلية، بحجم القبضة تقريبـاً، وهـو موجـود في وسـط الصـدر بين الرئتين، وتقضي مهمته بضخ الدم حـول الجسـم بحيث يمكن نقـل المواد الأساسية مثل الأوكسيجين والمـواد المغذيـة إلى كـل جـزء منه.. وينتقل الدم إلى الأعضاء عبر أوعية اسـمها الشـرايين ويعـود إلى القلب في أوعية اسمها الأوردة.

قلت: أعرف كل هـذا.. وأعـرف أن هـذه الأوعيـة الناقلـة هي أعقـد شـبكات العـالم.. ولكـني أسـأل عن علاقـة أمـراض القب بالغذاء.

قال: سيأتيك الخبر، فلا تستعجل.. فالأمور تعرف من أبوابها.

قلت: فادخل من أي الأبواب شئت.

قال: بما أن كل عضـو ونسـيج في الجسـم يحتـاج إلى مـورد دم، فإن القلب ليس استثناءاً من هذه القاعدة.. ولـذلك يتم تزويـد عضـلة القلب بالـدم المحتـوي على الأوكسـيجين بواسـطة ثلاثـة شرايين تاجية، وفي حال انسداد أي من هذه الأوعية، تبقى الجلطة الدموية كل ما هو لازم لاكمال انسداد الشريان.. وما النوبة القلبية إلا نتيجة مثل هذا الانسـداد في شـريان تـاجي، ممـا يسـبب مـوت عضلة القلب.. وكلما ازدادت مساحة التلف، ازداد خطر الموت.

قلت: فهمت كل هذا، وبورك فيك.. لكـني إلى الآن لم أسـمع حديثا عن فاكهة أو خضر أو دهون أو سكريات.

قال: بعد أن عرفت هذا سنحدثك عن أسـباب أمـراض القلب الغذائية، وهي ترتبط أساسا بما ذكرنا.

قلت: فما هي هذه الأغذية التي تعادي القلب؟

قال: أهمها وأخطرها ثلاثة: الدهون، والسكريات، والملح.

قلت: فحدثوني عن الدهون.

قام أحدهم، وقال: أنا سأخبرك عنها، فعلتي بسـببها.. ألا تعلم أن الـدهن ينتقـل حـول الجسـم في شـكل كوليسـترول، وارتفـاع الكوليسـترول في الـدم هـو السـبب الرئيسـي وراء نشـوء مـرض القلب.

قلت: وهل لذلك من علامة؟

قال: لا أحد مهما كان عمـره أو جنسـه أو عرقـه يسـتطيع أن يعرف ارتفاع مستوى الكوليسترول في دمـه إذ لا إشـارات منـذرة بذلك.. ولهذا يستدعي الأمر قياس مستوى الكوليسترول في الدم، فبدونه لا تعرف نزوله ولا ارتفاعه.

قلت: فهل للغذاء تأثير في تخفيض الكوليسترول؟

قال: أجـل.. بـل لـه دور أساسـي في تخفيض مسـتواه، وقـد يخفف ذلك خطر الإصابة بمرض القلب على المدى الطويل.

قلت: فحـدثني عن هـذا الكوليسـترول من أين يـأتي؟ وكيـف يعمل؟

قال: يمكن أن يتولد الكوليسترول الموجود في الجسم داخل الكبـد، أو يمكن أن ينبـع من الغـذاء في شـكل دهن.. فعنـد تنـاول الدهن، يتفكـك في الأمعـاء، وينتقـل من ثم إلى الـدورة الدمويـة.. وبما أن الدهن لا يذوب في الجسم فإنه يحتاج إلى (التوضيب) قبل نقله حـول الجسـم، ولـذلك يتم تغليـف جزيئـات الـدهن بـالبروتين للحصول على رزم بالغة الصغر اسمها البروتينات الدهنية.

قلت: فما وظيفة هذا النوع من البروتينات؟

قـــال: هنـــاك نوعـــان أساســيان من البروتينـــات الدهنيـــة: البروتينـات الدهنيـة العاليـة الكثافـة (HDL) والبروتينـات الدهنيـة المنخفضة الكثافة (LDL).

أمـا الأول، فيسـاعد في تخلص الجسـم من الـدهن من خلال إنتاج الصفراء في الجهاز الهضمي. ويبدو أن له أثرا مضـاد للثـاني، ولذلك يقال عنه إنه (الكوليسترول الجيد)

اما الثاني، فينتقل حول الجسم ويترسب في أماكن مختلفــة، منهـا الشـرايين التاجيـة والدماغيـة.. وهـو يـؤدي دوراً أساسـياً في نشوء انسداد الشرايين ولذلك يقال عنه أحيانـاً إنـه (الكوليسـترول السيء).

قلت: فما هي الآثار السـيئة الـتي يحـدثها هـذا الكوليسـترول السيء؟

قال: عند ارتفاع مسـتويات الكوليسـترول السـيء في الـدم،

تميل الرواسـب الدهنيـة إلى الـتراكم في الشـرايين، ويطلـق على هذه الترسبات الدهنية اسم (تصـلبات الشـرايين)، وهي تميـل إلى التكون عند تفرّع الشريان، ويشـجعها على ذلـك اضـطراب تـدفق الدم.

غير أن التصلبات الحـادة في الشـرايين التاجيـة، والـتي تـزوّد عضـلة القلب، يمكن أن تحـدّ من تـدفق الـدم ممـا يـؤدي إلى ألم صدري يعرف بالخنـاق الصـدري، كمـا أن وجـود التصـلبات يشـجع على تكون الجلطات الدموية.

قلت: فهل كل الدهون له هذا التأثير الخطير؟

قـال: لا.. ولهـذا تقسـم الـدهون إلى ثلاث فئـات أساسـية: الـدهون المشـبعة، والـدهون الأحاديـة غـير المشـبعة، والـدهون المتعددة غير المشبعة.

قلت: فما هي الدهون التي ترتبط بها أمراض القلب؟

قال: مرض القلب مرتبط أساسـا بالأطعمـة الغنيـة بالـدهون المشبعة.

قلت: فأين نجدها؟

قـال: في منتجـات الحيوانـات، مثـل اللحم والـبيض والأجبـان والقشدة والحليب الكامل والزبدة، كما أن أطعمة مثل الشوكولاته والحلوى والبسكويت غنية أيضاً بالدهون المشبعة.

قلت: والدهون الأحادية غير المشبعة والدهون المتعـددة غـير المشبعة هل لها علاقة ما بأمراض القلب؟

قال: لا.. بل يرى العديد من العلماء أن الدهون الأولى قـادرة على حماية الجسم من هذه الحالة.

قلت: فما هي مصادر هذه الدهون الصديقة؟

قال: هي ما نتناوله الآن؟

قلت: وما تتناولون؟

قال: أغذية تشمل دهونا أحادية غير مشـبعة.. وأهمهـا الـزيت المبارك.

قلت: زيت الزيتون.. الذي قـال اللـه تعـالى فيـه: ﴿ يُوقَـدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ ﴾ (النور:35)

قال: أجل.. ولهذا يعتقد أن الاسـتهلاك الكبـير لـزيت الزيتـون في منطقـة البحـر الأبيض المتوسـط هـو أحـد أسـباب انخفـاض معدلات مرض القلب في تلك البلدان.

قلت: والدهون المتعددة غير المشبعة؟

قـال: نجـدها في السـمك، وهي المكـوّن الأساسـي للزيـوت النباتية مثل زيت دوار الشمس وزيت السمسم وزيت بذور العنب.
رأيت أحدهم يأكل نخالة شوفان، فسـألته: مـا هـذا؟ أتحـولت إلى شاة؟
قال: لا.. فقد ثبت أن لنخالة الشوفان دورا في التخفيــف من كوليسترول الدم.. فقد رأى بعض العلماء منذ عام 1960 أن نخالة الشـوفان لهـا أثـر في تخفيض كوليسـترول الـدم، وقـد أشـارت الدراسـات العلميـة إلى أن نخالـة الشـوفان بالغـة الأهميـة في تخفيض مستويات الكولستيرول في الـدم، وأظهـرت النتـائج أن 5 غرامات من نخالة الشـوفان كـل يـوم قـادرة على خفض مسـتوى الكوليسترول لغاية 5 بالمئة.
وهـذه النسـبة أكـبر من كـل مـا يسـتطيع الغـذاء المنخفض الكوليسترول إنجازه لوحده.
قلت: ما شاء الله.. ما أكثر نعم الله على الفقـراء البسـطاء.. فلن يكلفهم الشـوفان شـيئا.. بـل إنـه سـيجعل الأغنيـاء في درجـة واحدة مع الفقراء.
قـال: يـأبى اللـه أن يرفـع شـيئا إلا وضـعه، فقـد رأيت بعض الأغنياء يضحك على كسـرة الفقـراء.. ولم ألبث حـتى رأيتـه يأكـل أكل الغنم والماعز.
رأيت آخر يلتهم تفاحة بشغف، فقلت: رويدك يـا رجـل.. مـاذا تفعل؟
قال: آكل دوائي.
قلت: أي دواء.. لا أراك تأكل إلا تفاحا.
قال: فهو دوائي الذي أنزله الله لشفائي.
قلت: فمم تعاني؟
قال: من الكوليسترول..
قلت: فلم لم تأكل الشوفان؟
قال: ذلك قد جعلته للإفطار.
قلت: فهل للتفاح فائدة في العلاج من الكوليسترول؟
قال: أجل.. لقد وجد في دراسة أجـريت من قبـل الايطـاليين والايرلنديين والفرنسيين أن أكـل تفـاحتين أو ثلاث تفاحـات يوميـاً يخفض كولسترول الدم.
قلت: ما سر ذلك؟
قال: لأن القشرة الخارجية للتفـاح غنيـة بمـادة البكـتين الـتي

تزيل ترسبات الكولسترول.
قلت: أهذا علم علمته، أم استنتاج استنتجته؟
قال: بل علم علمته.. فقد أشارت عدد من الدراسات الغربية مؤخرا إلى فوائد التفاح الصحية إلا أن اليابانيين لم يتقبلوا تلك النتائج.. ولكن الباحثين في المعهد القومي لعلوم الفاكهة في اليابان أكدوا في دراسة حديثة أجريت على 14 متطوعا أن تناول 400 جرام، وهي حوالي تفاحتين يوميا يسهم في تخفيض معدل الكولسترول في الدم.
فقد تناول المتطوعون تفاحتين يوميا ولمدة ثلاثة أسابيع، وأظهرت النتائج انخفاضا في الكولسترول بنسبة وصلت إلى 21 بالمائة.
وقال البروفيسور ركبيتشي تاناكا رئيس فريق البحث: إن التفاح يزيد نسبة فيتامين C في الدم بصورة ملحوظة.
وكان اليابانيون يعتقدون لفترة طويلة أن تناول التفاح غير صحي، وأن الفواكه الحلوة بشكل عام تؤدي لارتفاع نسبة الدهون.
والحقيقة أن هذه الدراسة لا زالت في مهدها إلا أنه مع ذلك.. فإنه لا شك في أن التفاح من أفضل الفاكهة، وخصوصا تفاحة على الريق.
قلت: فهل سننتقل إلى أثر السكر في القلب؟
قال: سيحدثك عنه إخواننا من مرضى القلوب.. وقبل أن تذهب إليهم اسمع هذه النصائح التي تكتب بماء الذهب.
أما الأولى فامتنع عن تناول كل الدهون الظاهرة.. واللحم الأحمر غني بالدهن أكثر من الدجاج، مع استثناء واحد هو لحم الغزال المهبر نسبياً مقارنة مع بقية اللحوم الحمراء المستخرجة من الغنم والعجل.
ويمكنك أن تتناول الدجاج بدل اللحم الأحمر عند الإمكان، فدهن الدجاج يتجمع في الجلد عادة، ولذلك احرص دوماً على نزع هذا الجلد.
ويمكنك أن تتناول المزيد من السمك، فالأسماك الزيتية مثل الرنكة والاسمقري والتونة والترويت غنية بالدهون غير المشبعة التي تحمي من مرض القلب.
قلت: هذه النصيحة خاصة باللحوم، فما الثانية؟
قال: استهلك باعتدال البيض ومشتقات الحليب مثل الجبنة والحليب الكامل الدسم والقشدة والزبدة، واختر الأنواع القليلة

الدسـم عنـد الامكـان، مثـل الحليب نصـف المقشـود أو الحليب المقشود، وجبنة المراعي القليلة الدسم والألبان القليلة الدسم.

قلت: والثالثة؟

قال: تجنب الأطعمـة المقليـة عنـد الامكـان، ويفضـل اعتمـاد الشي أو الطهي بالبخار أو الغلي، لأنها طرق أكـثر صـحية لتحضـير الطعام.

وعند استخدام الـزيت في الطهـو، تأكـد من أنـه زيت نبـاتي، واعلم أن الزيـوت المعصـورة على البـارد هي الأكـثر صـحة على الاطلاق.

قلت: فحدثوني عن تأثير السكر على القلب.

قام أحدهم، وقال: أنا عليـل بسـببه.. فالسـكر هـو سـبب مـا حصل لي من أمراض.

قلت: كيف ذلك؟

قال: عندما نتناول السكر، يتحول بعض منـه في الجسـم إلى شـكل من الـدهن يعـرف بالترايغليسـريد، وهـو لا يملـك تركيبـة الكوليسترول نفسها، ولكن يبدو أنه يؤدي دوراً في مرض القلب، لا يختلف عن الكوليسـترول، على رغم عـدم التأكـد بعـد من أهميتـه الدقيقة في هذا الشأن.

قلت: ألم يتأكد الخبراء بعد من تأثيره السلبي؟

قال: تشير بعض الأبحاث إلى أن مستوى الترايغلسـريد لـدى النساء أكثر أهمية من مستوى الكوليسترول، وقـد كشـفت إحـدى الدراسـات أن النسـاء اللـواتي يملكن مسـتويات مرتفعـة من الترايغلسريد في الدم معرضـات للمـوت نتيجـة ذبحـة قلبيـة سـبع مـرات أكـثر من اللـواتي يملكن مسـتويات منخفضـة من الترايغلسريد.

ويرى بعض العلماء والأطباء أن تناول السكر لـه أثـر مهم في خطـر تعرضـنا لمـرض القلب، وذلـك بتـأثيره على مسـتويات الترايغلسريد في الدم.

قلت: ولكن السكريات ضرورية للطاقة.

قال: لا أقصد السكريات الحقيقية، بل أقصد السكريات الـتي حرفتها الصـناعة عن فطرتهـا، مثـل أنـواع الحلويـات والشـوكولاته والمربيـات، والبسـكويت والمرطبـات وحبـوب الفطـور المحلاة وسكر المائدة.. فهذه المأكولات تسهم في مقدار كبير من السـكر في غذائنا.

وليس الأمر قاصـرا على ذلـك، فالسـكر يشـكل أيضـاً مكونـاً أساسياً في العديـد من الأطعمـة المعلّبـة والمعالجـة غـير الحلـوة، فالخضار المعلّبة والفاصوليا المطهـوة والوجبـات الجـاهزة تحتـوي على مقادري هائلة من السكر المضاف.

وحتى العديد من الأطعمة التي تزعم أنها (منخفضة الـدهون) أو (خالية تقريباً من الدهون) تحتوي على مقادير كبيرة من السكر، لأن تخفيض مقدار الدهون من الطعام قد يجعل مذاقـه أقـل لـذة، ولذلك يعمد صانعو الطعام دوماً إلى حـل هـذه المشـكلة من خلال إضافة المزيد من السكر.

قلت: أسمع أن هناك بدائل عن هذه السكريات، وأسـمع أنهـا تحتوي على القليل من الوحدات الحراريـة أو تخلـو منهـا بالكامـل، ولا ترفع مستويات الترايغلسريد في الدم.

قال: هذا صحيح.. فقد باتت تتوافر المحليات الاصطناعية مثل السكّرين والأسبارتام بمثابة بديل للسكر.. وهي كما ذكرت إلا أنهـا قد تؤثر سلباً في الجسـم، فقـد تـبين أن السـكرين يسـبب الأورام لدى الحيوانـات المخبريـة، ويشـتهر الأسـبارتام بتغيـيره مسـتويات المــواد الكيميائيــة في الــدماغ، ممــا يــؤدي إلى مــزاج ســيء واضطرابات في النوم.

وهي بالإضافة إلى ذلك تشجعنا على تناول المزيد من الطعام في المـدى الطويـل من خلال تشـجيع الرغبـة في المـذاق الحلـو وتوقع ارتفاع مفاجئ لمستويات السكر في الدم.

قلت: فحدثوني عن تأثير الملح على القلب.

قام أحدهم، وقال: رغم أن جدلاً كبيراً قام لعـدة سـنين حـول الأهمية النسبية للملح في ضـغط الـدم المرتفـع، فـإن آخـر الأدلـة تشير إلى أن الملح هو في الواقع عامل أساسي.

وقد أظهرت دراسـة علميـة جديـدة أن الملح يـؤثر كثـيراً في ضغط الـدم المرتفـع ومـرض القلب، وأن للملح تـأثيرا في صـحتنا أكثر بكثير مما كان يعتقد سابقاً.

ثانيا ـ مزارع الشفاء

خرجت من مطاعم الشفاء، وقد امتلأت قناعة بأن الله تعالى وضع في الأغذيـة الكثـيرة المتنوعـة كـل مـا يصـلح بـدن الإنسـان، ويرمم عطبه، ويحوله إلى أداة صالحة يستأنف بها صاحبها مسيرته على الأرض.

وفـوق ذلـك أدركت أن المعـدة بيت الـداء، ومعـدن البلاء.. فلذلك لا ينجو من الشرور التي تحيق بهـا إلا من جعـل هـواه فيمـا يدخل إليها هو هواه فيما يصلحه ويعافيـه ويخدمـه.. لا فيمـا يكتفي بخداع ذوقه، أو التغرير بأنفه، أو العبث بما تراه عيناه.

كنت سائرا وحدي فيما أرى.. لسـت أدري كم سـرت.. فجـأة وجدت نفسي قـد دخلت مزرعـة مملـوءة بكـل مـا خلـق اللـه من أصـناف الأعشـاب.. والـروائح المختلفـة تبـوح بمـا تحتويـه هـذه المزرعة العظيمة من أصناف النباتات.

لم يكن أمامي المعلم لأسأله عن سر هـذه المزرعـة، فبقيت سـائرا مملـوءا بالدهشـة لجمالهـا.. وبينمـا أنـا كـذلك إذ رأيت رجلا يحمل فأسا ورفشا وكيسا صغير، فاستوقفته، فوقـف لي، وحييتـه، فـرد التحيـة بأحسـن منهـا، فأحسسـت ببعض الأنس، فقلت: لقـد كنت في مدائن السلام.. ولست أدري كيف خـرجت حـتى وجـدت نفسي في مزرعتك، فأرجو أن تدلني على طريق العودة إليها.

قال: أأنت مريض تطلب العلاج؟

قلت: لا ـ بحمد اللـه ومنتـه ــ ولكن لي معلمـا جـاء بي إليـه، ليريني من تفاصيله ما لم أر.. وليعلمني من علومه ما لم أعلم.

قال: المعلمون كثيرون.. فأيهم معلمك؟

غضبت، وقلت: ما أكثر فضـولك يـا رجـل.. سـألتك أن تـدلني على مدائن السلام.. فإذا بك تتحرى معي كما تتحرى الشرطة مـع المجرمين.

قال: لا.. أنت فهمتني خطـأ.. أنـا أسـأل عن حاجتـك لأقضـيها على كمالها.. ولا يمكنني أن أفعل ذلك ما لم أعرف التفاصيل التي تدلني على طريق خدمتك.

قلت: اعـذرني.. فقـد اسـتفزني الغضـب.. فلا زالت جـذور الصراع التي نبتت بين قومي تمدني كل حين بمادتها.

قال: لا بأس عليك.. فأهل السلام لا يثيرهم أهل الصراع.

قلت: أأنت من أهل السلام؟
قال: أجل.. بحمد الله ومنته.. فقد تخرجت من جامعتها.
قلت: تخـرجت من جامعتهـا.. ثم تحمـل هـذا الفـأس.. لم لم تصر مديرا أو وزيرا في مدائنها!؟
قال: ألم يخبرك معلمك بأن مدائن السلام لا يتمنى أهلهـا مـا تتمنون من المناصب؟
قلت: ألم تتمن من المناصب إلا أن تصير فلاحا تحمل الفـأس والرفش.. ما أدنى همتك!؟
قـال: ليس في هـذا علـو همـة أو دنـو همـة.. فالهمـة محلهـا القلب لا الجوارح.. فالقلب الساكن إليه الراضـي بـه المتطلـع لمـا في يده لا يهمه أن تشتغل جوارحه بالفأس أو بغيره.
قلت: فلم اخترت الفأس على غيره؟
قال: لقد رأى الله في الحب لما تمتلئ به الأرض من أصناف الأعشاب والنباتات.. ورأى في بجانب ذلك حنانـا ورحمـة فائضـتين على الخلائق المتـألمين.. فـدلني برحمتـه وفضـله على البحث في الأرض عن أسرار الشفاء.
قلت: أأنت تعمل بهذه المدائن إذن؟
قال: أجل.. وقد اختارني أهلها لإدارة مزارع الشفاء.
قلت: أهذه مزراع الشفاء.. وأنت مديرها!؟
قال: بل أجيرها.. فالمدير في مدائن السـلام أجـير قـد كلـف بوظيفة التسيير.. لا المدير الذي تعرفونه في مدائن الصراع!؟
قلت: ولكن كيف تحمل هذه الفأس؟
قـال: ألم أقـل لـك: إني أجـير.. ووظيفـتي تسـتدعي هـذه الفأس؟
قلت: فما تعمل بها؟
قال: أرعى النباتات، وأوصل لهـا مـا كتب اللـه لهـا من رزق، لأقطف منها بعد ذلك ترياق الشفاء.
قلت: أي النباتـات تعتمـدون في علاجكم للمرضـى في هـذا القسم؟
قال: نحن نعتمد نباتات كثيرة.. كثـيرة جـدا، منهـا مـا تعرفـه، ويعرفه قومك، وأكثرها لا تعرفه، ولا يعرفه قومك.
قلت: فكيف اهتديتم إليها؟
قال: ذلك شأن آخر.
فجـأة سـكت، وطلب مـني السـكوت.. وإذا بـه ينظـر إلى

السماء، ويتمتم بكلمات لم أفهمها.
ظننت الرجل مخبولا.. لكني صبرت حتى انتهى من تمتمته، وقلت: أهذه الحالة التي تأتيك قديمة أم جديدة؟.. ولم لم تلتمس علاجها؟
قال: أي حالة؟
قلت: ما رأيتك تفعله الآن من نظرك إلى السماء وتمتمتك.
قال: لقد جاءتني مكالمة عنك..
قلت: أما رأيته هو مكالمة.. لم أرك تخرج جوالك.. أم أنك تخبئه في سترتك!؟
قال: لا.. لقد اخترع علماء السلام أجهزة محادثات خاصة تعتمد على ما في الإنسان من طاقات الاستماع، وهي لا تحتاج إلى وسائط خارجية.
قلت: ونظرك إلى السماء.. أهناك أقمار صناعية خاصة بكم؟
قال: يمكنك تسميتها كذلك.. ولكنها أنواع من الأجهزة لم تسمعوا بها، ولا يمكنني أن أشرحها لك.
قلت: لقد زعمت بأن المكالمة التي وردت إليك تخبرك عني، فممن، وما قالوا؟
قال: هي من حاكم هذه المدائن.. وهو يطلب مني أن أرشدك في أقسام هذه المزراع.
قلت: أيعرفني حاكمكم؟
قال: نحن إخوان في الله لا يجهل بعضنا بعضا.
قلت: ولكنكم كثير.. فكيف يعرف بعضكم بعضا؟
قال: ألم يخبر ﷺ بأنه يعرف أمته من آثار الوضوء؟
قلت: فكيف يعرف بعضكم بعضا؟
قال: من آثار السلام.. فللسلام من السكينة والوقار ما يوحي للمتفرسين بالمسالمين والمصارعين.
قلت: فحدثني عن أقسام هذه المزراع.
قال: لا.. سأنزل بك عليها واحدة واحدة.
قلت: قبل ذلك عرفني بها.. حتى أعلم بداية مسيرتي ونهايتها.
قال: هي أربعة أقسام.
قلت: أعلم أنها أربعة.. فما هي؟
قال: أما الأولى.. فهو حقل للتجارب، نقوم فيه بتجريب العلاج بالنباتات المختلفة.

قلت: والثاني؟

قال: هو صيدلية أعشـاب نمونهـا من حقـل التجـارب لنعطي منها كل مريض ما يحتاجه.

قلت: والثالث؟

قال: هو ليس قسما كالأقسام التي تعرفون.. ولكنــه مزرعـة يتجول فيها المرضى مع الأطباء ليعطوهم من الأعشاب ما يتناسب مع أمراضهم.

قلت: والرابع؟

قـال: نحن نسـميه (دسـتور الأطبـاء).. ونتنـاول فيـه البحث والدراسة والمناقشة فيما يحتاجه العلاج من قوانين تحفظ الصحة، وتحمي من الدجل.

قلت: فهل سنزور هذه الأقسام جميعا؟

قال: لا مناص لنا من زيارتها.. فقد طلب مني أن أفعل ذلك.

حقل تجارب

سرت مـع مـدير هـذا القسـم إلى مـا يطلقـون عليـه (حقـل التجـارب)، وقـد كتب في مدخلـه قولـه تعـالى: ﴿ قُـلْ سِـيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا ﴾ (العنكبوت:20)

فقلت: أنحن نسير إلى الحقل.. أم سنسير في الأرض؟

قال: بل إلى الحقل.

قلت: فلم وضعتهم هذه الآية هنا؟

قال: لقد أحضرنا جميع الأرض هنا.. فلذلك إن سـرنا في هـذا الحقل نكون قد سرنا في الأرض جميعا.

قلت: كيف تحضرون جميع الأرض هنا.. ألا تعلم أن الكل أكبر من الجزء؟.. فكيف تزعم أن الجزء يحتوي على الكل؟

قال: هذا حقل تجارب على الأثر الطـبي للنباتـات المختلفـة.. وهو يستدعي التعرف على جميع النباتات.. فلذلك استنبتنا كـل مـا نعرفه من نباتات الأرض في هذ الحقل.. لنجري عليه تجاربنا.

قلت: أتعرف ما تقول يا رجل.. إن نباتات الأرض أكـثر من أن تحصروها في هذا الحقل!؟

قال: ولكن لله هدانا بمنه وكرمه إلى أساليب نجمع فيهـا كـل نباتات الأرض من غير أن نحتاج إلى جميع الأرض.

قلت: تقصد البركة التي تحول القليل كثيرا.

قال: البركة عنصر من عناصرها.

قلت: وباقي العناصر.

قال: ذلك علم لم يؤذن لي في كشفه.

قلت: بقيت مشكلة أخرى.

قال: ما هي؟

قلت: نباتــات الأرض تتــوزع بحســب الأقــاليم والتضــاريس والمناخ، فبعضها يؤثر الصحاري.. وبعضها يؤثر الصـقيع.. وبعضـها لا يعيش إلا في المناطق الاستوائية.. وبعضها..

قال: لقد حسبنا حسـابا لكـل ذلـك..ألم أقـل لـك بـأن الأرض جميعــا اختصــرناها في هــذا الحقــل.. الأرض جميعــا بتضاريســها ومناخها وكل ما تراه فيها من تغيرات!؟

قلت: بأي تقنية فعلتم ذلك؟

قال: بتقنية نسميها (الجوامع)

قلت: لم أسمع بهذه التقنية من قبل.

قال: لا.. لقد سمعت بها.. فقد استخدمها رسول الله ﷺ.

قلت: أين.. ومتى؟

قال: ألم يقـل ﷺ:(أعطيت فـواتح الكلم وخواتمـه وجوامعـه)(1)، وكان يقول في دعائه:(اللهم إني أسألك فواتح الخير وخواتمــه وجوامعه)(2)

قلت: بلى.. وقـد ورد في الحـديث أن النـبي ﷺ قـال:(عليـك بالكوامل الجوامع)(3)

قال: لقد انطلق علماء هذا المستشـفى من هـذه النصـوص، فاختصروا أجواء الأرض جميعا في هـذاالحقل.. فنبتتت فيـه بفضـل الله كل نباتات الأرض من غير استنبات.

قلت: لقد فعل قومي مثل هذا.. فوضـعوا خارطـة لتضـاريس الأرض.

قال: هذا مثل ذلك.. ولكن بفارق بسيط.

قلت: ما هو؟

قال: أرضكم التي صنعتموها ميتة، وأرضـنا حيـة.. فأرضـكم لا تنبت، وأرضنا تنبت.

قلت: بالبركة.

قـال: بـالجوامع والبركـة.. وتقنيـات أخـرى لم يـؤذن لي في كشفها لك.

---

1) البيهقي في الشعب.
2) الطبراني في الكبير والحاكم.
3) الحاكم.

قلت: لا بأس.. سلمت لك بما تقول.. ولكن بقيت مشكلة أخرى.

قال: ما هي؟

قلت: ألا توجد هناك نباتات سامة؟

قال: أجل.. وهي كثيرة.. ولكنها سامة نافعة.

قلت: ما تعني؟

قال: إن كونها سامة يعني أن لها مفعولا قويا لا يتناسب مع أجهزة جسم الإنسان.

قلت: لم أسأل عن هذا.. ولكني سألت عن وصفك لها بالنفع.. أتراكم تستعلمونها في القتل؟

قال: نحن أهل السلام نفضنا أيدينا مما تسمونه قتلا.

قلت: فما تفعلون بها؟

قال: نحن نخلطها بنباتات أخرى، فينشأ من سم هذه، وترياق الأخرى ما يمدنا بما نحتاجه من داوء.

قلت: لم أفهم هذا؟

قال: ألا تعرف التلقيح؟

قلت: بلى..

قال: فما تفعلون فيه؟

قلت: نلقح الإنسان بالداء ليتعلم كيف يقاومه.

قال: فنحن نلقح بعض النباتات بالسموم لنستخرج الأمصال التي تقاوم بها السموم، فنستعملها علاجا.. وقد رأينا جدواها لعلل كثيرة.

قلت: فكيف تميزون النباتات السامة من غيرها؟.. ألديكم فئران تجارب؟

قال: لا.. نحن نستخدم حيوانات خاصة أعطاها الله من علم السموم ما تميز به السم عن الترياق.

قلت: سلمت لك فيما قلت.. ولكن المشكلة لم تحل بعد.

قال: ما هي المشكلة؟.. فلم أسمعك تذكرها.

قلت: كيف تعرفون تأثير النباتات العلاجي!؟.. فهذا ليس شيئا بسيطا.. خاصة مع عدم استخدامكم الفئران أو غيرها للتجارب.

قال: لقد أخبروك بعدم جدوى استعمال الفئران.. فلذلك نستعمل وسائل كثيرة بديلة.

قلت: المهم أن الإنسان ليس من بينها.

قال: قد يكون الإنسان من بينها.

قلت: ألا تعلمون تحريم إجراء التجارب على الإنسان؟

قال: بلى.. ولكنا لا نطعمه أي عشب حتى نتأكد من عدم خطورته عليه.

قلت: كيف ذلك؟

قال: لقد صمم أهل هذا لمستشفى اختراعا يضاهون به أجهزة الإنسان ليروا مدى تأثير أنواع الأعشاب فيه.

قلت: كيف؟.. أهو إنسان آلي.

قال: لا.. ولكنه جهاز توضع فيه النبتة.. فيعطيك كل التفاصيل المرتبطة بها من عناصر ومركبات وقوى وين ويانغ وبركة وغيرها.. بالإضافة إلى الآثار السلبية التي قد تنجم عن استعمالها، وأنواع الاستعمالات التي قد تصلح لها.

قلت: فهذا جهاز متطور إذن!؟

قال: في إمكانكم صنعه لو تخلصتم من بارونات الكيميائيات التي تجثم على صدوركم.

قلت: لقد ذكرت العناصر والمركبات مع القوى والين.. وغيرها.. بأي أسلوب تتعاملون.. هل بالطب القديم أم بالحديث؟

قال: نحن لا نحتقر أي علم يأتينا.. فلذلك زودنا أجهزة بكل تلك المعارف لنستخلص الشفاء على مختلف مدارسه.

قلت: فأي جهة تعتمدون؟

قال: كل الجهات.. المهم عندنا أن ينهض المريض معافى.

قلت: فما المنطلق الذي تنطلقون منه؟

قال: من قوله ﷺ:(تداووا فإن الله لم ينزل داء إلا أنزل له شفاء علمه من علمه وجهله من جهله)[1]

قلت: كل أهل هذه الديار سمعتمهم يرددون هذا الحديث.

قال: كل سمعه على ضوء اختصاصه.

قلت: فما يسمع منه هذا القسم؟

قال: لقد بشرنا ﷺ بأنه لا ينزل داء إلا نزل معه الدواء.. وتعبيره بالنزول يدل على أن لكل داء نباته الخاص به.. والذي يقضي عليه.

قلت: ألا يمكن أن يدخل في هذا الادوية الكيميائية؟

قال: لا.. لأنها صنعت.. ولم تنزل.. ولفظ التنزيل ينافيها.

قلت: فأنتم تعادوناها إذن؟

قال: لا.. نحن لا نعاديها.. بل نتعاون معا.. ولكنا في نفس

---

1) مسلم.

الوقت نبحث عن العلاج المنزل لنتقي أخطار العلاج المخترع.

قلت: ولكن..

قال: تقصد أن قومك اطلعوا على جميع النباتـات، وبالتـالي لا حاجة لمثل هذا الحقل.

قلت: لقد فهمت ما قصدت.. فمع كون النباتـات كثـيرة إلا أن قومي لم يقصروا في البحث عما تمتلئ به من ألوان الشفاء..

قال: لا.. النباتات أكثر بكثـير.. وأنتم لم تعرفـوا من العلاج بهـا إلا القليل.

قلت: أراك لا تعرف قومي؟

قال: كيف لا أعرفهم.. وقد نبتت فيهم.

قلت: لـديك أخبـار قديمـة عنهم.. إنهم يتطـورون بين عشـية وضحاها.

قال: لا.. إن أخبارهم تصلني الساعة تلو السـاعة.. وقـد كـان آخر ما وصلني من أخبـار أنهم في أمريكـا والـدول الأوربيـة قـاموا ببعض المـؤتمرات تتعلـق بـالعلاج بالأعشـاب.. وقـد خرجـوا منهـا بتوصيات هامة.. ليتهم ينفذونها.

قلت: فما هي؟

قال: من أهم توصياتهم دعوة العلمـاء إلى البحث عن نباتـات جديدة قد تكون مصدر للدواء.

قلت: فهل بدأوا بذلك؟

قال: أجل.. وهي بداية مشجعة نتمـنى أن لا يقـف في وجهها اللوبي الكيميائي.

قلت: فما فعلوا؟

قال: لقد تم اكتشاف نباتات جديدة لهـا فوائـد طبيـة وأخـرى اقتصادية لم تكن معروفة من قبل.

قلت: أهناك نباتات لم يكونوا يعرفونها؟

قال: أجل..

قلت: وكم يعرفون؟

قال: الكثير.. ولكنها معرفة سطحية.. وقد علمت أن هناك ما لا يقل عن 1800 معشبة منتشرة في الأمريكيتين وأوربـا، تحتـوي على ما يقرب من 175 مليـون نبـات، تمثـل 25000 نـوع، وعلى كل نموذج من هذه النباتات المجففة بيانات عن هـذه النباتـات من حيث اسـمها العلمي وفصـيلتها وجامعهـا وتـاريخ جمعهـا ومكـان انتشارها، كل ذلك بجانب معلومات عن قيمتها الطبية والاقتصـادية

إن وجدت.. ولكن كل ذلك يظـل قليلا.. قليلا جـدا بجـانب مـا أودع الله في الأرض من بركات الشفاء.

قلت: فهل وجد هؤلاء الباحثون ما قد يشـجعهم على المضـي في هذا السبيل؟

قال: أجل.. لقد قام فريق من العلماء الأمريكيين بالبحث عن نباتـات تحتـوي على عناصـر فاعلـة لهـا القـدرة على القضـاء على الخلايا السرطانية، وقد اتخذوا مركز أبحاثهم منطقة شرق إفريقيا، واسـتطاعوا الكشـف عن مـا يزيـد على 1200 نوعـا من النباتـات التي تنمو في هذه المنطقة، ولها القدرة على القضـاء على الخلايـا السرطانية في حيوانات التجـارب.. ومن أمثلـة ذلـك نبـات الفنكـا، فقد استخلص من أنواعه المختلفة عقاقير تعالج أدواء كثيرة.

قلت: فهل تنشرون ما تعرفونـه من نتـائج، أم تحتفظـون بهـا لأنفسكم، ليبقى العلاج بها خاصا بهذا المستشفى.

قـال: لا.. نحن لا نكتم العلم.. كمـا أنـا لا نسـلم العلم لمن لا يستحقه.. ألم تسمع مقولة المسيح ﵇:(لا تعلقوا الدر على أعنـاق الخنازير)؟

قلت: بلى.. وقـد نفعـني اللـه بهـا.. ولكن ألا تخـافون من أن يتسلم هذه الأدوية التي تعرفونها شركات الأدوية لتتاجر بها؟

قال: لقد فعلوا ذلك مع نباتات كثيرة تم اكتشافها.

قلت: وسكتم.. ولم تحاكموهم.

قال: ولم نحاكمهم؟

قلت: على سرقة ما اكتشفتموه.

قال: لقد فرحنا لذلك.. فلا يهمنا إلا أن يتنشر الشـفاء.. فنحن تجار لا يهمنـا من تجارتنـا إلا ابتسـامة الأنين.. فهي أغلى عنـدنا من كل مال.

قلت: فاذكر لي بعض ما اكتشفتموه.. ليستخلص منه غـيركم العلاج، وينسبه لنفسه.

قال: من أمثلة ذلك الصبر، فإنـا قـد عرفنـا تـأثيره في تقويـة الشـعر وعلاج سـقوطه، فاستخلصـوا منـه مستحضـرات صـيدلية لنفس الأغراض.

ومنهـا ثمـار الخلـة الـبري، فقـد اسـتعملناه للعلاج الأمـراض الجلدية والبهاق، وهم يستخدمون الأمـودين المسـتخلص منهـا في نفس الأغراض.

ومنهـا ثمـار الخلـة البسـتاني، فقـد اسـتخدمناه لإدرار البـول،

وتخفيف آلام المغص الكلوي، ولإنزال الحصى من الجهـاز البـولي، وهم يســتخدمون مـــادة الخلين المستخلصـــة منهـــا في نفس الأغراض، وفي علاج الذبحة الصدرية.

ومنها العرقسـوس، فقـد اسـتخدمناه ملينـا وعلاجـا لأمـراض المعـدة والجهـاز التنفسـي، وهم يسـتخدمون مـادة الجلسـرهيزين المستخلصة منه لنفس الأغراض.

ومنهـا الـترمس، فقـد اسـتخدمنا بـذوره لعلاج التهـاب الجلـد وحب الشـباب ومـرض السـكر، وهم يسـتخدمون الحبـوب لنفس الأغراض، ولتخفيض نسبة السكر في الدم.

***

دخلت مع مدير القسم إلى الحقل.. لقـد كـان أرضـا حقيقـة بكل ما تحملـه الكلمـة من معـاني.. حـتى أن شـكله شـكل الأرض وحدوده حـدود الأرض.. كـان منظـرا بهيجـا لا يمكن وصـفه.. وقـد رأيت فيه ما لو أذن لي لملأت الأسفار الضخمة منه.. ولكني منعت من أن أخرج شيئا إلا بإذن أهله، وفي وقته المناسب.

صيدلية أعشاب

سرت مع مدير هذا القسـم إلى مـا يطلقـون عليـه (صـيدلية الأعشـاب)، وهي صـيدلية لا كالصـيدليات الـتي نعرفهـا.. بـل هي صـيدلية في الهـواء الطلـق.. وشـكلها لا يختلـف كثـيرا عن حقـول التجارب التي مررت بها.

سألت مرافقي عن الفرق بين هذه الصيدلية والحقل، فقـال: في هـذه الصـيدلية لا توضـع إلا النباتـات الـتي تم اكتشـاف آثارهـا الصحية.. وقد وضعنا بجانب كل نبتة مـا يتعلـق بهـا من معلومـات، ليتسفيد الأطباء منها في وصفها للمرضى.

قلت: فهل سنزور هذه النباتات؟

قال: لا يمكن ذلك.. فهي أكثر من أن يمكن حصرها.. ولــذلك ستكتفي بزيارة عشرة منها، والتعرف على آثاره العلاجية.

قلت: فلم العشرة؟.. عهدي بكم تذكرون الأربعة.

قـال: لسـت في مقـام البحث عن الأركـان.. أنت تبحث عمـا يملؤك قناعة بجـدوى هـذا النـوع من العلاج.. والعشـرة هي العـدد الذي يستخدم في مثل هـذه الأمـور.. ألم تـر كيـف أقنعـوك بكـون المرض نعمة بعشرة أمور؟

قلت: بلى.. ومثلهـا مـا ذكـروا من خـزائن أدويـة السـماء

ومشافيها.

قال: لقد استنبط أهل السلام ذلك من قوله تعالى: فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَـةٌ (البقرة:196)، فقد وصف الله العشـرة بالكمـال، وهي دليـل على ما في الوصول إليها من بث القناعة في النفس.

قلت: والأربعة؟

قال: ذلك سر آخر.. ستعرفه من معلمك.

قلت: لقد ذكرت بأني سأذهب وحدي.. فأين ستكون أنت؟

قال: ستحدثك هذه النباتات كما حدثتك أدوية البركة.

قلت: ولكـــني في الأرض.. ولســـت مـــع المتوســـمين في السماء..

قال: أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (البقــرة: 107)

قلت: بلى.. ولكن تلــك أويــة من الســماء، وهــذه أدويــة من الأرض.

قــال: وبركــات اللــه في أدويــة الســماء كمــا هي في أدويــة الأرض، فالله رب السماء والأرض.

قلت: وأين ستذهب أنت؟

قال: إلى حقل التجارب.. فلدي أبحاث مهمة هناك.

قلت: فأين أجدك بعد انتهاء زيارتي؟

قال: لا تحمل هما لذلك.. فإن لدينا من الوسائل ما تعجز عن فهمه.

البابونج:

مــا ســـرت إلا قليلا بعــد أن تركــني حــتى ســمعت زهــرة البابونج(1)، وقد كـانت تحت قـدمي تقـول لي بصـوت رخيم: ارفـع رجلك عني.. فإن نعلك آذاني.

قلت: اعذريني.. فلم يكن لي بد من ارتدائه.

قالت: لا بـأس عليـك.. المهم أن تنظـر تحت قـدميك حـتى لا تطأنا.

قلت: أيؤلمكم ذلك؟

قالت: كما يؤلمكم أنتم، ألسنا أمة مثلكم؟.. أم تـراك نســيت

---

1) نبــات حــولي من فصــيلة المركبــات، يوجــد في الحقــول وعلى جــوانب الطــرق بالمناطق الحارة، ويتراوح ارتفاعه ما بين 15 ـ 50 سم، ســاقه متفرعــة، أوراقــه طويلــة ومجنحة، وأزهاره بيضاء، ولزهرة البابونج رائحة عطرية تميز العشبة عن أعشاب تشــبهها لا رائحة لها.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾(الأنعام:38)؟

قلت: ولكن الآية ذكرت الحيوانات.

قالت: كل شيء في ملك الله سواء.. النبات والحيوان.

قلت: فحدثيني عن أسرار الشفاء التي أودعها الله فيك.

قالت: من الخصائص الفريدة التي وهبني الله إياها أن لي مفعولاً مقاوماً لحدوث الأحلام المفزعة والكوابيس.

قلت: فما سر ذلك؟.. أهو منظرك الجميل؟.. أم رائحتك العطرة؟

قالت: سر ذلك هو أني مهدئة عامة للجسم والنفس معاً، ولذلك أفيد فى حالات الأرق والإكتئاب والخوف والأزمات النفسية التى تزيد خلالها فرصة التعرض لحدوث الكوابيس.

قلت: هذه فائدة عظيمة تغنينا عن كثير من سموم الكيمياء.

قالت: ليس هذا فحسب.. بل يستعمل مسحوق أزهاري من الخارج لمعالجة الالتهابات الجلدية والقروح والجروح في الفم والتهاب الأظافر.. ويستعمل بخار مغلي أزهاري للاستنشاق في حالة التهاب المسالك الهوائية من الأنف والحنجرة والقصبة الهوائية.. ويستعمل مستحلب الأزهار من الخارج لغسل العيون المصابة بالرمد، ولعمل غسيل مهبلي لمعالجة إفرازات المهبل البيضاء أو النتنة، أو للتقيحات الجلدية بشكل عام.

ليس ذلك فقط.. بل يستعمل مغلاي في حالات الاضطرابات الهضمية(1)، بالإضافة إلى أني مضادة للتقلصات، وخافضة للحرارة.

قلت: ما شاء الله.. أكل هذه بركاتك أيتها الصغيرة الجميلة؟

قالت: ليس ذلك فقط.. بل إني ـ بفضل الله ومنته ـ أعمل على شفاء الالتهابات.. ولهذا أستعمل ككمادات الالتهابات الجلدية(2)، فتشفى بسرعة، كما أني أعمل نفس عمل المضادات الحيوية في شفاء الالتهابات.. فإذا ما غلي شيء مني واستنشقه الشخص، استطاع أن يزيل الالتهاب من تجاويفه الأنفية والجبهية بسرعة، وأن يقضي على جميع الجراثيم الموجودة خلال مدة

---

1) يساعد البابونج على رفع التشنجات الحاصلة في المعدة، وسائر أقسام الجهاز الهضمي، ويزيل المغص من المعدة والأمعاء والمرارة أحيانا.

2) يساعد البابونج على شفاء الجراح غير الملتئمة بسرعة، وعلى الأخص في تلك الأماكن من الجسم التي تعسر معالجة الجراح فيها، كالقسم الأسفل من الساق، فيمكن معالجة الجراح بكمادات البابونج أو المراهم المركبة منه، فتندمل بعد وقت قصير.

قصيرة(1).
قلت: فما سر التأثير الذي وضعه الله فيك؟
قالت: بحسب ما تعرفون.. أم بحسب الحقيقة؟
قلت: الحقيقة لا يفهمها قومي.. فحدثيني عن الرسوم.
قالت: إن مادة الأزولين هي المادة الفعالة التي تكسبني تأثيري الشافي(2) ـ على حسب ما يذكر قومك ـ
قلت: فما خواص هذه المادة؟
قالت: هي كزيت الزيتون الذي يحتوي على حوامض دهنية غير مشبعة، كثيرة الألفة الكيميائية، سريعة الاندماج بالمواد الأخرى لتركيب مواد نافعة منها.. وانتبه.. فهناك فرق بين مادة الأزولين الموجودة في وبين الأزولين الموجود في النباتات الأخرى.
قلت: فكيف أفرق بينهما؟
قالت: لقد أطلقوا على الأزولين المتواجد بي اسم شام أزولين.. وهو أزرق اللون، ويخرج مني إذا ما صنعت شايا أو إذا ما جرى تعريض أزهاري لبخار الماء في المختبرات.
قلت: إن من قومي من يستخدمك.. ولا أراه ينتفع بك.
قالت: كيف ذلك.. ومن يجرؤ على قول مثل هذا؟
قلت: لقد قرأت مرة تأثيرك في علاج القرحة(3)، فوصفت هذه الوصفة لبعض أصدقائي.. ولكنه عاد إلي بعد فترة يبشرني بخيبة التجربة.. بل ويعاتبني فوق ذلك.
قالت: حق له أن يعاتبك.
قلت: لم؟
قالت: لأنك وصفت الدواء، ولم تبين كيفية استعماله.
قلت: لقد نصحته بأن يجعل منك شايا كما ذكرت الآن.
قالت: أنسيت أن الشاي يغادر المعدة بسرعة.. فلذلك لا يتمكن من علاجها.
قلت: فماذا أفعل؟.. هل أشرح معدته.. وأعلق فيها أزهارك؟

---

1) يمكن استخدام أبخرة البابونج في معالجة النزلات الصدرية والرشوحات الرئوية، وذلك بأن يسخن الماء في قدرعلى النار ويلقى فيه شئ من البابونج، ثم يغطى الرأس مع القدر بقطعة كبيرة من القماش، ويبدأ المريض في استنشاق بخار البابونج مدة ربع ساعة على الأقل، فيقوم البابونج بقتل هذه الجراثيم ورفع الالتهابات.

2) كما يحتوي على فلافو نيدات وجلوكوزيدات مرة وكومارينات ومواد عفصية.

3) يستخدم مغلي البابونج في أوروبا كمشروب لعلاج القرحة، وقد نصح عدد كبير من العشابين المتميزين باستعمال هذا النبات، وقد قال الطبيب رودلف فرتزويس عميد الأعشاب الطبية الألمانية ومؤلف كتاب Herbal medicine أن البابونج هو الوصفة المفضلة لعلاج القرحة، ولا يوجد وصفة أخرى يمكن أن تجاريه من المستحضرات الكيميائية المشيدة المستخدمة لعلاج القرحة.

قالت: في إمكانك أن تفعل ذلك.

قلت: هو لا يرضى بـذلك.. وأهـل السـلام لا يرضـون بتقطيـع بنيان الله.

قالت: في إمكانك أن تفعل ذلك من غير تقطيع.

قلت: كيف ذلك؟

قـالت: اسـمع هـذه النصـيحة الغاليـة.. واسـتفد منهـا لجميـع النباتات المرتبطة بعلاج المعدة.

قلت: أفيديني أفادك الله.

قالت: إذا استخدمت شايي في معالجة القرح المعدية، والتي يلعب الأزولين دورا هاما في شفائها، فلا بد أن تسلك في المعالجة طريقة خاصة.

قلت: أنا أنتظرها.

قالت: يتناول المصاب شايي، ثم يستلقي خمس دقـائق على ظهره، ومثل ذلك على جانبه الأيسـر، ثم على بطنـه، وأخـيرا على الجانب الأيمن.

قلت: لم كل هذه الطقوس؟.. أليس ذلك بدعة؟

قالت: الغرض من ذلك كله مرور شايي على مختلف جـدران المعدة.. فلا بد من اتباع هذا النظام لأن الشاي ـ كـل شـاي، يغـادر المعدة بسرعة إذا ما ظل المريض منتصبا بعد تناوله.

قلت: هل أنصحه بهذا؟

قالت: إذا بقي واثقا فيما تقول انصحه.

قلت: المسكين يثق في كل ما أقول، وما يقوله غيري.. فقـد أرهقته أدوية القرحة بسمومها وأسعارها.. فأفرغت جيبه، ودمـرت صحته.

قالت: ولا تنسـى أن تنصـحه بالاسـتمرار على اسـتعمال هـذا الدواء بصورة مركزة مدة طويلة[1]، فإن تأثيري لا بد أن يصل إليه بإذن الله.. بالإضافة إلى ما أفعله في نفسه من تهدئة قد تكون لها علاقة بما حصل له من القرحة.

قلت: سأفعل ذلك.. ولن يكلفه ذلـك درهمـا ولا دينـارا.. فقـد ملأ الله أرضنا من أزهارك.

---

1) لا يجب الإكثار من تناول شاي البابونج، إلا في حالات خاصة ينصح بها الأطبـاء، لأن ذلك يؤدي في هذه الحالة إلى عكس المفعول، فيشعر الشخص بثقل في الرأس وصـداع عند القيام بتحريك الرأس، ويستولي عليه الألم، في كل مـرة يهـتز بهـا جسـمه، وتعتريـه الدوخة والعصبية، وحدة المزاج والأرق، أي أنه تنتابه جميـع تلـك العـوارض الـتي يوصـف البابونج في مكافحتها.

قالت: ولا تنس أن تعلمه كيفية تحضير شايي.

قلت: ألك أسلوب خاص في التحضير؟

قالت: هو أسلوب أشترك فيه مع كثير من النباتات الحساسة.

قلت: أهناك نباتات حساسة؟

قالت: أجل.. وهي نباتات تؤذيها درجات الحرارة العالية.

قلت: فكيف نتعامل معك معشر النباتات الحساسة حتى لا نؤذي مشاعرك؟

قالت: يجب أن لا أغلى في الماء، بل يصب الماء الغالي فوقي، ثم يصفى ويؤخذ.

قلت: لم؟.. وهل يؤذيك غليك في الماء؟

قالت: لقد أثبتت الفحوص الأخيرة بأن هذه الطريقة أحسن الطرق لاستخراج أكبر كمية ممكنة من مادة الأزولين وغيرها من المواد النافعة الأخرى التي وهبها الله لي.

قلت: ألا يؤذيك صب الماء الحار عليك؟

قالت: نحن مسخرون في طاعة الله.. فلذلك لا نشعر بالحرارة والبرودة ولا نتألم لهما.

قلت: فما الذي يغيبكم عنهما؟.. ألك ألبسة واقية؟

قالت: لنا لباس لا يعرفه قومك.

قلت: ما هو؟.. لعلني أنصحهم به.

قالت: الحب..

قلت: ذاك ما يحسن قومي.

قالت: هم يحسنون الحب المدنس.. أما نحن فنسبح في بحار الحب المقدس.

الزعتر:

ما إن ابتعدت قليلا عن البابونج حتى شممت رائحة الزعتر[1]، وهي تناديني بصوت عذب: تعال.. لتعرف أسرار النبتة التي جعلها الله غذاء وشفاء.

قلت: صوتك صوت جميل.. ورائحتك في الطعام لذيذة.

---

1) الزعتر: هو السعتر ويسمى الصعتر، وهو نبات مشهور من الفصيلة الشفوية، ويكثر بصفة عامة في دول حوض الأبيض المتوسط، ويطلق عليه صفة مفرح الجبال لأنه يعطر الجبال برائحته الذكية.

واسمه العلمي Thymus Vulgaris، والجزء الطبي المستعمل منه: الفروع المزهرة،والأوراق، وهو من التوابل، وله رائحة عطرية قويةوطعم حار مر قليلاً، وله نوعان: بريونوع آخر يزرع.

قـالت: ورائحـتى على الصـحة أجمـل من ذلـك كلـه.. فتعـال أخبرك عنها.

اتكأت بالقرب منها، لأسمع ما تناجيني به من أسرار ما وضــع الله فيها من بركات الصحة، قالت: أتعلم آخر أخباري؟

قلت: أعلم بعض أولها.. ولا أدري آخرها.. فلســت من متتبعي الأخبار.. ولكن لماذا لا تبدئين من أولها؟

قالت: لأرغبك في أولها أذكر لك آخرها.

قلت: فشـنفي سـمعي.. فـإن لـك حكمـة جعلت المفكـرين يهتمون بك، ويرعونك، ويستعملونك.

قالت: وكيف لا يستعملوني، وقد جعلني الله منبهة للــذاكرة.. ولهذا يقبل طلاب العلم علي لأساعدهم في مراجعتهم.

قلت: نعم.. أرى كثـيرا من قـومي يفعلـون ذلـك، فيتناولونـك كسندويش مع زيت الزيتون صـباحا، وقبـل الـذهاب إلى المدرسـة طمعا في هذه الفائدة.

قـالت: وانصـحهم بـأكلي بعـد الوجبـات للتغلب على النعـاس المصاحب لعملية الهضم، فهكذا يفعل المفكــرون كي يتمكنــوا من متابعة أعمالهم بجد ونشاط.

قلت: ما شاء الله هذه فائدة قد تغنينا عن الشاي والقهوة.

قالت: تلك فائدة بسيطة من فوائـدي.. وقـد ذكـرت لـك أني سأبدأ من آخرها.

قلت: فاذكري لي هذا الأخير الذي أراك مسرورة به.

قالت: لقد أكد باحث مصرى(1) ـ بالمركز القـومى للبحـوث ـ في دراسة كيميائية له دوري في شفاء كثير من الأمـراض، لاسـيما ما يتعلق منها بالجهاز التنفسـى مثـل السـعال الـديكى والالتهابـات الشــعبية والربــو بالاضــافة إلى فــاعليتي في علاج مــرض نقص المناعة المكتسبة.

قلت: الأيدز!؟

قالت: أجل.. وذلك لأني أحتوي على مواد شديدة تعمــل على تقوية الجهاز المناعى.. وخاصة إذا أضيف ذلك إلى بعض المكونات الأخــرى الــتي تــؤدي نفس الغايــة، مثــل غــذاء الملكــات، والحبــة السوداء، والزنجبيل.. والبحوث مع ذلك لا تزال جارية في هذا.

قلت: هذه فائدة عظيمة.

قالت: وهناك غيرها.. فقد أوضح أني أحتوى على بعض المواد

---

1) هو الدكتور محمد أحمد مطر في تصريح لوكالة الانباء الكويتية (كونا)

شـديدة الفاعليـة، والـتي من شـأنها علاج بعض الأمـراض، حيث أحتـوى على مـواد لهـا خاصـية مسـكنة للألم ومطهـرة ومنشـطة للدورة الدموية.

وقـد ذكـر من فوائـدي أني أحتـوى على مـادة الـثيمول الـتى تعمل على قتل الميكروبات وتطرد الطفيليات من المعـدة إضـافة إلى مـادة الكـارفكرول، وهى مسـكنة ومطهـرة وطـاردة للبلغم ومضادة للنزيف والاسهال.

وذكر أني أحتوى على مواد راتنجيـة مقويـة للعضـلات، وتمنـع تصلب الشرايين، وطاردة للأملاح.

وأني أحتوى على مواد مضادة للأكسدة، مما يمكن الاستفادة مني بإضـافة زيـتي إلى المـواد الغذائيـة ليمنـع الأكسـدة، بـدلا من إضافة مواد صناعية قد تضر بالصحة.

قلت: هذه فوائد عظيمة.

قالت: بالإضافة إلى ما ذكر.. فإني معروفة بدوري في تطهير الجـروح وتنقيـة الأمعـاء من البلغم، وتلطيـف الأغذيـة، خاصـة إذا وضعت مع الخل، فإني ألطف اللحوم وأكسبها طعما لذيذا.

وأنا طـاردة للديـدان.. وقـد أثبتت التجـارب العلميـة أن زيـتي يقتل الاميبا المسببة للدوسنتاريا في فـترة قصـيرة، ويبيـد جـراثيم القولون، وأني مسكن للسعال وأقوي المناعـة إذا اسـتخدمت مـع الثوم وحبة البركة والعسل.

قلت: نحن نستعملك علاجا للسعال.

قالت: صحيح ما تفعلـون.. فـإني أخفـف السـعال[1] بأنواعـه المختلفة، بما في ذلك السـعال الـديكي، وفي هـذه الحالـة أعمـل على تليين المخاط الشعبي مما أسهل طرده للخـارج، كمـا أهـدئ الشعب الهوائية وألطفها.

قلت: والحلق.. فإن البعض يستعملك للأمراض المرتبطة به.

قالت: أجل.. فقد أثبتت الدراسات والأبحـاث الطبيـة الحديثـة دوري في معالجة التهابات الحلق والحنجرة والقصبة الهوائية، وأني أعمل على تنبيه الأغشية المخاطية الموجودة في الفم وتقويتها.

قلت: ما شـاء اللـه.. فـأنت تغنينـا بهـذا عن كثـير من سـموم الأدوية.

قـالت: أجـل.. وليس هـذا فقـط.. بـل إني أعمـل على تنبيـه

---

1) المـادة الفعالـة في معظم أدويـة السـعال مستخلصـة من السـعتر، وهي مـادة التيمول.

المعدة، وطـرد الغـازات، وأسـاعد على الهضـم وامتصـاص المـواد الغذائية، وطرد الفطريات من المعدة والأمعاء.

وأعمل على توسيع الشرايين، وتقوية عضلات القلب، وأعـالج التهابات المسـالك البوليـة والمثانـة، وأشـفي من المغص الكلـوي، وأخفض الكوليسترول.

قلت: والجمال.. ألا تخدمينه فإن لك صوتا لا شك في معرفته بالجمال واهتمامه به؟

قالت: لقد جعل الله في برحمته ولطفه من حب الجمـال مـا سخرني لخدمته، فأنا منشطة ممتازة لجلد الرأس، وأمنـع تسـاقط الشعر، وأكثفه وأنشطه.

أما الأسنان مرآة الإنسان.. فإن مضغي ينفع في وجعها، وفي التهابات اللثة، خاصة اذا طبخت مع القرنفل في الماء، لهـذا أنصـح بالتمضمض بي بعد أن أبرد.

بل إني أقي الأسنان من التسوس، وخاصـة اذا مضـغت، وأنـا خضراء غضة.

قلت: عرفت فوائدك، فما الاستعمال السليم لك؟

قالت: يختلف بحسب نـوع الاسـتعمال.. فمضـغي مثلا يطهـر الفم ويسكن آلام الأسـنان.. واسـتعمالي غرغـرة يفيـد في التهـاب اللوزتين.

قلت: فكيف تغلين؟

قالت: تغلى عروقي المزهرة وأوراقي مع الماء، وتشرب كما يشرب االشاي.

عرقسوس:

ناداني صـوت لا يكـاد يسـمع.. وكأنـه من بـاطن الأرض ينبـع، فقلت: من أنت يا صاحب الصوت المهموس؟

قال: أنا جذور عرقسوس(1).

قلت: فاخرج إلي أحدثك.. فإني لا أكاد أسمعك.

قال: لا.. لم أنضج بعد حتى تراني.. فأرهف سمعك لي.. فـإن الصادق لا يفرق بين المجهور والمهموس كما لا يفــرق المحب بين الخمول والظهور.

قلت: أنت تعرض بخمولك.

---

1) عرقسوس ة، ويعرف علمياً باسـم Glycyrrhiza glabra، وهـو نبـات شـجري معمـر ينبت في كثير من بقاع العالم مثل سوريا وآسـيا الصـغرى وأواسـط آسـيا وأوربـا ومصـر وكان قدماء المصريين يتناولون نقيع جذوره في الماء... والجزء المستخدم منها الجذور.

قــال: ألم تســمع قــول الحكيم:(ادفن وجــودك في أرض الخمول.. فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه)؟

قلت: أجل.. فهل تراك تعمل بما قال؟.. أم لا اختيار لك فيمـا حصل؟

قـال: نحن نعبـد اللــه بــالحب والاختيــار.. فلا يعبــد اللــه إلا بالاختيار.

قلت: فحدثني عن بركات منافعك.. أم تراك ترضى الخمول.. فلا تخرج.

قال: بئس من يكمل، ويبقى خاملا.. من كمل عليـه أن يخـرج لينتفع به الناس.

قلت: فإذا كملت بما تنفع الناس.

قال: لقد نفعتهم ـ باسم الله النافع ـ على طوال الدهور، فقد عرفت جذور نبتـتي منـذ أكـثر من أربعـة ألاف سـنة عنـد البـابليين كعنصر مقو للجسم ومناعته.

وقد عرفني المصريون القدماء، وأعدوا العصير من جـذوري.. وقد وجدت جذور العرقسوس في قبر الملك توت عنخ أمون الذي تم أكتشافه في عام 1923.. فقد كان الأطباء المصـريون القـدماء يخلطوني بالأدوية المرة لإخفاء طعم مرارتها، وكـانوا يعــالجون بي أمراض الكبدوالأمعاء.

وكان الطبيب اليوناني ثيوكريتوس يعـالج بي السـعال الجـاف والربو والعطش الشديد.

قلت: والعرب.. أمتي التي تمتد فيها جذوري.

قـال: لقـد عرفـوني وأحبـوني، وكـانوا يسـتخدموني كطعـام ودواء.. وقد وصفوني لعلل كثيرة.

قلت: حدثتني عن ماضيك.. فحدثني عما وضع اللــه فيــك من بركات الشفاء.

قال: لقد ذكـرني ابن سـينا في القـانون، فقـال:(إن عصـارته تنفـع في الجـروح، وهـو يلين قصـبة الرئـة، وينقيهـا وينفـع الرئـة والحلق، وينقي الصوت ويسكن العطش وينفع في التهاب المعــدة والأمعاء وحرقة البول)

وقال عني ابن البيطار:(أنفع ما في نبات العرقسوس عصارة أصله، وطعم هذه العصارة حلو كحلاوة الأصل مع قبض فيها يسير، ولذلك صارت تنفـع الخشـونة الحادثـة في المـريء والمثانـة، وهي تصلح لخشونة قصبة الرئة إذا وضعت تحت اللسان وامتص ماؤهـا،

وإذا شربت وافقت التهاب المعدة والأمعاء وأوجاع الصدر وما فيه، والكبـد والمثانـة ووجـع الكلى، وإذا امتصـت قطعت العطش، وإذا مضغت وابتلع ماؤها تنفع المعـدة والأمعـاء كمـا ينفـع كـل أمـراض الصدر والسـعال، ويطـري، ويخـرج البلغم، ويحـل الربــو، وأوجـاع الكبد والطحال وحرقة البول ويدر الطمث ويعالج البواسير ويصــلح الفضلات كلها)

قلت: هذا قول السلف.. فما قال الخلف؟

قال: لقد أجمعت البحوث العلمية الـتي أجراهـا الخـبراء على فوائدي الكثـيرة(1)، فأنـا أسـاعد على تـرميم الكبـد لإحتـوائي على معــادن مختلفــة.. وأني أدر البــول.. وأشــفي الســعال المــزمن باستعماله كثيفا أو محلولاً بالماء السـاخن، ولـذا يفضـل أسـتعمالي ساخناً للوقاية من الرشحوالسعال وآثار البرد.. وأني أجلب الشـهية باسـتعمالي أثنـاء الطعـام.. وأني أسـهل الهضـم باسـتعمالي بعـد الطعام.. وأني أفضـل شـراب مـرطب للمصـابين بمـرض السـكر لخلوي تماماً من السكر العادي.. وأني منشط عام للجسم ومروق للـدم.. وأني مفيـد في شـفاء الرومـاتيزم لأحتـوائي على عناصـر فعالـة.. وأني مفيـد في شـفاء الرومـاتيزم لاحتـوائي على عناصـر تعـادل الهـدروكورتيزون، وأسـاعد في تقويـة جهـاز المناعـة في الجسم.

قلت: أنت صيدلية أدوية، فكيف غفـل قـومي عنـك.. وهربـوا إلى سموم الكيمياء.

قال: سـلهم.. فهم قومـك.. ولكن هنـاك من بينهم من عـرف فوائدي فراح يلتمسها.

قلت: تقصد الألمان، فقد سمعت أنهم أكثر انفتاحاً من غيرهم في استعمال الأدوية العشبية.

قال: أجل.. وقد قاموا بدراسات موسعة علي.

قلت: فاذكر لي بعض ما اكتشفوا.

قـال: لقـد اعتـبرني الدسـتور الألمـاني ــ مـع بعض الدسـاتير العالمية الأخرى ـ أحـد الأعشـاب الهامـة في علاج أمـراض كثـيرة، ومن أهمها قرحة المعدة(2) والاثنا عشر.

1) المادة الفعالة في السـوس هي الكلتيسريتسـن، وثبت أن عـرق السـوس يحتـوي على مـواد سـكرية وأملاح معدنيـة من أهمهـا البوتاسـيوم، والكالسـيوم، والماغنسـيوم، والفوسفات، ومواد صابونية تسبب الرغوة عند صب عصيره، ويحتوي على زيت طيار.

2) عقار الكاميتداس وهو علاج قوي لقرحة المعدة مسـتخرج من نبـات العرقسـوس، وقـد وجـد أن المـادة الموجـودة في العرقسـوس « صـابونين » هي الـتي تقـوم بـالأثر العلاجي، وتدخل أيضا في الأدوية المعالجة لآلام الحنجرة والكحة وضعف التنفس كما أنها

قلت: فبم فسروا ذلك؟

قال: أنا أحتوي على عدة مركبات مضادة للقرحة، ومن أهمها مركب حمض الجلاسيرازين Glycyrrhizic acid الذي يشبه تأثيره تأثير الكورتيزون، ولكنه لا يسبب التأثيرات الجانبية التي يسببها الكورتيزون، وهو مضاد للالتهابات.

قلت: لقد سبق أن أخطأت في وصفة للقرحة بالبابونج.. فما الوصفة السليمة لاستعمالك يا عرقسوس؟

قال: الجرعة من مسحوقي هي ملعقة صغيرة في ملء كوب ماء سبق غليه، وتقلب جيداً، ثم تغطى مدة ما بين 10 إلى 15دقيقة، ويشرب بمعدل ثلاثة أكواب في اليوم.

ويفضل استخدامي بعد الأكل بساعتين، وأن لا تزيد مدة استعمالي على ستة أسابيع(1).

وعلى المرضى المصابين بارتفاع ضغط الدم، ومرضى السكري، ومرضى القلب، والذين يعانون من أمراض السمنة، والحوامل، عدم استعمالي.

قلت: وتفوتهم جمع ما ذكرت من فوائد.

قال: من رحمة الله أن جعل من كل شيء عوضا.. وليس منه وحده عوض.. فكل من فاتك بطريق.. أدركته من طريق إلا هو.. ألم تسمع قول الحكيم:(ماذا وجد من فقدك)؟

قلت: أراك تفهم حكمه.

قال: وأراني أعيشها.

قلت: وترى ذلك سر ما جعل الله فيك من بركات الشفاء.

قال: إن عبوديتي لله تجعلني أسلم أمري لله.. فلا أنسب لنفسي شيئا.

قلت: وهل ما ذكرت لك فيه هذه النسبة؟

قال: أجل.. وهي نسبة شركية.. فالله هو النافع.. وما نحن إلا أقمار منفعته ووسائطها.

الهندباء:

نادتني أزهار الهندباء(2) الجميلة: هلم إلي.. فقد تفتحت لك

تصلح كمضاد للإمساك.

1) مع ملاحظة أن الاستمرار في استعماله لمدة طويلة أو زيادة الجرعة له تأثيرات سلبية مثل الصداع، ارتفاع ضغط الدم واحتباس السوائل ونقص في البوستاسيوم.

2) الهندباء Taraxacum afficinalis من الفصيلة المركبة، وهي نبات غض يتراوح ارتفاعه ما بين 40 __80 سم، ولها ساق أجوف قليل الأوراق، تكسو الأوراق شعيرات خشنة... وهو حولي أو ثنائي الحول، والقليل منها معمرة تنمو عفوياً في الأراضي الرملية والجافة، كما تزرع الهندباء، ويعرف النوع المزروع بالنوع البستاني، والنوع الآخر بالهندباء

أزهاري(3).
قلت: لست نحلة.. فتضميني.. ولا بعوضا فتؤويني.. فما حاجتي إلى تفتحك أو انغلاقك؟
قالت: تعال لأخبرك عن بركات شفائي.
قلت: لقد رغبني عنك كذب الرواة بسببك على رسول الله ﷺ، فقد رووا في حقك ثلاثة أحاديث مكذوبة، فقالوا:(كلوا الهندباء، ولا تنفضوه، فإنه ليس يوم من الأيام إلا وقطرات من الجنة تقطر عليه)، وقالوا:(من أكل الهندباء، ثم نام عليها لم يحل فيه سم ولا سحر)، وقالوا:(ما من ورقة من ورق الهندباء إلا وعليها قطرة من الجنة)
قالت: وما يضرني أن يكذبوا علي.. ألم يكذبوا على المسيح u، فقالوا هو ابن الله.. فأيهما أعظم جرما: ما كذبوه علي.. أم ما ذكروه عن المسيح u؟
قلت: لا شك في أن قولهم في المسيح u أعظم جرما، وأخطر خطرا.. وكلا الكذبين خطر.
قالت: فهل صرفك ذلك عن حبك للمسيح وتعظيمك له؟
قلت: وكيف أنصرف عن محبة رسول من رسل الله الكرام؟
قالت: فلا تنصرف عن حبي لما قالوا.
قلت: لقد أقمت علي الحجة.. فاذكري لي من بركاتك ما تمسحين به الغشاوة التي وضعها الكذابون.
قالت: أول ما يدلك على بركاتي أن الله هدى البشر لمنافعي منذ القديم، فقد عرفني قدماء المصريين منذ أكثر من خمسة آلاف سنة، حيث كانوا يأكلون أوراقي كخضار.. وظللت منذ أيام الفراعنة، وحتى أوائل القرن السابع عشر الميلادي أستخدم كغذاء وعلاج ممتاز ومعترف به بين الأطباء لعلاج الكبد.
وكان أول من نصح باستخدامي كعلاج الأطباء العرب، ثم تلا ذلك نصيحة أطباء ويلز ببريطانيا في القرن الثالث عشر، حيث نصحوا المواطنين باستخدامي كأحد الأعشاب الجيدة لعلاج كثير من الأمراض.
قلت: أنت مشهورة.. وتاريخك عريق.
قالت: وقد وصفوني للعلل لما رأوه في من بركات الشفاء، فقد قال عني ابن البيطار:(كل أصناف الهندباء إذا طبخت وأكلت

البري.
3) أزهار الهندباء مستديرة برتقالية إلى صفراء اللون، وربما يوجد بعض الأنواع بلون أزرق، وهي تتفتح بطريقة عجيبة حيث تنفتح صباحاً وتنقفل بإحكام مساءً.

عقلت البطن، ونفعت من ضعف المعدة والقلب، والضماد بها ينفع للخفقــان وأورام العين الحــارة، وهي صــالحة للمعــدة والكبــد الملتهبتين، وتسكين الغثيان وهيجان الصفراء، وتقوي المعدة)

وقال عني داود الانطاكي:(الهندباء تذهب الحميــات والعطش والخفقان واليرقان والشلل وضعف الكبد والكلى شـرباً مـع الخـل والعسل، والصواب دقها وعصرها)

قلت: ما شاء الله.. لقد ذكرك الكل، وأثنى عليك الكل.

قالت: وقومك ـ مع تقصـيرهم في حقهم، وتعويضـنا بسـموم المصـانع ــ رأوا من منـافعي مـا دفعهم إلى الثنـاء علي ووصـفي للعلل.

قلت: فاذكري لي ما قالوا.. فإن قومي لا يحبـون أن يسـمعوا غير ما أنتجته مخابرهم.

قــالت: هم يقســمون منــافعي بحســب أجــزائي، فللجــذور منافعها.. وللأوراق منافعها.

قلت: فلنبـدأ بالجـذور(1).. فهي الأصـول.. ولا فـرع من دون أصله.

قالت: لقد نشرت الأبحاث الألمانية أن جذوري لها تأثير ممـيز على الكبد وأنها تنشط المـرارة لإفـراز الصـفراء.. وأني أعتـبر من أفضل الأعشاب على الاطلاق لطرد سموم الكبد(2).. ولهذا أتعامل أساسـاً مـع الكبـد والمـرارة لمسـاعدتهما على إخـراج المخلفـات منهما.

قلت: فجذورك مختصة في التطهير من السموم.

قالت: أجل.. وليس مـع الكبـد فحسـب.. بـل إني أقـوم على تنظيف الكلى واخراج سمومها.. فقد أثبتت الدراسـات أن جـذوري تعتبر علاجاً فعالاً للكلى حيث يخلصها من المواد السامة عن طريق البول(3).

وليس ذلك فقط.. بل إن جذوري وأوراقي من أفضل الأدويــة العشـبية للمـرارة، حيث تعمـل على عـدم تكـون حصـاة المـرارة، وربما تذيب الحصوات المتكونة.

كمـا أثبتت الدراسـات الحديثـة أني أخفض نسـبة السـكر في

---

1) جذر الهندباء غليظ مخروطي يتعمق في التربة وينبعث منه جذامير جانبية عرضية، كما تحوي بعض سيقان الهندباء عصارة لبنية.

2) تعتبر جذور وجذامير الهندباء أحد العقاقير المسجلة في دستور الأدوية الأمـريكي كعلاج لأمراض الكبد.

3) اعتبرت الدساتير العلاجية الألمانيـة جميـع أجـزاء الهنـدباء صـالحة لعلاج أمـراض الكلى ولأفضل المواد ادراراً للبول.

الدم، وذلك في حيوانات التجارب، ويمكن أن يلعب ذلك دوراً كبيراً في علاج سكر الدم لدى الإنسان بعد الانتهاء من دراسته.

كما أثبتت الدراسات أنه يمكن استخدام جذوري لتخفيف آلام النقرس.. وقد نجح الصينيون في أبحاثهم في علاج أمراض الشعب الهوائية والجهاز التنفسي بواسطة استعمال جذوري.

قلت: مـا شـاء اللـه.. بـورك فيـك وفي جـذورك.. فكيـف أستعملها؟

قالت: ذلك شيء يسير.. فليس عليك سوى أن تنقـع حـوالي ثلاث ملاعق من جـذوري بعـد سـحقها مـع حـوالي لـتر من المـاء، وتـترك لمـدة حـوالي خمس دقـائق، ثم تغلى بعـد ذلـك لمـدة 15 دقيقـة، وتشـرب منـه كأسـا قبـل كـل وجبـة، وذلـك لعلاج الكبـد والمرارة، حيث تمنع تكون حصى في المرارة، وتفتتهـا إن وجـدت، كما أن هذه الوصفة جيدة لتخفيض الوزن(1).

ويستعمل مغلي أوراقي وأزهاري وجذوري معـاً بمقـدار ثلاث ملاعق في لتر من الماء بمقدار كـوب صـباحاً وآخـر مسـاء، وذلـك لعلاج حالات الانيميا والضعف العام وفقد الشهية.

ويسـتعمل مغلي جـذوري على هيئـة كمـادات دافئـة لعلاج التهابات العين.

قلت: فحدثيني عن أسرار الشفاء في أوراقك.

قالت: لقد وصفتها الدراسات العلمية كأفضل وسـائل إخـراج السوائل الزائدة من الجسم(2)..

ويستعمل مغلي أوراقي لعلاج سوء الهضـم ولنقص الشـهية، حيث يؤخذ ملعقة إلى ملعقتين صـغيرتين بعـد سـحقها أو تقطيعهـا وإضافتها إلى كوب ماء مغلي، ثم يصفى المـاء بعـد 15دقيقـة من وضع أوراق الهندباء في الكوب ويشرب دافئاً.

ويمكن عمـل منقـوع من الأوراق المسـحوقة حيث تضـاف ملعقة صـغيرة من مسـحوق الأوراق إلى كـوب مـاء بـارد، ويـترك لمدة نصف ساعة، ثم يصفى ويشرب.

ولعلاج الامساك ينقع حوالي ثلاث ملاعق من أزهار النبات في حوالي لتر من الماء البارد، ويشرب منها كأس قبل كل وجبة.

كما يستعمل منقوع أوراقي وأزهـاري الطازجـة في علاج آلام

---

1) كان الهولنديون أول من فكر في استعمال جذور الهندباء اليابسة ومزجهـا بـالبن، وصنع قهوة الهندباء منها وجعلها مشروباً مقوياً للأمعاء.

2) وهناك دراسات علمية أجريت على أوراق الهندباء حيث نشـر بحث قيم في مجلـة النباتات الطبية العالمية توصي باستخدام أوراق الهندباء كأفضل مادة لإدرار البول.

الأطراف بواسطة التدليك.

قلت: عرفت منافعك.. فهل لك من مضار؟

قالت: المضار ليس في ذاتي، وإنما في سوء استخدامي.. وهي ـ مع ذلك ـ لا تتعدى حدوث ارتفاع في نسبة الحموضة في المعدة عند قليل من الناس، وفي حالات نادرة جداً، وربما يظهر طفح جلدي لدى بعض الأفراد الذين عندهم تحسس لكثير من المواد.

كما أن الأحسن عدم الاستمرار في تعاطي مستحضراتي لأكثر من شهر ونصف، ثم التوقف لمدة شهر، ثم معاودة الاستعمال.

قلت: هذه المحاذير.. فمن تنصحين بالابتعاد عنك؟

قالت: لقد حذر قومك من استخدامي للذين يعانون من سدد في القناة الصفراوية بالمرارة أو التهابات في المرارة.. كما حذروا من استخدام مستحضراتي للمرأة الحامل أو المرأة التي تخطط للحمل في المستقبل القريب ومثلهما المرضع.. مع عدم اعطاء هذه المستحضرات إطلاقاً للأطفال قبل سن الثانية.

المريمية:

لم أستفق من الدهشة التي ملأتني بها بركات الهندباء حتى نادتني المريمية(1) برائحتها العطرة، وشكلها الجميل، فأجبتها: من تقصدين؟

قالت: وهل هناك في الحقل غيرك؟

قلت: لقد امتلأت ببركات الهندباء.

قالت: فتعال لتشملك بركاتي.. وتغمرك منافعي.. فالله تعالى الجواد الكريم وزع جوده في خلقه.. فلا ترى من شيء إلا يدل عليه.

قلت: أراك من العارفين.

قالت: وما لي لا أكون كذلك.. وقد تشرفت من بين أخواتي بحمل اسم الطاهرة العذراء البتول مريم ـ عليها السلام ــ فإن لم يكن لي غير اسمها لكفاني فخرا وتيها.

---

1) المربمية sage هي نبات عشبي معمر صغير، ويعرف علميا باسم salvia officinalis من الفصيلة الشفوية، التي تضم الريحان والنعناع والحبق والزعتر.

وهي من أشهر وأقدم النباتات التي تستخدم في الطب القديم والحديث، وتشتهر بها بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط.

وهي تحتوي على زيوت طيارة وفلافونيدات وأحماض فينولية ومواد عفصية، والمادة الفعالة تعود إلى مركبات الزيت الطيار.

قلت: نعم.. وقد كان من أسباب إعجابي بك وحبي لك حملك هـذا الاسـم.. فاللـه يعلم كم يكن قلـبي لتلـك المـرأة الـتي بـزت الرجـال وزاحمت الأبطـال، وصـارت مثلا أعلى للأوليـاء، وأسـوة حسنة للأصفياء.

قـالت: فنحن مشـتركان في حبهـا، أخـوان في الرضـاعة من لبان فضلها.

قلت: فقد عقدت بيننا عقد الأخوة.. فأسسيه على المعرفـة.. فلا أخوة بلا معرفة، وقد قال ﷺ:(إذا آخى الرجل الرجـل، فليسـأله عن اسمه واسم أبيه وممن هو، فإنه أوصل للمودة)(1)

قالت: صدق رسول الله ﷺ.. وسـأحدثك عن نفسـي لتعـرف فضل من آخيتـه.. وأول مـا أبـدأك بـه مـا جعلـه اللـه في من حب للطهارة، وبغض لغيرها.. فلذلك تراني لا أجد عفونة في الجسم إلا أوقفتها.

ألا ترى أن مستخلصي يسهم ــ إلى حـد كبـير ــ في معالجـة أمراض اللثة واللوزتين والحلق وعسر الهضم والسكري.

قلت: ما شاء الله.. أكل هذه من بركات الاستشفاء بك؟

قـالت: أجـل.. بـل أكـد بـاحث علمي(2) أهميـتي في معالجـة بعض الأمراض المستعصية، وفي مقدمتها مرض السـرطان.. فقـد أجـريت تجـارب عمليـة وعلميـة على مستخلصـي، فـأعطت نتـائج جيدة في وقف انتشار خلايـا مـرض السـرطان الـتي تصـيب بعض أجزاء الجسم، وخاصة القولون والرئة والثدي.

قلت: إن هذا يشجع على العـودة إليكم ــ معشـر الأعشـاب ـ للبحث عن أدوية العلل المستعصية.

قالت: لقد ذكر العالم جيرارد في القرن السـابع عشـر بـأنني أقوي الذاكرة الضعيفة، وأعيدها في وقت قصـير، وقـد أكـد بـاحث إنجلــيزي هــذه المقولــة، حيث أثبت أن المرميــة تهبــط الانــزيم المسئول عن تحطيم استيايل كولين الدماغ والذي يسبب الزهيمر.

قلت: رأيت بعض قـومي يسـتخدمك كمخفض للسـكر، فهـل ذلك صحيح؟

قالت: لا شك في ذلـك.. فأنـا أخفض البـول السـكري، ولكن بنسبة بسيطة.. وأدلك على ما هو أحسن مني في هذا؟

قلت: وما هو؟

---

1) ابن سعد، والبخاري في التاريخ والترمذي.

2) هو الدكتور أحمد كمالي أستاذ علم العقاقير والنباتات الطبيعية في جامعـة العلـوم والتكنولوجيا الأردنية.

قالت: ما مررت عليه في أدوية السماء من الحلبة البلدي، وعروق البصل.

قلت: لقد أنصفت في ذكر غيرك.. فقلما نجد هذا فينا معشر البشر.

قالت: لا تجد عندنا إلا الإنصاف.. فمن تحقق بعبودية الله لا يكون إلا منصفا.

قلت: فواصلي في ذكر بركات الاستشفاء بك.

قالت: لقد ذكروا أني مادة مقبضة ومطهرة ومعطرة وطاردة للغازات ومخفضة للعرق ومقوية.. وأني أصلح علاجا ضد الالتهابات، وضد تقلصات العضلات.. وأني مضادة لعدة أنواع من البكتيريا.. كما أستخدم مقوية للأعصاب.

قلت: فكيف أستعملك؟

قالت: أنا أؤخذ بجرعة تقدر بملء ملعقة الأكل من أوراقي تضاف إلى ملء كوب ماء سبق غليه، ويترك لمدة ربع ساعة، ثم يصفى ويشرب.. ويمكن تناول ثلاثة أكواب في اليوم الواحد.

قلت: فهل لاستعمالك من محاذير؟

قالت: ليس هناك أي أضرار في تناولي إذا استخدمت حسب الجرعات المحددة.. مع عدم استخدامي بصفة مستمرة(1).

وأنبهك إلى أن من أهم مركباتي الزيت الطيار(2) الذي يحتوي على مركب الثيوجون (Thujone).. فيجب الحذر من استخدام كمية كبيرة من هذا المركب، فهو يسبب بعض التشنجات.

كما أنبه المرضعات إلى أن الابحاث الجديدة تشير إلى أني أقلل حليب المرضع، لأني مولدة للاستروجين الخافض لإنتاج الحليب.. فانصحهن بتجنبي فترة الرضاعة.

الشوفان:

نادتني بذرة شوفان(3)، فقلت لها: لقد سمعت بأهميتك في

---

1) المريمية لا تسبب فشلاً كلوياً كما يشاع.

2) المرمية من النباتات التي تحتوي على الزيوت الطيارة، واهم مركباتها ثوجون والذي يمثل 50% من محتويات الزيت الطيار. كما تحتوي على تربينات ثنائية مرة وفلافو نيدات واحماض فينولية ومواد عفصية.

3) الشوفان Avena Sativa من الفصيلة النجيلية GRAMINEAE: هو نبات عشبي حولي يشبه الحنطة والشعير في الشكل، وهو ينبت عادة بينهما، وبذوره متوسطة بين حب الحنطة والشعير، والجزء المستخدم منه هو البذور والسيقان الجافة.

ولم يرد اسم الشوفان في المعاجم العربية القديمة، ولا في المفردات، وقد عرف في الماضي بأسماء مختلفة مثل هُرطُمان، وهي كلمة فارسية وخافور وقرطمان، والنوع الذي يزرع يسمى خرطان زراعي أو خرطان معرف... أما كلمة شوفان فهي جديدة حيث أطلقت في القرن الماضي فقط.

مطعم العناصر والمركبات.

قالت: لقد رأيت فائدة واحدة من فوائدي.. وهي كثـيرة تكتب بماء الذهب.

قلت: فحـدثيني عنهـا.. فيشـهد اللـه أني أحببتـك مـذ عـرفت تأثيرك في حماية القلب والأوعية الدموية.

قالت: أحبك الـذي أحببتـني لـه.. كمـا تعلم.. فـإن قومـك من العرب لم يكونوا على معرفة بي.. ولا يضـيرني ذلـك.. فقـد أخـرج الله من ينتبه لفوائدي وبركات الشفاء بي.

قلت: فما قال فيك إخواننا من العجم؟

قـالت: لقـد أولـوني كـل احـترامهم، فقـد ذكـرت في الطب الإنجليزي، حيث ذكر العالم Nicholas Gulpeper عام 1652م لبخة تحضر من عجينة بذور الشـوفان مـع الـزيت، وذكـر أنهـا تفيـد في علاج الحكة ومرض الجذام.

وقبله ـ في عام 1597م ـ ذكر العـالم John Genand لبخـات من سيقان وأوراق الشوفان ووصف أنها جيدة للأمـراض الجلديـة، وربما للروماتزم.

ولهـذا كـان إخـوانكم من بـني أوروبـا يسـتخدمون سـيقاني وأوراقي في حماماتهم كعلاج للروماتزم، ولمشاكل المثانة والكلى.

بالإضـافة إلى اسـتعمالي كعلاج لأمـراض الصـدر، وبـالأخص أمـراض الرئـة والسـعال المـزمن.. كمـا كنت أسـتعمل كلصـقات مفيدة لمرض النقرس والبثور.

قلت: هذا ما قال فيك سلفهم، فما قال خلفهم؟

قالت: لقد أثبتت الدراسـات العلميـة تـأثير بـذوري وسـيقاني وأوراقي على بعض الأمـراض، وأثبتت جـدواها كعلاج.. بـل قـامت مصانع كبيرة لصناعة مستحضرات متعددة مني ومن مشتقاتي.

قلت: ما كل هذا الاهتمام بك؟

قـــالت: لقـــد أدركـــوا دوري في شـــفاء كثـــير من العلـــل المستعصية.. فقد قامت دراسة إكلينيكية أثبتت أن الألياف النباتيـة الذائبة مثل الموجـودة في الشـوفان بمعـدل 40جرامـاً في اليـوم

ومن محتوياته: قلويدات، وسيترولز، وفلافونيدات، وحمض السليسيك ونشا، وبـروتين، والـذي يشـمل الجلـوتين، وفيتامينـات، وبـالأخص مجموعـة فيتـامين ب، ومعـادن مثـل البوتاسيوم والكالسيوم والمغنيسيوم والفوسفور والحديد والصوديم وهيدرات الكربـون... ما يحتوي على دهن وهرمون قريب من الجريبين (الهرمـون المبيضـي) وعلى الكـاروتين بالاضافة الى فيتامين ب ب (PP) وفيتامين د... وتتفاوت المحتويـات الكيميائيـة بين أنـواع الشوفان العادي والـتركي والأحمـر والقصـير والنبـوي لكن المـواد الأساسـية والجوهريـة توجد في جميع الأنواع.

خفضت كوليسترول الدم خلال أسبوعين إلى ثلاثة أسابيع.

كما نشرت دراسات في مجلات علمية محترمة أوضحت أن 3جرام من الألياف الذائبة اذا أخذت يومياً خفضت الكولسترول بنسبة 5 بالمائة(1).

وفي دراسة أخرى أثبتوا أني أخفض مستوى حمض اليوريك في الدم.. ففي دراسة عملت على رياضي في أستراليا، والذي وضع على غذاء مخصص من الشوفان فقط، ولمدة 3 أسابيع وجد أن زيادة 4 بالمائة من أسدية نبات الشوفان إلى الغذاء المخصص من الشوفان للرياضي أثرت كثيراً في وظائف عضلات الرياضي خلال التمارين الرياضية.

قلت: فدورك التخفيض إذن.

قالت: أجل.. أنا أخفض كل من ارتفع ليأكلني كما تأكلني الأنعام.

قلت: أحقدا.. وأنت في أرض السلام!؟

قالت: لا.. بل رحمة.. لقد أكل بعض المترفين من قساة القلوب بعض إخواني.. فانخفض كوليسترول دمه.. وانخفض معه من الكبر ما كا يعانيه.. فراح يرحم عباد الله.

قلت: فأنت داعية الله إذن.

قالت: الواعي يسمع من كل شيء.. ويفهم عن كل شيء.

قلت: فزيديني من بركات شفائك.. فلا أحسبك إلا حكيمة.

قال: لقد جعل الله في من القوى ما أسكّن به نوبات حصاة المجاري البولية واضطرابات البول وألين وأسكن آلام البواسير.. وينصح الأطباء مرضى الأعصاب والمفكرين والمرهقين ومرضى السكر ومرضى الغدة الدرقية بتناولي لما يجدون من بركاتي على عافيتهم.

قلت: سمعت أن بعض قومي يستعملك لمقاومة الإجهاد.

قالت: هناك من يستعمل مشتقاتي لذلك.. ولا يزال ذلك غير مثبت علمياً إلا أن لي إيجابيات جيدة مثل استخدامي كمضاد للإجهاد والأرق ومهدئ وجالب للنوم ومقو للأعصاب ومنشط.. كما استخدمني الهنود لعلاج إدمان مشتقات الأفيون والتبغ.

الزيزفون:

---

1) وفي عام 1997 سمحت منظمة الأغذية والأدوية الأمريكية (FDA) للشركات المصنعة للشوفان لإضافة هذا الادعاء على منتجاتهم الغذائية من الشوفان.

رأيت شـجرة زيزفـون(2) جميلـة، فـاقتربت منهـا، وحييتهـا، فردت التحية بأحسن منها، فقلت لها: أتأذنين لي أن أرتـاح بقربـك قليلا.. فقد أعياني الوقوف.

قالت: ألا تـرى أوراقي قلوبـا متفتحـة لكـل نـاظر.. وأزهـاري مونعة معطرة لكل حاضر؟

قلت: لا أراك إلا محلا للأضياف.. فهل أنت حـاتم، أو من جـذر حاتم؟

قالت: ما حاتمكم الذي تفخرون به إلا بخيل من بخلائنا..

قلت: اعرفي ما تقولين.. فلا تكوني من أهل الإجحاف وكوني من أهل الإنصاف.. إنه حاتم أبو الكرم.

قالت: لقد أنفق حاتم من ماله.. ولم ينفـق من جسـده.. أمـا نحن فننفق من أجسادنا.. وحاتم أطعم مـا قـد يـؤذي، ويضـر، أمـا نحن فلا نطعم إلا البركات المضمخة بعطـر الشـفاء.. وحـاتم مـات وانقضى، ونحن لا يزال عطاؤنا ممتدا لا ينقضي.

قلت: لقد حججتني.. ولو كان حاتم معنا لاسـتحيا من كرمـه.. ولتبرأ مما ينسبه الناس إليه.

قالت: لكنا مـع ذلـك نكـرم حاتمـا وأحفـاد حـاتم.. لا لكرمـه.. ولكن لنغيظ بذلك مادرا وأحفاده من البخلاء.

قلت: لقد زعمت لنفسك كرما.. فحدثينا عنه.

قـالت: من زعم لنفسـه الكـرم.. فهـو البخيـل.. ألا تعلم أن الكريم واحد!؟

قلت: من هو؟

قالت: الواحد.. لأنه يتكرم مما يملك.. أما نحن، فلا نملك شيئا حتى نتكرم به.. حقق التوحيد.. ولا تلتفت للعبيد.

قلت: لقد جعلكم الله وسائط لكرمه.. فحدثينا عمـا بث فيكم من البركات.

قالت: أما إن قلت هذا.. فلا بأس.. وسأذكر لك من فضل الله ما يرغبك في وفي اخواتي من بنات الحقول.

قلت: ما علمتكن إلا كريمات.. فحدثيني.

قـالت: لقـد ذكـر داود الإنطـاكي أني أفتح السـدد، وأذهب

---

2) هي شجرة معمرة من فصـيلة الزيزفونـات، وسـاقها خشـبية، ذات قشـرة ملسـاء كثيرة الأغصان، ولهذه الشجرة أنواع عديـدة لا فـرق بينهـا من الناحيـة الطبيـة، وأوراقهـا كبيرة على شكل قلب مائل، وهي مسننة وبعضها رمحية شبيهة بـأوراق الزيتـون، ولونهـا فضي وهذا الصنف شائع في البلاد العربية، وأما أزهارهـا فهي عنقوديـة بيضـاء أو شـقراء لها رائحة عطرية طيبة.

ومن عناصره الفعالة: تانين والسكر والصمغ والفانيلين.

أمراض الصدر كالربو وقرحة الرئة، وأمراض الكبد كالاستسقاء واليرقان والفالج واللقوة والكزاز والنافض والضربان البارد.

وقال عني ابن سينا:(يحبس كل سيلان.. ويقمع الصفراء المنصبة داخل الأحشاء، وينفع من السعال الحار، ويحبس القيء، ويخفض السكر)

وقد استعمل أوراقي لصقة لإزالة الورم وتسكين الألم، كما استخدمها كشراب مغلي لمعالجة الدوالي.

قلت: لقد عرفك العرب إذن، بخلاف الشوفان الذي جهلوه.

قالت: لقد عرفني الناس من زمان قديم، فقد كنت وما زلت بجميع أقسامي، أتمتع بصفات طبية ومتنوعة، فقد عرفني المؤرخ الروماني بلين في القرن الأول بعد الميلاد حيث استعمل أوراقي لمعالجة تقرحات كان يشكو منها في فمه.

قلت: والمحدثون.. قومي المحدثون.. فإني أحن لما عرفوا.

قالت: لقد عرفت كمهدئ ومسكن لآلام المعدة منذ عصر النهضة، وقد بدأت أزهاري تأخذ مكانها في الصيدليات، وأصبحت أستخدم كمنشطة للقلب، ومضادة للصرع، ولجميع أنواع إصابات التشنج.

وفي أيامكم هذه أستعمل كمسكن للآلام المعدية والتشنجات، وأوصف للذين يعانون من الأرق والقلق وتوتر الأعصاب.

قلت: لقد سمعت بأنه يستخرج من أخشابك عقاقير الشفاء.

قالت: أجل.. فكلي منافع بحمد الله.. وقد دلت التجارب التي أجريت على بعض الحيوانات أن الخشب الأبيض(1) لشجيرتي له ثلاثة تأثيرات أساسية: عرقية، وتشنجية، وصفراوية.. فالتأثير العرقي يوسع العروق والشرايين ويخفض الضغط.. والتأثير التشنجي يتبدى بالمستقيم والأمعاء.. والتأثير الصفراوي، وهو الأهم والأعم، ويشمل المرارة والقناة الصفراوية.

قلت: فأنت مفيدة للكبد إذن؟

قالت: أجل.. فخشبي الأبيض أفضل منظم لعمل الأقنية الصفراوية وتهدئة الاضطرابات الكبدية والصداع الحاد، فهو يشفي 75 إلى 90 بالمائة من الإصابات.

قلت: فكيف يستعمل هذا الخشب النافع؟

---

1) اللحاء أو الخشب الأبيض: هو طبقة في الشجيرة، تتوسط القشرة والخشب، لونها أبيض، وتدعى اصطلاحا باللحاء أو الخشب الأبيض الكاذب، وهي تحتوي على مادتين رئيستين:سكرية وعفصية قابضة، بالإضافة إلى الفيتامينات: ب1، ب2، ج.

قالت: يستعمل كشراب مغلي، إلا أن استعمال أبخرته أفضل وأسرع تأثيرا، ولا يمكن الحصول على هذه الأبخـرة إلا عن طريـق تحضيرها في المختبرات، وتوجد في الأسواق على شكل حبوب.

قلت: فلا يمكن الاسـتفادة منـك إذن إلا بعـد المـرور على المصانع والمختبرات.

قالت: لا.. يمكنكم صنع شراب من قشر خشـبي.. وهـو نـافع بـإذن اللـه لغسـل الكليـتين، كمـا يسـتعمل في تهدئـة الأعصـاب.. اشربه ولا تخف.. فليس هناك أي محذور في تنـاول أيـة كميـة من هذا الشراب.

قلت: عرفت فضـل خشـبك.. فمـا فضـل أزهـارك العنقوديـة الطيبة؟

قالت: يستخرج من أزهاري مرهم يستعمل في تطرية الجلـد وتنقيته من النمش.

قلت: أهذا ما صل إليه كـرم أزهـارك المسـكينة.. إنهـا أبخـل أجزائك.

قالت: استغفر ربك.. ولا تقل هـذا.. فـالكريم هـو الـذي يقبـل كل مـا يـوهب لـه.. ولا تنظـر إلى صـغر النعمـة، وانظـر إلى عظم مهديها.

قلت: صدقت.. واعذريني أيتها الأزهار الجميلة.

نطقت زهـرة منهن، وقـالت: أمـا إن قلت هـذا.. فقـد أكـد بـاحثون بريطـانيون أن زهـور شـجرة الزيزفـون يمكن اسـتخدامها كشراب مفيد للهضم والسعال كما تفيد أيضا في علاج الدوالي.

ويستعمل مغلاي عن طريـق الاسـتحمام والغسـول والمسـح والتكميد والحقن الشرجية.

قلت: أسمع عن شاي الزيزفون.. فحدثيني عنه.

قالت: هو يستعمل لتهدئة الأعصاب، والمساعدة على النــوم، وتســكين الآلام والأرق والصــداع النصــفي، ولمعالجــة تصــلب الشرايين، وتنشيط الدورة الدموية، والاحتقانات، والنزلات الشعبية والربو، كما يسكن السعال، ويسهل التقشـع، ويثـير إفـراز العـرق، فتنخفض درجـة حـرارة الجسـم، ويسـهل التنفس، ويزيـل صـداع الزكام واحتقانه..

قلت: نفعك عظيم.. وبركاتك كثيرة.

قالت: حتى فحم أخشابي يمكن الاستشـفاء بـه.. فمسـحوقه يعالج الجروح والقروح النتنة في الجلد.. حيث يذر المسحوق فوقها

مـرة أو أكـثر في اليـوم حسـب الحاجـة، فيمتص العفونـة ويزيـل الرائحة.

قلت: والغسـول بـك.. فيم ينفـع.. فقـد سـمعت عن بعض تأثيره!؟

قالت: صحيح ما سمعت، فإن له تأثيره على الجلـد، وتنشـيط البشرة، وإزالة الإفرازات الزائدة منها، كما يعمل على تليين الجلد، وإعطاء الجسم نعومة وطراوة ورائحة عطرة، وهـو يفيـد في علاج ضربات الشمس والحمى الشديدة.

العوسج:

سـرت خطـوات قليلـة بعيـدا عن الزيزفـون.. فـإذا بي أفاجـأ بشـجيرة عوسج[1].. فقلت: سـبحان اللـه الـذي يجمـع بين المتناقضات.. تلـك كـانت تـرحب بي بأزهارهـا وقلوبهـا المتفتحـة.. وهذه بجانبها تنذرني وتخيفني بأشواكها السامة.

فنطقت بصـوت لا يقـل عن أذى أشـواكها، وقـالت: ولكنـا لا نتصارع كما نتصارعون.. ولا يؤذي بعضنا بعضـا كمـا يفعـل بعضـكم مع بعض.

قلت: ولكن.. حسب الزيزفون ألما أن تقفي بجانبي.

قالت: لا تقل هذا.. فلو خطر على باله هذا لحوله الله شـجرة الزقوم التي يطعمها الله في القيامة لأهل النار.

قلت: ألا يسخر منك.. وأنت تقفين بجانبه بأشواكك السامة؟

قـالت: هـو لا يسـخر مـني ولا يخـاف.. بـل نحن لا ننظـر إلى بعضنا كما ينظر بعضكم إلى بعض، وقد قال تعالى فيكم: ﴿ يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَـوْمٍ عَسَـى أَنْ يَكُونُـوا خَيْـراً مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَـاءٍ عَسَـى أَنْ يَكُنَّ خَيْـراً مِنْهُنَّ ﴾(الحجـرات:11).. ولم ينزل الله فينا ما أنزل فيكم.

قلت: ذلك أنكم لستم مكلفين.

قال: كيـف تقـول ذلـك.. وقـد قـال تعـالى: ﴿ ثُمَّ اسْـتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَـا طَوْعـاً أَوْ كَرْهـاً قَالَتَـا أَتَيْنَـا طَائِعِينَ ﴾(فصلت:11)

قلت: قد قال ذلك عن السماء والأرض.

قالت: وهل الأرض إلا مكوناتها؟

---

1) يعرف العوسج بعدة أسماء منها: قصر، عوسجة، وعنب الديب، كما يعـرف علميـاً باسم Lycium shawi، وهو عبارة عن شجيرة شـوكية معمـرة يصـل ارتفاعهـا إلى حـوالي مترين.. له سيقان خشبية متفرعة والفروع متعرجة ومتداخلة.. الأوراق صـغيرة وبسـيطة ذات لون أخضر يميل إلى الصفرة.

قلت: سلمت لك كما سلمت لأخواتك حسن الخلـق.. ولكـني لا أبحث عن الأخلاق.. بل أبحث عن الترياق.

قالت: فلا تصـرفك أشـواكي السـامة عمـا أودع اللـه في من منافع؟

قلت: أفيك من المنافع ما يرغب فيك؟

قـالت: لـولا منـافعي مـا وضـعني أهـل السـلام في صـيدلية الشفاء.

قلت: صدقت.. نسيت أني في الصيدلية التي انتقيت أعشابها واختيرت.. فحدثيني عما وضع الله فيك من بركات الشفاء.

قـالت: أنـا من النباتـات المشـهورة منـذ آلاف السـنين، وقـد وصـفني الأغارقـة القـدماء في مـداواة القشـرة الـتي تكـون على الجفنين ولعلاج اللثة الملوثة.. والتشـققات الـتي تصـيب الشـفتين، ولعلاج الدسنتاريا والسعال.

وقد وصفني داود الانطاكي، فقال:(يبرئ سائر أمــراض العين خصوصاً البياض وإن قدم، كيف استعمل، وقد يمزج ببياض الـبيض، أو بلبن النساء.. وطبيخ جذره يوقف الجذام أو يبرئه، وهو مجرب.. وإن تمودي عليه قطـع القـروح السـائلة والجـرب، والحكـة والآثـار حـتى الحنـاء إذا عجنت بمائـه واختضـب بهـا.. وهـو ينبت الشـعر.. وثمره كذلك في كل ما ذكر.. ورماده يزيل القروح)

قلت: هذه منافع عظيمة.. فاذكري لي ما قال المحدثون.

قـالت: لقـد ذكـروا أن جـذوري تفتت الحصـى المتولـدة في الكلى.. وأني أفيد في علاج المغص ومـدرة للبـول وملينـة للبطن.. وفي شمال عمان تطحن ثماري ونباتاتي اللينة، وتصنع منها خلاصة تستخدم في تخفيف المغص ولتحسين حدة البصر.

كمـا تؤكـل ثمـاري لتسـكن الآلام وتعـالج الاضـطرابات الـتي تصيب المعدة.

وتقول الدراسـات الحديثـة أن جـذوري تخفض ضـغط الـدم.. كما ذكرت الأبحاث العينية الحديثة أن لجذوري تـأثير ملحـوظ على تخفيض الحمى، وقد عملت دراسة اكلينيكية، وأعطت نتائج متميزة في تخفيض الحمى وبالأخص في الملاريا.. كما تقول دراسة أخرى أن الثمار العينية للعوسج تقوي الكبد والكلى.

قلت: أراك جمة المنافع.

قالت: هذه بعض منافعي.. ولا زالت الأبحاث تجــري علي في حقل التجارب.. وقد ذكر لي أن نتائج سـتظهر هـذا المسـاء.. فـإن

مررت علي.. فسأذكرها لك.

ناردين:

ما سرت خطوتين حتى سمعت شجرة ناردين(1)تناديني بصوت هادئ كهدوء النسيم، فقلت: لبيك.. فمن أنت؟.. فإن صوتك جلب النعاس إلي عيني.. والفتور إلى عضلاتي.

قالت: أنا الناردين جعلني الله دواء نافعا، وترياقا شافيا.

قلت: أعلم ذلك.. ولولا ذلك ما كنت في هذ المحل.

قالت: إذا علمت ذلك فاعلم بأني استخدمت كمهدئ ومرخ للأعصاب منذ عصر الرومان.. وقد اعتبرت في القرون الوسطى ترياقاً، وعندما لم تكن الكينا متوفرة آنذاك كنت أستعمل بدلاً عنها في مكافحة الحمي.. كما أكد بعض المصابين بداء الصرع أنهم شفوا بواسطتي.

وأنا إلى يومكم هذا أعتبر من أفضل أنواع المهدئات المستعملة ضد الاضطرابات العصبية.

قلت: أرى أن قومي من العرب لم يعرفوك.

قالت: لا.. لقد عرفوني.. واستعملوني، وقد قال في داود الأنطاكي:(إنه مقو للمعدة، ومفتت للحصى، ومدر للفضلات، ومسقط للبواسير، كما انه إذا طلي على الجسم قطع العرق، وطيب رائحة البدن. وإذا اكتحل به أزال حمرة العين، وأنبت الشعر في الأجفان، وأحد البصر، وإذا خلط مع العفص واكتحل به قطع الدمعة، وإذا ذر على الجروح أدملها.

وقال ابن سينا في قانونه:(الناردين محلل للأورام، ومجفف للرطوبة السائلة من القروح، ينفع من الخفقان، وينقي الصدر والرئة، مقو للمعدة، يدر الطمث، ويفيد أورام الرحم إذا جلست المرأة في طبيخه، وله خاصية في حبس النزف المفرط من الرحم)

وقال ابن البيطار في جامعه:(إن الناردين ينفع الكبد وفم المعدة، ويدر البول، ويشفي الحرقان الحادث في المعدة، وإذا

---

1) الناردين الطبي هو المعروف بحشيشة القطة، ويعرف علمياً باسم Valeriana officinalis، وهو عبارة عن نبات معمر يتراوح ارتفاعه ما بين 80- 150سم، له ساق مستقيمة قوية جوفاء ومضلع اغصانه قليلة، وله أوراق متقابلة مركبة ريشية الشكل تضم كل ورقة ما بين 5- 11وريقة عريضة أو ما بين 11- 33وريقة ضيقة وهي مسننة الحواف، الأزهار تجتمع في قمم الأغصان على هيئة باقات بلون أبيض إلى زهري. الثمرة تاجية لها صرة ريشية. جذور النبات قصيرة له فسلات تحت الأرض ورائحته كريهة وقوية... والموطن الأصلي له أوروبا وشمال آسيا وينمو في البراري في ظروف رطبة ويزرع في وسط أوروبا وشرقيها.

عملت منه تحميلة واحتملته النساء قطع النزف، ويجف الرطوبة السائلة من القروح، وإذا شرب بماء بارد سكن الغثيان، ونفع من الخفقان، وإذا طبخ بالماء وتكمد به النساء، وهن جلوس في مائه أبرأهن من الأورام الحارة العارضة للأرحام)

قلت: فما قال فيك قومي من المحدثين؟

قالت: لقد أكدت الأبحاث الواسعة في ألمانيا وسويسرا أنني أحث على النوم، وأحسن نوعيته، وأخفض ضغط الدم.

قلت: فما عرفوا من سر هذا التأثير؟

قالت: لقد ذكروا أن المواد الفعالة التي يعود لها هذا التأثير هي الفاليبوترياتات.. كما أن هناك مواد أخرى مسؤولة عن مفعولي لم يتم التعرف عليها بعد.. ويقوم عملي على تخفيض النشاط العصبي على إطالة مفعول ناقل عصبي مثبط.

قلت: فأنت ترياق إذن لما يعتري البدن من أعراض عصبية؟

قالت: أجل.. فقد أثبتت الدراسات تأثيري على القلق والأرق.. بل أعتبر من أفضل العلاجات للأرق الذي كان سببه القلق أو فرط الإثارة.. فأنا أرخي العضلات المفرطة التقلص، ومفيدة لتوتر الكتف والعنق والربو والمغص وألم الحيض وتشنج العضلات.. كما أني مع بعض الأعشاب الأخرى أستعمل كعلاج لفرط ضغط الدم الناتج عن الكرب والقلق.. كما أني ضد الأرق الناتج عن ألم الظهر، ومثله التوتر السابق للحيض بالإضافة إلى القلق المزمن.

قلت: إن الأرق يزور عيني أحيانا، فيمنعها من الاكتحال بإثمد النوم، فكيف أستعملك؟

قالت: لقد أثبتت التجارب العملية أن جزموري يزيد من زمن النوم، ولهذا أعتبر من المنومات التي يمكن استخدامها بأمان.. فأنا علاج لاضطرابات النوم الذي يصاحبه اضطرابات عصبية.

قلت: ذكرت الكثير من المنافع، فحدثينا عن المضار التي قد يقع مستعملك فيها.

قالت: أنا من الأدوية الآمنة إذا استخدمت بالكميات المنصوح بها[1].. ومع ذلك فقد أثبتت هيئة الدواء والغذاء الأمريكية أنه يصح

1) الجرعة المعروفة للناردين هي أخذ كوب شاي مرة إلى أربع مرات في اليوم ويحضر شاي الناردين بأخذ 2- 3جرامات من الجذومور المسحوق ووضعها على 150ملي من الماء المغلي ويترك ما بين 5- 10دقائق ثم يصفى ويشرب. والجرعة القصوى للناردين هي 15جراماً في اليوم الواحد.

أما فيما يتعلق بالحمام المائي لغسل الجسم بالناردين فيخلط 100جرام من مسحوق الجذمور مع 2لتر ماء مغلي ثم يضاف هذا المزيج إلى حوض المغطس المملوء ويجلس

استعمالي غذاء.
أما من الناحية الدوائية فقد أثبتت التجارب التي أجـريت على 12000 مريض استخدموني لمدة 14يوماً عدم ظهور أو وجود أي أعراض جانبية.
قلت: والاستعمال الطويل؟
قـالت: لقـد أثبتت الدراسـات أن بعض مسـتعملي يصـيبهم شـــيء مشـــابه للإدمـــان أي أنهم لا يســـتطيعون التوقـــف عن استعمالي.
قلت: فهل تتعارضـين مـع الأعشـاب الأخـرى الـتي لهـا نفس تأثيرك؟
قالت: إن أساس عملي هو التهدئة، فإذا استخدمت مع أدويـة مهدئة أخرى قد يزيد التأثير.. وتكون هناك الخطورة.

اليانسون:

كان بجانب الناردين عشـبة يانسـون[1]، فقلت لهـا: مـا الـذي جعلك تنامين بجانب الناردين ألا تخافين أن يذيقك ترياقـه فتنـامين كنومة أهل الكهف؟
قالت ـ بهدوء لا يختلف عن هدوء الناردين ـ: وماذا في ذلك.. ألم تعلم أن نوم العابد خير من عبادة الجاهل؟
قلت: ولكن قيام العالم العابد خير من نوم العالم القاعد.
قالت: فإذا نعس العالم العابد بعد طول قيام كـان نومـه خـير له من صلاته، أو كان نومـه هـو صـلاته الـتي أمـره الشـرع بأدائهـا بحلول مواقيت النعاس.
قلت: اعـرفي مـا تقـولين.. فلم أر من أهـل العلم من فضـل النـــوم على الصـــلاة.. لا أرى إلا أنـــك تجهلين صـــلاة الفجـــر، ولا تعرفينها؟
قالت: بلى أعرفها.. وأعرف معها ما قال رسول الله ﷺ.
قلت: أي حديث سمعته جعلك تذهبين هذا المذهب؟
قالت: لقد قال رسول الله ﷺ:(إذا نعس أحـدكم وهـو يصـلي فلينصرف فينم حتى يعلم ما يقول)[2]، وقال:(إذا نعس أحدكم وهو

فيه الشخص حوالي نصـف سـاعة وذلـك لقطـع العـرض ولاضـفاء رائحـة طيبـة للجسـم، وكذلك مفيد لمشاكل الرحم عند النساء.

1) هـو نبـات عشـبي معـروف من فصـيلة الخيميـات وهـو غـير الآنسـون المعـروف بالشمر، ساقه رفيعة مضلعة تتشعب منها فروع طويلة تحمـل أوراقـاً مسـننة مسـتديرة، والأزهار صغيرة بيضوية الشكل، وتستعمل ثماره الناضجة... من مكوناته: زيت طيار 3% مادة انيثول وميثيل شانيكول من الزيت الطيار، وهرمون الاستروجين وزيت ثابت.

2) أحمد والبخاري وأبو داود.

يصلي، فلينصرف لعله يدعو على نفسه وهو لا يدري)(3)

قلت: لقد حججتني.. وصدق رسول الله ﷺ.. ولكن ما سر علمك بهذا؟

قالت: لقد جعل الله في ما جعل في الناردين من تهدئة الأعصاب وجلب النوم.. فأنا أستعمل شرابا ساخنا مع الحليب لعلاج الأرق وهدوء الأعصاب.

قلت: ما دام الأمر كذلك لم لم تشكلا نبتة واحدة، بدل تفرقكما على نبتتين.

قالت: نحن لا نتفق في كل شيء.. فلي من الفوائد ما ليس فيه.. وله من الفوائد ما ليس في.

قلت: لو كنتما بين قومي لتصارعتما.

قالت: نحن نتكامل ولا نتصارع.

قلت: فحدثيني عما تميزت به عن الناردين؟

قالت: لقد قال عني داوود الإنطاكي في تذكرته:(يطرد الرياح، ويزيل الصداع وآلام الصدر وضيق التنفس والسعال المزمن، ويدر البول، ودخانه يسقط الأجنة والمشيمة، ومضغه يذهب الخفقان، والاستياك به يطيب الفم، ويجلو الأسنان، ويقوي اللثة)

وقال عني ابن سينا في قانونه:(إذا سحق الينسون وخلط بدهن الورد وقطر في الأذن أبرأ ما يعرض في باطنها من صدع عن صدمه أو ضربة ولأوجاعهما أيضا)

قلت: فما قال المحدثون؟

قالت: لقد ذكروا أني مهدئة للأعصاب، ومسكنة للمغص والسعال، ومنشطة للهضم ومدرة للبول، وأني أفيد للولادة ولإدرار اللبن.. وأن مغلي شرابي الساخن يسكن المغص المعوي عند الرضع والأطفال والكبار، كما ينفع في طرد الغازات، كما يفيد في نوبات الربو، وأدخل في كثير من أمزجة الكحة، كما أفيد في بعض أنواع الصداع، وضيق التنفس.. وأنا منبهة قوية للجهاز الهضمي وفاتحة للشهية.. وأني من الأعشاب الجيدة في إخراج البلغم.

قلت: كيف تستعملين في هذا كله؟

قالت: تؤخذ ملء ملعقة صغيرة إلى ملعقتين وتجرش، وتضاف إلى ملء كوب ماء سبق غليه، ويترك لمدة ربع ساعة، أو نحوها، ثم يصفى ويشرب، ويؤخذ كوب في الصباح، وكوب آخر

(3) النسائي وابن حبان.

عند النوم.

أطباء في الحقول

خرجت من صيدلية الأعشاب، وقد كانت الأعشـاب والأشـجار والشجيرات تناديني بألسنة عذبة تطلب مني الاستماع إليها لـتروي ما وضع اللـه فيهـا من أسـرار الشـفاء.. ولكـني أكملت العشـرة.. وبمجرد إكمالها جاءني مـدير المزرعـة بهيئتـه وتواضـعه، فقلت لـه مبادرا: دعني أزيد عشرة أخرى.. فللحديث مع هذه الأعشـاب لـذة لا تعادلها لذة.

قال: لا.. أنت محكوم بقوانين أهل السلام.. ولا مناص لك من تنفيذها.. فإن أردت المزيد.. فاذهب للعلماء في أرضك يعلمونك.

قلت: لا.. أنا أرضى بتعليم هؤلاء.

قال: أنت لم تدخل هذه الديار لتتعلم العطارة.. ولكنك دخلتها لتتعلم السلام.. فإن أردت العطارة، فاذهب إلى معلم العطارين.

قلت: لست أدري ما علاقة تلك الأعشاب بالسلام.

قالت: لقد خلق الله تلك الأعشاب لنستعملها ـ كما اسـتعملها أهل التاريخ الطويـل ــ في العلاج.. لكنكم أبيتم في هـذا العصـر إلا أن تتخلـوا على الصـيدلية الـتي وضـعها اللـه لكم، ورحتم تصـنعون بدلها السموم التي هداكم إليها غروركم.

قلت: أتريد منا أن نغلق المصانع، ونفتح بدلها حقولا؟

قال: أجل.. كل حقل ينوب عن مصنع، فالحقل أولى منه.

قلت: ماذا تقصد؟

قال: لقد مررت على أعشاب كثيرة لها فوائد صحية ثابتة.

قلت: أجل.. لقد رأيت كل ذلك، واقتنعت به.

قال: ولكنكم تركتم كل تلك الوصفات النافعة الـتي تخلـو من كـل ضـرر، واسـتبدلتموها بـتراكيب مصـانعكم، فصـارعتم بـذلك أجسامكم التي خلق الله لها هذه النباتات، وصارعتم النباتـات حين رميتموها في سلة المهملات.. وصارعتم الله بعد ذلك حين اتهمتموه بأنه أنزل الداء، ولم ينزل الدواء.

قلت: صحيح هذا.. أفتريد أن نغلق تلك المصانع؟

قال: أنا لم أقل ذلـك.. وسـتمر على مصـانع الشـفاء.. وتـرى أنواع الأدوية الذي تصنع فيه وشروطه وكيف تنزع عقـاقير الصـراع منه.

قلت: فلنذهب الآن إليه.

قال: لا.. أنسيت أنك ستذهب إلى الأطباء في الحقول.
قلت: اعذرني.. فما أكثر نسياني.
لست أدري كيف خرجنا من الصيدلية الجميلة لنجد أنفسنا في حقل جميل.. بل حقول جميلة ممتدة امتداد الأفق.. وقد كانت عامرة بمختلف أصناف الناس، فسألت مدير المزارع عن هذا المنظر البديع، فقال: هؤلاء أطباء خرجوا إلى الحقول بمرضاهم ليصفوا لهم ما يحتاجون لأدوائهم من أصناف الدواء.
قلت: فلم لم يكتفوا بوصفها داخل عياداتهم؟
قال: أنواع النباتات كثيرة مختلفة.. ومن المرضى من لا يعرفها.. فلذلك احتاج الأطباء إلى الخروج إلى الحقول.. واستقبال المرضى فيها.
قلت: فهل سنزور هؤلاء الأطباء؟
قال: ستزورهم أنت لتسمع ما يقولون للمرضى(1).. ولا حرج عليك أن تسألهم ما بدا لك.. فقد شرط أهل السلام على طبيب السلام أن يفصل الطبيب للمريض كل ما يتعلق بمرضه مما يحتاجه لشفائه.
قلت: وأنت؟
قال: سأذهب لأعمالي الكثيرة التي تنتظرني..

دساتير الأطباء

بعد أن زرت الكثير من الأطباء، ورأيت الوصفات التي يصفونها للمرضى شعرت بقناعة تملؤني بفضل الله، وأن رحمته التي تدراكت كل شيء، فغطت عوزه لا تعجز أن تغطي حاجات الإنسان من دواء.
بل إن الله تعالى في تغطيته للحاجات، وكفايته لخلقه ما يهمهم ينوع لهم كل ذلك الفضل ليتناول كل إنسان ما يناسبه، وتنفتح له شهيته، فهو عندما جعل البروتين من حاجات الإنسان لم يجعله في الحيوانات فقط.. ولا في البقول.. بل وضعه في أكثر ما خلقه من أغذية، ليتناوله الفقير والغني، والنباتي والحيواني.
وهكذا في كل شيء نوع الكفايات.. وغطى الحاجات.. وأغاث في جميع الأحوال والأوقات.. فلذلك لا يستحيل أن ينزل مع كل داء دواءه، بل أدويته.. بل ذلك من آثار رحمته التي وسعت كل

1) كنا قد عرضنا في الطبعة السابقة من الكتاب مجموعة نماذج عن الوصفات التقليدية والحديثة للعلاج بالأعشاب لكن أعرضنا عن ذكرها هنا خشية أن يعتقد القارئ أن هدف الكتاب هو تلك المعلومات الطبية التي هي شأن المختصين.

شيء.. وآثار فضله الذي غمر كل شيء.

بينما أنا كذلك، وقد امتلأت بهـذه القناعـة الجميلـة، إذ جـاءني المكلف بهذا القسم، وقال: هذا ما قصدنا من تجوالك بين الأطباء.. فلم نقصد أن تتعلم وصفات تعـالج بهـا المرضـى.. أو تفتح حـانوت عطـار.. فـذلك لأهـل الاختصـاص من الأطبـاء.. ولكنـا قصـدنا أن تغمرك بالقناعة بأن الله الذي أنزل الداء أنزل الـدواء.. وأن البشـر هم الذين قصروا في البحث عنه وتناوله.

قلت: لقد اقتنعت بهذا.. فهل تريد إقناعي بشـيء آخـر، قبـل أن أخرج من هذا القسم؟

قال: أجل.. لا بد أن نمر على دستور الأطباء..

قلت: لم؟

قـال: لأن من الخلـق من أسـاء التعامـل مـع هـذا النـوع من الدواء، فراح يجعـل من خلـق اللـه فـئران يجـرب عليهـا بضـاعته، فيقتلهم، ويدمر صحتهم.

قلت: لقد ذكرتني بنفر من قومي..

قال: تقصد الرقاة الذين راحوا يداوون بالأعشاب من غـير أن يعرفوا أسرارها.. أو يتخصصوا فيها.

قلت: أجل.. وهم يغالون كثيرا في بيعهـا.. فتجـد أحـدهم يـبيع بعض الأعشـاب المخلوطـة بالعسـل بـالأموال الكثـيرة الـتي تنفـر الناس من الأعشاب.. وتلجئهم إلى الكيميائيات.

قال: أولئك هم الجهلة الذين يعبثـون ببنيـان اللـه.. فلا تحـزن عليهم..

قلت: أنا لا أحزن عليهم.. بل أحزن على من يأتيهم.

قال: لهذا وضع هذا المستشفى دستور الأطبـاء حـتى يحفـظ لهذه الصناعة أهلها، وشروط الاستفادة منها.

قلت: وهل لهذه الدستور قسم خاص؟

قال: إن شئت سمه مجلسا خاصا.

قلت: أهو مجلس شورى الأطباء؟

قال: نعم.. يجتمع فيه أهـل الحـل والعقـد منهم ليناقشـوا مـا يجعل من الدواء الذي أنزله الله دواء نافعا.

قلت: فما وجدوا؟

قال: هناك أربعة أقسـام سـتزروها.. وفي كـل قسـم دسـتور خـاص بـه وسـتذهب إليهم، وتسـمع منهم، ويمكنـك أن تسـألهم لتعرف ما يجعل من هذا الدواء ترياقا نافعا.

قلت: سأذهب أنا إليها.. وأين ستذهب أنت؟

قال: أنا ذاهب إلى حقـل التجـارب.. فهـو محلي الأول.. وقـد اكتشفت منذ فارقتك عشر أدوية نافعة تهدم عشر أدويـة كيميائيـة كان أهل هذا المستشفى يستعملونها للضرورة.

الخبرة

قصدت القسـم الأول من دسـاتير العطـارين، وهـو الدسـتور الخاص بالخبرة، فوجدت لافتة مكتوبـا عليهـا قولـه ﷺ:(من تطبب، ولم يعلم منه الطب قبل ذلك، فهو ضامن)(1)

دخلت القاعة، فرأيت جمعا من الناس، وكـأن على رؤوسـهم الطير، يستمع بعضهم إلى بعض، ويحترم بعضهم بعضا، وكان الجـو مملوءا بالخشوع الهادئ الجميل.

سألت أحد الجالسين: من هـذا الجمـع المبـارك.. فـإني أشـم فيه من روائح الأدب ما لا أشمه في مجالس قومي.

قال: هذا جمع من الفقهاء والأطباء يتناصحون فيمـا بينهم في الدستور الذي ينظم وظيفة الطبيب، ويجعلها رحمة للمريض.

فجأة.. وجدتهم تفرقوا على أربعة أقسام، فسـألت صـاحبي: مـا بـالهم.. أدخـل الشـيطان فيمـا بينهم ففـرق جمعهم، وشـتت صفوهم؟

قال: لا.. لا يـدخل الشـيطان المجـالس العـامرة بـذكر اللـه.. الشيطان يحب المجالس التي تنتفخ فيها الأنا.. فيغذيها الصراع.

قلت: ولكن ما بالهم تفرقـوا.. أم أن عيـني هـل الـتي أصـابها الصراع ففرقت وحدتهم!؟

قال: لقد تفرقوا.. كما تتفرقون أنتم إلى لجان عمل.

قلت: وهؤلاء؟

قال: تفرقوا إلى لجان.. تختص كـل لجنـة بـالبحث في ناحيـة معينة من النواحي التنظيمية لوظيفة الطبيب.

اقتربت من أقرب لجنة لي، وأصخت بسـمعي، فـإذا بأحـدهم يقرأ بصوت جميل قوله تعالى: ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ (طه:114)، ثم يعقب على ذلك بقولـه: نعم.. يـا إخـواني.. لا بـد أن نسـتزيد دائما من العلم.. فالأمراض كل يوم تـنزل.. والأدويـة تـنزل معهـا.. وقد أقامنا الله في هذا الثغر الذي نحرس فيه قلاع الجسـد من أن يـداهمها العـدو.. فـإن قصـرنا سـرى هـذا التقصـير لجميـع منـاحي الحياة..

---

1) أبو داود، والنسائيُّ، وابن ماجه.

قال آخر: صدقت.. ونحن في عملنا هذا لا نقل عن الفقهاء شأنا.. فإن هم حرسوا الدين.. فنحن نحرس الثغور التي لولاها لم يقم الدين.. ألم تسمعوا ما قال الشافعي:(إنما العلم علمان: علم الدين، وعلم الدنيا.. فالعلم الذي للدين هو الفقه، والعلم الذي للدنيا هو الطب)

وقال ـ مبينا فضل هذا العلم الذي وفقنا الله لدراسته ـ:(لا أعلم بعد الحلال والحرام أنبل من الطب، إلاَّ أنّ أهل الكتاب قد غلبونا عليه)

وقال متأسفا على تقصير المسلمين في تعلمه:(ضيعوا ثلث العلم، ووكلوا إلى اليهود والنصارى)(1)

قال آخر: ومثله تأسف الغزالي على تضييع المسلمين للطب، وتركه لغيرهم، فقال:(فكم من بلدة ليس فيها طبيب إلا من أهل الذمة.. ولا يجوز قبول شهادتهم فيما يتعلق بالأطباء من أحكام الفقه.. ثم لا نرى أحدا يشتغل به)(2)

ثم يذكر علة ذلك، وهو الاهتمام بالجدل والصراع، فيقول: (ويتهاترون على علم الفقه، لا سيما الخلافيات والجدليات والبلد مشحون من الفقهاء وبمن يشتغل بالفتوى، والجواب عن الوقائع.. فليت شعري كيف يرخص فقهاء الدين في الاشتغال بفرض كفاية قد قام به جماعة وإهمال ما لا قائم به)

ثم يبين سوء نية هؤلاء بقوله:(هل لهذا سبب إلا أن الطب ليس يتيسر الوصول به إلى تولي الأوقاف والوصايا، وحيازة مال الأيتام، وتقلد القضاء والحكومة والتقدم به على الأقران، والتسلط به على الأعداء.. هيهات هيهات قد اندرس علم الدين بتلبيس العلماء السوء.. فالله تعالى المستعان وإليه الملاذ في أن يعيذنا من هذا الغرور الذي يسخط الرحمن ويضحك الشيطان)(3)

قال آخر:وقد كان هذا دافعا للفقهاء لتعلم الطب، وقد روي أن المازري كان يفزع إليه في الفتوى في الطب في بلده، كما يفزع إليه في الفتوى في الفقه.. ويحكي أن سبب تعلمه الطب ونظره فيه أنه مرض، فكان يطبه يهودي، فقال له اليهودي يوما:(يا سيدي مثلي يطب مثلكم، أي قربة أجدها أتقرب بها في ديني مثل أن أفقدكم للمسلمين)، فمن حينئذ نظر في الطب(4).

---

1) انظر: آداب الشافعي ومناقبه، ص 321.
2) الإحياء: 1/21.
3) الإحياء: 1/21.
4) ذكر هذا ابن فرحون في الديباج، ص 253.

قال آخر: لقد أشار ﷺ إلى ضرورة الخبرة في الطب، فقال: (نعم، يا عباد الله تداووا، فإن الله عز وجل لم ينزل داء إلا أنزل له شفاء، علمه من علمه وجهله من جهله)، ففي هذا الحديث دعوة إلى التعلم، بل إلى مداومة البحث..

قال آخر: نعم.. هذا الحديث فيه أعظم تشجيع على البحث العلمي.. لأن الباحث الذي ينطلق في بحثه من يقينه بوجود ما يبحث عنه، سوف يبذل كل جهده بنشاط وحيوية.. بخلاف من يشك في وجود ما يبحث عنه، فإن ذلك قد يصرفه عما هو فيه.

قال آخر: إن مثل ذلك مثل رجلين، أما أحدهما، فقد أخبره مهندس مختص لا تتخلف فراسته بوجود ماء في محل معين، وأما الآخر، فذهب يحفر من غير أن يستعلم عن ذلك.

فأما الأول، فقد كفي الهم والحزن، فيحفر إلى أن يظفره الله بمطلوبه، وأما الثاني، فيحفر خائفا أن يذهب جهده هدرا، وقد يتوقف في أي لحظة يائسا.. وقد لا يبقى بينه وبين الماء بعد توقفه إلا أمتار محدودة.

قال آخر: ولهذا يجب أن ينص دستور الطبيب على ضرورة كون الطبيب من أهل البحث.. فلا يكفي أن يأخذ الطب تقليدا.

قال آخر: ولا بد أن نحدد العلوم التي يجب على الطبيب إتقانها.

قال آخر: لا يكفي أن نذكر الإتقان.. بل لا بد من النبوغ.. ثم نمتحن النابغين.. فقد كان امتحان الأطباء سنة من سنن السلف.

قال آخر: لا بد أن يعرف الطبيب كل ما يتعلق بالطب من العلوم.. من علم بجسم الإنسان بتفاصيله.. وعلم بما يمكن أن يعتريه من أدواء وسببها.. وعلم بأنواع العلاج المرتبطة بكل علة.

قال آخر: ولا بد أن يستمر في تعلمه.. فحقول التجارب تزودنا كل يوم بالمزيد من العقاقير الشافية.. فينبغي أن يهتم بها كاهتمامه بمصالحه.

قال آخر: ولا بد من المجالس المختلفة الكثيرة التي يجتمع فيها الأطباء لتبادل الخبرات.. فقد يفتح الله على بعضهم ببعض ما يجهل غيره.

قال آخر: نقطة مهمة لا ينبغي إهمالها رأيتها في أرض الصراع..

قالوا: وما رأيت؟

قال: رأيت بعض الأطباء يوفقه الله لدواء يعالج العلل

المستعصية، فيحتفظ به سرا لنفسه، ليجلب الزبائن إليه.

قـالوا: كيـف يفعـل هـذا؟.. أيتـاجر بأجسـاد النـاس من أجـل هواه..!؟

قال أحدهم: ضـعوا هـذا القيـد في دسـتور الطـبيب: لا يجـوز لطبيب يعرف مسألة من الطب أو فائدة إلا وينشرها بين أصحابه.

قال آخر: هذا لا يتعلـق بـالأفراد فحسـب، بـل يتعلـق بمراكـز البحث المختلفة.. فينبغي التعاون بينها، ولا يكتم بعضـهم مـا وصـل إليه من نتائج عن البعض الآخر.

قال آخـر: لقـد رأيتهم في أرض الصـراع يتنـاطحون في هـذا كتناطح الكباش.. كل يريد أن يكون السـبق لـه.. فلـذلك يسـتعمل كل وسائل الصراع.

قـال آخـر: إن أكـثر مـا يتخلـف بـه البحث العلمي في أرض الصراع هو عدم التعاون، والحرص على براءة الاختراع.. وكأن تلك البراءة هي الهدف من البحث لا خدمة الإنسان وحفظ بنيان الله.

قال آخر: الصادقون من أهل الله كانوا يحملـون الجبـال على ظهورهم، ويتسترون بالبراقع لئلا يراهم الناس.

قال آخر: هذا يستدعي وضع مادة أخرى.

قالوا: وماهي؟

قـال: وضـع بنـك معلومـاتي تصـب فيـه معلومـات الأطبـاء وخبراتهم.. ليراها الأطباء ويستفيدون منها.

قال آخر: ولا بد أن تتعرض للتمحيص قبل طرحها.

قال آخر: أضيفوا مادة أخرى.

قالوا: وما هي؟

قـال: إذا جـاء الطـبيب أي مـريض، ولم يعـرف كيـف يعالجـه يرسله لمن يثق في خبرته وقدراته..

قال آخـر: بـل.. لقـد ورد حـديث في المسـألة، فقـد روي أن رجلا فى زمان رسول الله ﷺ أصابه جـرح، فـاحتقن الجـرح الـدم، وأن الرجل دعا رجلين من بنى أنمار، فنظرا إليه فزعما أن رسـول اللـه ﷺ قـال لهمـا:(أيكمـا أطب؟)، فقـال: أو فى الطب خـير يـا رسول الله؟ فقال ﷺ:(أنزل الدواء الذى أنزل الداء)[1]

قـال آخـر: فى هـذا الحـديث دلالـة صـريحة على أنـه ينبغى الاستعانة فى كل علم وصناعة بأحذق من فيها فالأحـذق، فإنـه إلى الإصابة أقرب.

---

1) مالك.

قال آخر: وهذا ما دلت عليه فروع الشريعة الكثيرة.. فالمستفتى يجب أن يستعين على ما نزل به بالأعلم فالأعلم، لأنه أقرب إصابة ممن هو دونه.. وكذلك من خفيت عليه القبلة، فإنه يقلد أعلم من يجده، وعلى هذا فطر الله عباده، كما أن المسافر فى البر والبحر إنما سكون نفسه، وطمأنينته إلى أحذق الدليلين وأخبرهما، وله يقصد، وعليه يعتمد، فقد اتفقت على هذا الشريعة والفطرة والعقل(1).

قال آخر: وينبغي إضافة مادة أخرى مهمة.

تركتهم وانصرفت قاصدا قسما آخر.

المسؤولية

دخلت القسم الثاني من أقسام (دساتير الأطباء)، فوجدت جمعا لا يقل نشاطا وأدبا عن الجمع السابق.. إلا أني لاحظت وجود رجال الحزم في هذا القسم، وهم رجال كالرجال الذين يقفون على الأبواب تظهر عليهم الشدة والغلظة.

اقتربت من مجموعة منهم، فسمعت أحدهم يقول: إن الطبيب يتحمل مسؤولية عظيمة بوظيفته.. فقد جعل الله بنيانه بين يديه ليتصرف في إصلاحه.. فلذلك لا بد من وضع القوانين التي تنظم كيفية تعامله مع المرضى.. فلا يصيبها بالخراب.. ولا يصيب بنيانها بالدمار.

قال آخر: لقد أشار رسول الله ﷺ إلى هذه المسؤولية، فقال:(من تطبب، ولم يعلم منه الطب قبل ذلك، فهو ضامن)(2)

قال آخر: لقد فكرت في الأصول التي يمكنها أن تحفظ مسؤولية الطبيب، فوجدتها أربعة أرى أن ينصب جميع كلامنا حولها.

قالوا: نعلم أنها أربعة.. ولكن ما هي؟

قال: الحسبة، والاختبار، والتضمين، والتحذير.

قالوا: فكيف توصلت إلى وجه الحصر فيها؟

قال: أول شيء هو أن نبحث عن الأطباء لنرى مدى شعورهم بالمسؤولية المعلقة عليهم.. ولا يقوم بهذا إلا المحتسب.

قالوا: فإن وجد هؤلاء الأطباء؟

قال: يختبرهم ليرى مدى صلاحيتهم لممارسة هذه المهنة.

قالوا: والتضمين؟

---

1) زاد المعاد.
2) أبو داود، والنسائيُّ، وابن ماجه.

قال: إن قصروا ضمنوا.. وإن لم يقصروا ضمن المسؤول.

قالوا: والتحذير؟

قال: إن رأوا من طبيب من الأطباء عدم الكفاءة حذروا منه.

الحسبة

قالوا: فلنبدأ بقوانين الحسبة.

قـال: الحسـبة هي النظـام الإسـلامي الـذي يحمي مصـالح الأفراد والمجتمعات، والصحة من المصالح، فلـذلك لا ينبغي تركهـا لمن يعبث بها.

قال آخر: لقد كانت ممارسة التطبيب خاضعة لشروط وقيـود دقيقة تحدد مـا للأطبـاء ومـا عليهم، وكـان المحتسـب يقـوم بهـذه المراقبة حفاظا على سلامة المجتمع ودفعا ليصـل مـا يكـون سـببا في ايذائة، وبث الفوضى والفساد فيه.

قال آخر: لقد كنت في أرض الصراع.. وسـأذكر لكم مـا يـدل على وجوب تشدد أهل الحزم مع المجرمين الذين يلبسـون لبـاس الأطباء.

قالوا: فصف لنا ما رأيت.

قال: أشـياءا كثـيرة رأيت[1].. يتفتت لهـا القلب، وتعتصـر لهـا الكبد.. لقد رأيت جهلـة كثـيرين يقومـون بعمليـات الكي، أو تجبـير الكسـور، أو الحجامـة.. وهنـاك من يعـالج بالأعشـاب والمشـتقات الحيوانيـة والمعدنيـة.. وهنـاك من يجلـو المـاء الأزرق من العين.. وهناك من يقوم بفصد الجبهة لعلاج الشقيقة.. وهناك المشـعوذون والسحرة.. وهناك من يتكسـبون بالرقيـة الـتي ينسـبونها للشـرع.. والشرع منها برئ.. وهناك.. وهناك..

قـال آخـر: صـدقت.. فقـد لاحظت الكثـير من المحجمين لا يفقهون شـيئا عن التعقيم، أو تطهـير أدوات الحجامـة.. بـل رأيتهم يسـتخدمون سـكاكين ملوثـة، ربمـا تتسـبب في نقـل فيروسـات خطيرة.

بل إنهم لا يكتفون بذلك.. بـل يسـتخدمونها في حجامـة أكـثر من شخص.. وتصـوروا معي لـو أن شخصـا يحمـل فـيروس الكبـد الوبائي أو فيروس الأيدز، أو خلاف ذلك، فإنه بدون شـك سيصـيب بالعدوى كل من ذبحه بتلك السكين.

قال آخر: بل رأيت من المحجمين من يقوم بشفط الـدم في المحاقن المستخدمة لذلك الهدف بأفواههم، واذا حصـل أن لعـاب

---

1) انظر: جريدة الرياض.

أي من المحجين ملوث بفيروس ما فسوف يعطيه للمريض.

قال آخر: لقد اختبرتهم لأرى مستوياتهم العلمية.. فوجدت عجبا فالبعض منهم اكتفى بتعليم من يسميها مدرسة الحياة.. والبعض اكتسب هذه المهنة عن طريق الوراثة.. والبعض يحمل مؤهلات ثانوية وجامعية ولكنها لا علاقة لها بما يطبب به.. والكثير منهم أمي لا يقرأ ولا يكتب.

ولم أر فيما رأيت ــ إلا نادرا ــ من درس طب الأعشاب أو الممارسات الأخرى.

قال آخر: لقد جلت مناطق كثيرة من العالم كالهند والباكستان والصين ومن تسمى بالدول المتقدمة.. فرأيتهم لا يؤذن لهم في مزاولة هذه المهنة أو في وصف أي دواء إلا بعد تحصيل الكفاءات المرتبطة به.

قال آخر: أما في بلادنا التي كان عليها أن تصبح نموذجا صالحا لسائر الأمم، فإنها تقصر في ذلك تقصيرا عظيما.

قال آخر: سببه الجشع والحرص على المال.. لقد رأيت من يقومون بعمل خلطات، ويروجونها لعلاج بعض الأمراض وباهظة الثمن جدا، قد تصل إلى الآلاف، وربما تكون هذه الخلطات قاتلة.

قال آخر: بل يوجد من العطارين والأطباء المختصين في العطارة من يغشون الأعشاب بمستحضرات صيدلانية يشترونها من الصيدليات، ويسحقونها، ثم يخلطونها بأي عشب، ويبيعونها للمرضى على أنها أعشاب.

قال آخر: وقد اكتشفت ذلك بنفسي، حيث رأيت من يقوم بشراء أقراص مخفضات سكر الدم وسحقها وخلطها مع أوراق نباتية وبيعها بأغلى الأسعار كعلاج للسكر.. ورأيت من يفعل ذلك مع حبوب الضغط والكورتزون.. وكلها تعمل بنفس الطريقة.

قال آخر: وقد رأيت بعض العطارين يقوم بتحضير بعض الخلطات العشبية والمشتقات الحيوانية دون إلمام بالتداخلات التي يمكن أن تحدث عند خلط هذه الأعشاب أو المشتقات الحيوانية.. خاصة وأنهم لا يعرفون المجاميع الكيميائية التي تحتويها هذه المواد، والتي يحدث عنها تداخلات فيما بينها عند السحق ينتج عنها مركبات جديدة قد تكون خطيرة على حياة المستهلك.

قال آخر: ولهذا كله لا بد أن نضع في دساتير الأطباء هذا الشرط.. لا يحق لأي شخص معالجة المرضى ما لم يكن حاملا لمؤهلات علمية كافية في الطب والجراحة من جهات معترف بها.

قال آخر: وهذا يقتضي وضـع تـراخيص خاصـة بالمسـتحقين.. وتكليف المحتسبين وكل جهات الحزم بتطبيق ذلك.

قال آخر: ليس هذا فقط.. بـل إن هنـاك أمـورا أخـرى كثـيرة ينبغي ذكرها هنا.

قالوا: ما تقصد؟

قال: لقد رأيت في دكاكين العطارين خلطـات مسـتوردة من دول كثيرة على هيئة مساحيق وأقراص وكبسـولات وحبيبـات ذات استعمالات خطيرة لا ندري ما الذي وضع فيها من مركبات.

قـال آخـر: لقـد رأيت بنفسـي كثـيراً من الزيـوت الحيوانيـة والنباتية وكثيرا من كريمـات البشـرة تحتـوي على مـواد خطـيرة.. ربما تسبب تسـرطن الجلـد.. أو ربمـا تسـبب عاهـات مسـتديمة.. وهذه الزيوت والكريمات تحضر مع الأسـف في محلات العطـارة.. ويـروج لهـا في مـدارس البنـات وفي محلات الحلاقـة، وهي غـير مقننة، وغير مدروسة.

قال آخر: لهذا لا بد من وضع مادة ترتبط بهذه القضية.

قال الكاتب: كيف نصيغ هذه المادة؟

قال: لنقل: يحرم شرعا وقانونا بيع أي دواء عشبي أو حيواني أو معدني يوجد على هيئة مسحوق أو على هيئة سائل أو مـرهم أو كـريم أو مخلـوط بعسـل أو المستحضـرات المسـتوردة من كـل الدول إلا بعد اطلاع المختصين من أهل الرقابة عليها.

قـال آخـر: أضـف إلى هـذا: لا تبـاع الأعشـاب أو المشـتقات الحيوانية إلا بوصـفها الطـبيعي كمـا هي دون جـرش ودون تكسـير ودون سحق ودون إضافات.. بل على هيئة أوراق، وأزهـار، وبـذور، وجذور، وجزامير، وهكذا.

قال آخر: أضف إلى هذا.. يمنع استيراد وبيـع بعض الأعشـاب الخطيرة والموجودة حالياً لـدى محلات العطـارة مثـل عين الـديك والسـورنجان والسـمفتون وأصـبع العـذراء.. وغيرهـا لمـا لهـا من خطورة على بنيان الله.

قال آخر: أضـف إلى هـذا.. تسـحب كـل المستحضـرات غـير المقننة والموجودة على هيئة مستحضـرات صـيدلانية سـواء كـانت في محلات العطارة، أوتباع في بعض الصيدليات.. ومثلها الخلطات العشبية وخلطات العسل من الصيدليات.. بـل ينبغي إصـدار تعميم يحذر من بيع هذه المواد.. وأي صـيدلية يكتشـف بيعهـا لمثـل هـذه المواد تقفل، ولا يصرح لها بالاستمرار في ممارسة المهنة.

قال آخر: أضف إلى هذا.. يمنع الباعة المتجولون الذين يروجون لبعض الخلطات أمام أبواب المساجد وأمام المراكز الكبيرة وعند إشارات المرور أو باستعمال الجوال.. ويجب على الجهات المسؤولة متابعة ومطاردة مثل هؤلاء الذين ربما يروجون لأشياء أخطر من المستحضرات العشبية.. وأن يصدر بحق من يمسك متلبساً ببيع وترويج مثل تلك المستحضرات العقوبة الرادعة.

الاختبار:

قالوا: ما تقصد بالاختبار؟

قال: امتحان الأطباء لاختبار كفاءتهم، فلا يتقدم لهذه المهنة الخطيرة إلا الأكفأ فالأكفأ.

قال أحدهم: هذا يحتاج لوضع برنامج تعليمي يتم على أساسه الاختبار.

قال آخر: أجل.. بل لا بد أن تتبني الوزرات المكلفة بالصحة قوانين تنظم بها الحياة الصحية للمجتمع.. حتى لا تصبح لعبة ببين أيدي المجربين.

قال آخر: لا يكفي أن يقوم المحتسبون وحدهم بالاختبار.. بل لا بد من نشر الوعي الصحي في أفراد المجتمع حتى لا يعبث بصحتهم العابثون.

قال آخر: لا بد من استعمال كل ما توصلنا إليه من تقنيات لهذا الغرض.

قال آخر: لا ينبغي أن نجنب المساجد هذه المهمة.. فالمسجد هو الذي يعلم الحياة الصحية بجميع معانيها.. وليس لنا من أسوة في ذلك غير رسول الله ﷺ.. فقد كان يحمل نظرية صحية متكاملة.

قال آخر: هذا يستدعي تعليم من يقوم بشؤون المساجد ما يؤدي به هذا الدور.

قال آخر: لا يكفي ذلك.. بل ينبغي أن يكلف الأطباء بنشر مل هذه التوعية لتفتح للرعية جميع منافذ الصحة.

قال آخر: أكل هذا يدخل في الاختبار؟

قال آخر: أجل.. فليس الاختبار ما يقوم به أهل الصراع من امتحانات صورية يعبث بها العابثون، وتقدم في سبيلها الرشاوى.. بل إن الطبيب الذي لا يتوفر على أهلية التطبيب يظل محاصرا من جميع أفراد المجتمع.

قال آخر: فلنسجل كل هذا.. ولنرسل لوزراة الحزم لتقوم بمهمتها.

التضمين:

قالوا: فما التضمين؟

قال: هو ما أشار إليه رسول الله ﷺ بقوله:(من تطبب ولم يعلم منه الطب فهو ضامن)، فقد أخبر ﷺ عن مسؤلية الطبيب عن أي خطر يتعرض له المريض..

قال آخر: وهذه المسؤولية ليست مسؤولية معنوية فحسب.. بل هي مسؤولية مادية.. فللمريض حق تعويض الضرر الذي أصابه.

قالوا: أهذه مسألة مجمع عليها؟

قال: وكيف يختلفون.. وقد نص رسول الله ﷺ على ذلك.

قلت: ولكن الطبيب قد يعمل ظنه في كثير من الأحيان.. فهل يحاسب على ظنه.. أليس هو كالمجتهد إن أصاب فله أجران.. وإن أخطأ فله أجر واحد؟

قال: أجل ذلك صحيح.. ولهذا فقد رأيت تقسيم الأطباء إلى خمسة أصناف.. لكل صنف منهم حكمه الخاص.

قالوا: فحدثنا عن أولهم.

قال: هو طبيب حاذق أعطى الصنعةَ حقَّها، ولم تجن يده، فتولَّد من فعله المأذون فيه من جهة الشارع، ومن جهة مَن يطبُّه تلفُ العضو أو النفس، أو ذهابُ صفةٍ..

قالوا: فما حكم من هذا وصفه؟

قال: هذا لا ضمان عليه اتفاقاً، فإنه تصرف مأذون فيه.

قلت: لم؟.. لقد أخطأ.. ألا يحاسب على خطئه؟

قال أحدهم، ويظهر عليه أنه من الفقهاء المعاصرين: الطبيب الحاذق لا يسأل عن الضرر الذي يصيب المريض، ولو مات المريض من جراء العلاج، ما دام المريض قد أذن له بعلاجه، ولم يقع من الطبيب خطأ في هذا العلاج، بل كان الضرر أو الموت الحاصل نتيجة أمر لم يكن في حسبان الطبيب، وهو ما يسميه الفقهاء المحدثون:(أمرلا يمكن توقعه او تفاديه)

وكذلك فإن من القواعد المقررة في الشريعة الاسلامية أن عمل الطبيب عند الإذن بالعلاج أو عند طلبه يعد واجبا، والواجب لا يتقيد بشرط السلامة، ولو أن واجب الطبيب متروك لاختياره وحده ولاجتهاده العلمي والعملي، فهو أشبه بصاحب الحق لما له من

السلطان الواسع والحرية في اختيار العلاج وكيفيته.
قلت: أتقصد أن انتفاء المسؤولية عن الطبيب يتطلب..
قاطعني، وقـال: يتطلب أربعـة أمـور: إذن الشـارع.. ورضـى المريض.. وقصد الشفاء.. وعدم وقوع الخطأ من الطبيب.
قالوا: فمن الثاني؟
قال: متطبِّبٌ جاهِلٍ باشرت يدُه مَن يَطُبُّه، فتَلِفَ بـه، فهـذا إن علم المجنىُّ عليه أنه جاهل لا عِلْمَ له، وأَذِنَ له فى طِبه لم يضمن.
قلت: كيف تقـول هـذا أراك تشـجع الجهلـة من الأطبـاء على اللعب بالنــاس.. ثم كيــف تعــارض الحــديث، وهــو صــريح في التضمين؟
قال: لا.. لا تُخالف هذه الصورة ظاهرَ الحـديث، فـإنَّ السِّـياق وقوة الكلام يدلُّ على أنـه غـرَّ العليـل، وأوهمـه أنـه طـبيب، وليس كذلك.. أما إن ظنَّ المـريضُ أنـه طـبيب، وأذن لـه فى طِبـه لأجـل معرفته، ضَمِنَ الطـبيبُ مـا جنت يـده، وكـذلك إن وصـف لـه دواء يستعملُه، والعليلُ يظن أنه وصفه لمعرفته وحِذْقه فتَلِفَ به، ضمنه، والحديثُ ظاهر فيه أو صريح.
قلت: سـلمت بهـذا.. ولكن كيـف يـترك للطـبيب الجاهـل اسـتغلال غبـاء النـاس وغفلتهم.. ألم تسـمع بإجمـاع الفقهـاء على وجوب منع الطبيب الجاهل- الذي يخدع الناس بمظهـره ويضـرهم بجهله- من العمل، بـل من القواعـد المقـررة في الحجـر أن ثلاثـة يحجـر عليهم ويمنعـون عن العمـل: المفـتي المـاجن، والطـبيب الجاهل، والمكاري المفلس.
قال: أنا لم أقل بأنه لا يعاقب.. ولكني قلت بأنه لا يضمن.
قلت: فما الفرق بينهما؟
قال: الضمان عقوبة للطبيب، وفائدة للمـريض.. أمـا العقوبـة فتخص الطبيب وحده.
قلت: ولم حرمت المريض من الفائـدة.. وخصصـت الطـبيب بالعقوبة؟
قـال: حـتى يكـون ذلـك رادعـا لأفـراد المجتمـع من الانخـداع للأطباء الجهلة.. فإني أرى نفرا من قومك يـتركون المختصـين من الأطباء ويسلمون بنيانهم لعبث العابثين.
قلت: صدقت.. وأرى لكلامك قوة وحجة.
قالوا: فحدثنا عن الثالث؟
قـال: طـبيبٌ حـاذِق، أذن لـه، وأعطى الصَّـنعة حقهـا، لكنـه

أخطأت يدُه.

قالوا: فما حكمه؟

قال: هذا يضمَنُ، لأنها جِنَايةُ خطإٍ..

قلت: ما نوع الخطأ الذي يتطلبً التضمين؟

قال الفقيه المعاصر: علماء الشريعة الاسلامية يقصدون بخطأ الطبيب، الخطأ الفاحش الذي لا تقره أصول الطبابة، ولا يقره أهل الاختصاص.. ولهذا فإن الطبيب في الشريعة الاسلامية لم يكن يسأل عن الخطأ اليسير الذي يمكن أن يقع فيه أي طبيب، ولكنه يسأل عن الخطأ الذي لا يجوز أن يقع فيه طبيب، وذلك إما نتيجة الجهل أو عن خطأ فاحش لا تقره أصول فن الطب ولا أهل المعرفة فيه.

قلت: اضرب لي مثالا على هذا.

قال: كأن يريد طبيب قلع سن، فيقلع غيرها خطأ.. أو أن تمتد يده إلى غير موضع العلاج فتنال الجسم أو عضوا منه بتلف.. أو يعطي المريض دواء غير مناسب للداء فيضره.

قالوا: فمن الرابع؟

قال:الطبيب الحاذق الماهر بصناعته، اجتهد فوصف للمريض دواء، فأخطأ فى اجتهاده، فقتله، فيعتبر قتيلا، وتدفع دية لأهله.

قالوا: فمن الخامس؟

قال: طبيب حاذق، أعطى الصنعة حقها، فقطع سلعة من رجل أو صبى، أو مجنون بغير إذنه، أو إذن وليه، أو ختن صبيا بغير إذن وليه فتلف، فهذا يضمن، لأنه تولد من فعل غير مأذون فيه، وإن أذن له البالغ، أو ولى الصبى والمجنون.

العقوبة:

قالوا: فما العقوبة؟

قال: هو ما يضعه ولي أمر المسلمين من أصناف الروادع التي تمنع الجهلة من الجرأة على أجساد الناس.

قالوا: ولكن الشرع لم يرتب عقوبات معينة على المتطببين الجهلة.

قال: ليس بالضرورة.. فهذا من صلاحيات ولي الأمر.. فيمكنه أن يرتب بعد استشارة أهل الحل والعقد من أهل الاختصاص ما يراه رادعا من العقوبات.

قال أحدهم: هذا مما اتفق عليه البشر بجميع طوائفهم ومذاهبهم.. فلا يجوز اللعب بالصحة.

قال آخر: أجل.. ففي عهـد البـابليين وضـعت قـوانين صـارمه لمزاولة مهنة الطب، وتشددوا في محاسبة الأطباء على أخطـائهم، وقد تضمن قانون حمـورابي القواعـد المشـددة لمحاسـبة الأطبـاء حيث نصت المـادة 128منـه على مـا يلي:(إذا عـالج الطـبيب رجلا حراً من جرح خطير بمشرط من البرونز، وتسبب بـذلك في مـوت الرجل، أو اذا فتح خراجا في عينـه، وتسـبب بـذلك في فقـد عينـه، تقطع يداه)

قال آخر: وقد أمر الاسكندر الأكبر بصـلب الطـبيب جلـوكيس في الاسكندرية لإهماله في علاج مريض مما تسبب في وفاته.

قال آخـر: وفى عهـد الرومـان لم تكن هنـاك نصـوص خاصـة بالمهنة الطبية ممـا دعـا إلى تطـبيق القـانون العـام على الأطبـاء، وكانوا يعتبرون الجهل وعدم المهارة خطأ موجبـاً للتعـويض، وكـان الطـبيب يعتـبر مسـئولا عن التعـويض اذا لم يبـد درايـة كافيـة في إجـراء عمليـة أو أعطـاء دواء تـرتب عليـه مـوت المـريض، وكـان العقاب يختلف بحسب المركز الاجتمـاعي للطـبيب، فـإذا كـان من طبقة وضيعة أعدم، أما اذا كان من طبقة راقية نفي في جزيرة!

قال آخر: وفي العصور الوسطى في أوروبا اذا مات المريض بسـبب عـدم عنايـة الطـبيب أو جهلـه يسـلم الطـبيب إلى أسـرة المريض ويترك لها الخيار بين قتله أو اتخاذه رقيقا.

قــال آخــر: وكــانت محــاكم بيت المقــدس تحكم في عهــد الصليبيين في القرنين الثاني عشـر والثـالث عشـر الميلاديين بـأن الطبيب مسئول عن جميع أخطائـه، فـإذا تسـبب بجهلـه في وفـاة رقيق، وجب عليه أن يدفع ثمنه لسيدة، ويـترك المدينـة، وان كـان المجنى عليه رجلاً حراً، وكانت المسألة تتعلق بجرح بسيط أو سوء العنايـة بمـا لم يـترتب عليـه مـوت المـريض قطعت يـد الطـبيب، ويشنق الطبيب إذا مات المريض.

النصح

دخلت القسم الثالث من أقسام (دساتير الأطبـاء)، وقـد كـان الصفاء الخالص باديا على وجـوه أهـل هـذا القسـم، قـال أحـدهم: تعرفون اهتمـامي باللغـة.. فلـذلك فـإن في مصـطلح الطب دلالـة على ما ينبغي أن يكون عليه الطبيب.

قالوا: وضح لنا ما تقصد.

قـال: الطِّب يـراد بـه معـان في اللغـة، من أهمهـا الإصـلاح.. فالطبيب لا بد أن يكون مصلحا.

ومن معانيه اللطف والسياسة.. ولهذا على الطبيب أن يكـون لطيفا صاحب سياسة.

ومن معانيـه الحِـذق.. فلهـذا يحتـاج أن يكـون حاذقـا عارفـا بأسرار مهنته.

قال آخر: لم نأت لنتحدث هنـا عن أسـرار اللغـة ولا دلالاتهـا.. ولكنا جئنا للبحث في أصول النصح التي ينبغي وضـعها في دسـاتير الأطباء.

قال آخر: لقد بحثت في أصول ذلك، فوجدتها أربعة.

قالوا: نعلم أنها أربعة.. فما هي؟

قـال: تعليم المرضـى، ومراعـاة أحـوالهم، واسـتعمال جميـع وسائل الاستشفاء، ثم التنفيس عنهم.. ولا أرى أنكم سـتعانون في وجه الحصر فيها.

قالوا: صدقت، وبورك فيك.. فلا نرى شيئا من النصح يعدو ما ذكرت.. فلنبدأ الحديث عنها.

تعليم المريض:

قالوا: فما تقصد بتعليم المريض؟

قـال: لقـد رأيت في أرض الصـراع من العجـائب مـا ينقضـي دونه العجب.

قالوا: وما رأيت؟

قال: رأيت المريض يدخل على الطبيب، فيجده متجهم الوجه عبوسا قمطريرا لا يكاد ينبس ببنت شفة.

قالوا: فكيف يعرف علته؟

قال: يسأله كما تسأل الآلة.. وربما سـأله منتهـرا.. فـإن ذكـر علته وانتهى منها.. بادر إلى مكتبه ليكتب الوصفة.. ثم يسـلمه إيـاه بعد أن يقبض أجرتـه.. دون أن يخـبره عن سـر علتـه.. ولا إمكانيـة شفائها.. ولا ما تتطلبه من تدبير.. ولا نوع الدواء الذي سـلمه لـه أو كيفية استعماله.

قال آخر: وقد رأيت أعجب من ذلك.. من الأطبـاء من يـدخل جمعا من المرضى، ثم يسألهم بجانب بعضهم بعضـا لا يـراعي في ذلك حرمة ولا أدبـا.. ثم لا يجـد من الـوقت الكـافي مـا يشـرح بـه لمرضاه أسرار العلاج.

قال آخر: دعونا من عجائب أهل الصراع.. فقـد غـرهم بريـق الذهب ورنين الفضـة عن الإنسـان وعن كـل شـيء.. وحـدثونا عن أهل السلام.. وقوانين أهل السلام.

قال: من قوانين الطب عند أهل السلام لزوم تعليم المـريض أو من يحيط به من العلوم ما يحفظ عليهم الصحة.

قلت: لعلك تقصد الثقافة الصحية.

قـال: نعم، فحفـظ الصـحة للصـحيح أو المـريض يسـتدعي المعرفة بما تستوجبه الصحة من شروط.

قلت: فهل لذلك من دليل؟

قـال: لا تصـح الصـلاة إلا بعلم الفـرائض والسـنن والمـواقيت والمبطلات، ولا يصح الحج إلا بمعرفة السعي والطواف والوقـوف، كذلك لا يصح الصحيح إلا بعلم قوانين الصحة والمرض؟

قلت: فأنت تقيس حفظ الصحة بالعبادات التي هي توجه للـه بالعبودية؟

فقال: وهل يعبد الله بالعلل؟

قالوا: فلنتحدث عما يجب على الطبيب تعليمه المريض.

قال أحدهم: أول ما يجب تعليمه النظام الحيـاتي الـذي ينبغي أن يسير عليه في حياته من أكل وشرب ونوم، وما يتطلبـه مرضـه من تصرفات.

قالوا: ولكن ذلك قد يجعل المريض مدرسا أكـثر منـه طبيبـا.. ومن العامة من يثقل فهمه.

قال: إن نظم الحمية المتبعة مع الأمراض المختلفة محدودة.. فلذلك من الممكن تسجيلها على أوراق مطبوعة تسلم للمرضـى، كما تسلم الوصفة، ليتولى أهلهم شرح ذلك لهم.

قالوا: هذه فكرة جيدة.. وهي تكفي هذا الجانب.

قـال آخـر: ومن العلـوم الـتي أرى على الطـبيب تعليمهـا المـريض مـا يتعلـق بمرضـه من الناحيـة الجسـمية، كـأن يعـرف الأعضاء التي يرتبط بها مرضه، ومثلها الأجهـزة، ومن اليسـير طبـع أوراق خاصـة بـذلك أيضـا.. فـالأمراض المنتشـرة بين العامـة في عمومها محدودة.

قال آخر: ونرى أن يعلموا كيفية تناول الدواء.. فهنـاك أخطـاء كثيرة في هذا الجانب.

قال آخر: ونرى أن تذكر لهم مضاعفات الأدوية ليحترزوا منها.

قال آخر: ونرى أن نبين لهم نـوع تـأثير الأدويـة.. هـل هي من المسكنات، أم من المعالجات..

قال آخر: ونرى أن يذكر لهم كون المرض معديا أو غـير معـد حتى يطبقوا مـا أمرنـا بـه رسـول اللـه ﷺ من سـنن التعامـل مـع

الأوبئة.

قال آخر: أرى أن تكليف الطبيب بكل ذلك قد يرهقه.. فلماذا لا نقترح تأسيس عيادات خاصة بتثقيف المرضى.. ألم تنشأ الصيدليات لخدمة توزيع الدواء.. فلتنشأ عيادات خاصة تهتم بتثقيف المريض.. أو قد يرجع إليها إذا طلب الاستشارة!؟

قالوا: فكرة جيدة.. ولكن كيف تطبق؟

قال: تطبيقها سهل.. فالطبيب يكتب لهذه الجهة نوع المرض.. وهم يتولون شرح ما يتعلق به من المعلومات الخاصة التي يحتاجها.

مراعاة الأحوال:

قالوا: فما تقصد بمراعاة الأحوال؟

قال: للمرض أربعة أحوال: ابتداء، وصعود، وانتهاء، وانحطاط.. فالمرض لا يخلو من هذه الأحوال الأربع.

قالوا: فما فائدة التعرف عليها.

قال: هي فائدة جليلة.. فعلى الطبيب مراعاةُ كل حال من أحوال المرض بما يُناسبها ويليق بها، ويستعمِلُ فى كل حال ما يجبُ استعمالُه فيها.

قالوا: فاضرب لنا على ذلك مثلا..

قال: إذا رأى الطبيب في ابتداء المرض أنَّ الطبيعة محتاجة إلى ما يُحَرِّك الفضلات، ويستفرِغُها لنضجها، بادر إليه، فإن فاته تحريك الطبيعة فى ابتداء المرض لعائق منع من ذلك، أو لضعف القوة وعدم احتمالها للاستفراغ، أو لبرودة الفصل، أو لتفريط وقع، فينبغى أن يَحْذَرَ كل الحَذرِ أن يفعل ذلك فى صعود المرض، لأنه إن فعله، تحيَّرت الطبيعة لاشتغالها بالدواء، وتخلَّت عن تدبير المرض ومقاومته بالكلية.

قالوا: وضح لنا ما تريد.. فلكل قوم لسانهم.

قال: أقصد تشجيع المقاومة الذاتية في ابتداء المرض.. فإن كان المرض شديدا احتاج إلى استعمال الدواء.. ولم تجد المقاومة لضعف الجسم وقوة المرض.. ومثل ذلك مثل أن يجىءَ إلى فارس مشغول بمواقعة عدوه، فيشغله عنه بأمر آخر، ولكن الواجب فى هذه الحال أن يُعين الطبيعة على حفظ القوة ما أمكنه.

فإذا انتهى المرض ووقف وسكن، أخذ فى استفراغه، واستئصال أسبابه، فإذا أخذ فى الانحطاط، كان أولى بذلك.

ومثالُ هـذا مثـال العـدو إذا انتهت قُوَّتـه، وفـرغ سِـلاحُه، كـان أخذُه سهلاً، فإذا ولّى وأخـذ فى الهـرب، كـان أسـهلَ أخـذاً، وحِدَّتـه وشَوْكتُه إنما هى فى ابتدائه، وحال استفراغه، وسعة قُوَّتـه، فهكـذا الداء والدواء سواء.

قالوا: أراك تتعامل مع المرض كعدو يهجم على الإنسان.

قـال: أجـل.. فلـذلك أسسـنا الحصـون الـتي تحمي الـروح والجسد من العلل.

قالوا: أهذا فقط ما يراد بمراعاة الحوال؟

قال: لا.. هناك شيء أسميه التدرج..

قالوا: فما التدرج؟

قال: هو سنة من سنن الصالحين.. بل قبل ذلك هو سـنة من سـنن رب العـالمين.. فلـذلك من حِـذق الطـبيب أنـه حيث أمكن التدبير بالأسهل، فلا يَعْدِلُ إلى الأصـعب، ويتـدَّرج من الأضـعف إلى الأقوى إلا أن يخاف فَوتَ القُوَّة حينئذ، فَيجبُ أن يبتدىء بالأقوى.

قالوا: تقصد أن لا يبدأ بالدواء الأكثر تركيزا حتى يبـدأ بمـا هـو دونه.

قـال: أجـل.. ولهـذا ينبغي أن يسـجل التـاريخ المرضـي لكـل مريض، ويحفظ بحيث يتعرف الطبيب على كل ما أصاب المـريض من علل، وأنواع العلاج التي يستخدمها ليتسـنى لـه علاجهـا وعـدم حصول تداخل بين الأدوية.

قالوا: فكيف نطبق هذا؟

قال: أنتم أعلم بأمور ديناكم.. ولكن التقنيات التي توصلم لهـا في حفظ المال طبقوها في حفظ الصحة.. فحفظ الصحة أهم من حفظ المال.

قالوا: ما تقصد؟

قال: رأيت في بنوك أرض الصـراع كيـف تسـجل كـل جزئيـة صغير أو كبيرة ترتبط بالمال.. فالبنك يسجل كل ما يدخل أو يخرج بمواقيته.. وإلى كل الأمكنة تنتقل المعلومات.

قـالوا: أجـل.. يمكن تطـبيق مثـل هـذا مـع المرضـى.. بحيث تسجل كل معلوماتهم ليعالج على ضوئها.

قال: شيء آخر له علاقة بالتدرج..

قالوا: ما هو؟

قال: إذا أمكنه العِلاجُ بالغذاء، فلا يُعالِج بالدواء.. وإذا أمكنه أن يعتـاضَ عن المعالجـة بالاسـتفراغ بـالجوع أو الصـوم أو النـوم، لم

يستفرغه، وكُلّ صحة أراد حفظهـا، حفظهـا بالمثـل أو الشـبه، وإن أراد نقلها إلى ما هو أفضلُ منها، نقلها بالضد.

قال أحدهم: هـذا صـحيح.. ولهـذا.. فـإن المـريض في مـدائن السلام ينزل قسم البركة أولا.. ثم مطاعم الشـفاء.. ثم مزراعهـا.. ثم مصانعها.. فإن لم يجد كل ذلك نزل مناسجها.

قال: هناك شيء آخر له علاقة بهذا.

قالوا: ما هو؟

قال: إذا اجتمعت أمراض مختلفة في المـريض، فـإن لـه في ذلك منهجا خاصا رأيت أنه يتكون من ثلاث خصال.

قالوا: فما أولاها؟

قال: أن يكون بُرء الآخر موقوفاً على بُرئه كـالورم والقُرحـة، فإنه يبدأ بالورم.

قالوا: فما الثانية؟

قال: أن يكون أحدهُما سـبباً للآخـر، كالسَّـدة والحُمَّى العَفِنـة، فإنه يبدأ بإزالة السبب.

قالوا: فما الثالثة؟

قال: أن يكون أحدهما أهمَ من الآخر، كالحاد والمزمن، فيبــدأ بالحاد.. ومع هذا فلا يغفُلُ عن الآخر.. وإذا اجتمع المرض والعَرَض، بدأ بالمرض، إلا أن يكون العَرَضُ أقـوى كـالقُولنج، فيُسـكن الوجـع أولاً، ثم يُعالج السَّدة.

قالوا: بورك فيك.. فكل ما ذكرتـه ينبغي تسـجيله في دسـتور الأطباء..

قال: لقد ذكرت عشرين أمرا يحتاج الطـبيب الحـاذق الناصـح مراعاتها نرى أنها تستحق التسجيل.

قالوا: فما هي؟

قال: أولها: النظر فى نوع المرض من أى الأمراض هو؟

قالوا: والثانية؟

قال: النظر فى سببه من أى شىء حدث، والعِلَّةُ الفاعلةُ التى كانت سببَ حدوثه ما هى؟

قالوا: والثالثة؟

قـال: قـوة المـريض، وهـل هى مقاومـة للمـرض، أو أضـعفُ منه؟ فإن كانت مقاومةً للمرض، مستظهرة عليه، تركها والمـرض، ولم يُحَرِّكْ بالدواء ساكناً.

قالوا: والرابعة؟

قال: التعرف على نوع مزاج البدن الطبيعى ليرده إلى أصله؟
قالوا: والخامسة؟
قــال: التعــرف على المــزاج الحــادث على غــير المجــرى الطبيعى.
قالوا: والسادسة؟
قال: سِنُّ المريض.. فلكل سن علاجه الخاص به.. فما يصــلح للكبير لا يحصل للصغير.
قالوا: والسابعة؟
قال: عاداته.. فـإن لهـا تـأثيرا كبـيرا في التعـرف على سـبب مرضه.. وكيفية علاجه.
قالوا: والثامنة؟
قال: الوقت الحاضر من فصول السنة وما يليق به.
قالوا: والتاسع؟
قال: بلدُ المريض وتُربتُه.. فإن لكـل منطقـة جوهـا المناسـب لها.
قالوا: والعاشرة؟
قال: حال الهواء فى وقت المرض.
قالوا: والحادي عشر؟
قال: النظر فى الدواء المضاد لتلك العِلَّة.
قالوا: والثانى عشر؟
قال: النظر فى قوة الدواء ودرجته، والموازنة بينها وبين قــوة المريض.
قالوا: والثالث عشر؟
قال: ألا يكون كلُّ قصـده إزالـة تلـك العِلَّة فقـط، بـل إزالتُهـا على وجهٍ يأمن معه حدوث أصعبَ منها، فمتى كان إزالتها لا يــأمن معها حدوث عِلَّةٍ أخرى أصعبَ منها، أبقاها على حالها، وتلطيفها هو الـواجب، وهـذا كمـرض أفـواه العـروق، فإنـه مـتى عُـولج بقطعـه وحبسه خِيف حدوث ما هو أصعبُ منه.
قال أحدهم: بورك فيك.. هذا من المـواد الـتي ينبغي التركـيز عليها.. فكثير من الأطباء يعالجون عللا بسـيطة بأدويـة تنشـئ عللا أخطر من التي يريدون علاجها.
قالوا: فما الرابع عشر؟
قال: أن يُعالِج بالأسهل فالأسهل، فلا يَنتقِلُ من العلاج بالغــذاء إلى الدواء إلا عند تعذُّرِه، ولا ينتقِلُ إلى الدواء المركَّب إلا عند تعذرِ

الدواء البسيط، فمن حـذق الطـبيب علاجُـه بالأغذيـة بـدل الأدويـة، وبالأدوية البسيطة بدل المركَّبة.

قالوا: فما الخامس عشر؟

قال: أن ينظر فى العِلَّة، هل هى مما يمكن علاجُها أو لا؟ فإن لم يُمكن علاجُها، حفـظ صِـناعته وحُرمتَـه، ولا يحمِلُـه الطمـع على علاج لا يفيـد شـيئاً.. وإن أمكن علاجهـا، نظـر هـل يمكن زوالُهـا أم لا؟.. فإن علم أنه لا يمكن زوالُها، نظر هل يمكن تخفيفُهـا وتقليلُهـا أم لا؟.. فإن لم يمكن تقليلُها، ورأى أنَّ غاية الإمكان إيقافُها وقطـعُ زيادتها، قصد بالعلاج ذلك، وأعان القوة، وأضعف المادة.

قالوا: فما السادس عشر؟

قـال: ألا يتعـرَّض للخلـط قبـل نُضـجه باسـتفراغ، بـل يقصـد إنضاجه، فإذا تمَّ نضجُه، بادر إلى استفراغه.

قالوا: فما السابع عشر؟

قال: أن يكـون لـه خِبْـرة بـاعتلال القلـوب والأرواح وأدويتهـا، وذلك أصل عظيم فى علاج الأبدان، فإنَّ انفعال البدن وطبيعته عن النفس والقلب أمـرٌ مشـهود، والطـبيب إذا كـان عارفـاً بـأمراض القلب والروح وعلاجهما، كان هو الطبيبَ الكاملَ، والذى لا خِبْرة له بذلك وإن كان حاذقاً فى علاج الطبيعة وأحوالِ البدن نصفُ طبيب.

وكلُّ طبيب لا يداوى العليل، بتفقُّد قلبه وصلاحه، وتقويةِ روحه وقُواه بالصدقة، وفعل الخير، والإحسان، والإقبال على اللـه والـدار الآخرة، فليس بطبيب، بل متطبِّبٌ قاصر.

ومن أعظم علاجات المـرض فعـلُ الخـير والإحسـان والـذِّكر والدعاء، والتضرع والابتهال إلى اللـه، والتوبـة، ولهـذه الأمـور تـأثيرٌ فى دفع العلل، وحصول الشفاء أعظمُ من الأدوية الطبيعيـة، ولكن بحسب استعداد النفس وقبولِها وعقيدتِها فى ذلك ونفعه.

قال أحدهم: صـدقت.. وقـد رأيت في أرض الصـراع الأطبـاء الجفاة الذين يتعاملون مع الإنسان طينا لا روح فيها

قالوا: فأخبرنا عن الثامن عشر؟

قال: التلطفُ بالمريض، والرِّفق به، كالتلطُّف بالصبى؟

قالوا: فالتاسع عشر؟

قال: أن يستعمل أنـواع العِلاجـات الطبيعيـة والإلهيـة، والعلاج بالتخييل، فإنَّ لِحذَّاق الأطباء فى التخييل أموراً عجيبة لا يصل إليهـا الدواء، فالطبيب الحاذق يستعين على المرض بكل مُعين.

قالوا: فالعشرون؟

قال: هو مِلاك أمر الطبيب أن يجعل علاجَه وتدبيرَه دائراً على سِتَّة أركان: حفظ الصحة الموجودة، وردِّ الصحة المفقودة بحسب الإمكان، وإزالة العِلَّة أو تقليلها بحسب الإمكان، واحتمالُ أدنى المفسدتَيْن لإزالة أعظمهما، وتفويتُ أدنى المصلحتَيْن لتحصيل أعظمهما، فعلى هذه الأصول السِّتَّة مدارُ العلاج، وكلُّ طبيب لا تكون هذه أخِيَّته التى يرجع إليها، فليس بطبيب.

استعمال كل الوسائل:

قالوا: فحدثنا عن الركن الثالث من أركان النصح.

قال: لا ينبغي للطبيب أن يقصر في استعمال أي وسيلة علاجية يمكن أن تنهض بالمريض.

قالوا: ولكن قدرات الطبيب محدودة.

قال: لا بد من توفير هيئات أخرى تهتم بالصحة من غير الأطباء.. فهناك أدوية البركة.. وهناك المتوسمون.

قال أحدهم: نرى أن لفتح هذا الباب خطرا على صحة المجتمع.

قالوا: كيف؟

قال: لقد رأيت في أرض الصراع تلاعب الرقاة بصحة الناس.. وأخشى لو سمحنا للمتوسمين بهذا لعالجنا داء بأدواء.

قالوا: ولكن الناس يحتاجون إلى من يعالجهم بغير الأدوية العادية.

قال: فلنضع من الحلول ما نسد به ذرائع الفساد.

قال أحدهم: نرى اشتراط الزهد في المتوسمين.. فإن أكثر ما يجر الناس إلى هذا هو الطمع في الأموال.

قالوا: ولا تنس الجاه.. فهو أخطر من المال.

قال: صدقتم.. فلا بد أن نفكر في حل لهذه المعضلة..

قال آخر: نرى أن نترك هذا للواقع.. فلا نتعرض للحديث عنه.. ولكن نحذر من تلاعب المفسدين.

قال آخر: لا.. لا بد أن نضبط الأمور.. فإن الفساد قد يسري من غفلة ولي الأمر عن النقير والقطمير.

قلت: صدقتم.. بل قد يدخل الفساد من الخير.. فللشر من المنافذ ما يستحيل حصره.

قالوا: نراك غريبا.. فهلا أدليت بدلوك معنا.. لعل الله يفتح علينا بسببك ما نهتدي به.

قلت: لقد رأيت في (ابتسامة الأنين) من تمرنوا على الرقية

الشرعية البديلة عن رقيا المشعوذين.. فيمكن الاستعانة بهم.

قالوا: كيف؟

قال: يكونون تكوينا ممزوجا بين العلم والدين.. وطب الجسد وطب الروح ليعالجوا الناس على أساس الجمع بين الأمرين.

قالوا: صدقت.. ولكن منافذ الفساد.

قلت: لقد سمعت بوزارة الحزم.. فلتتول أمرها.

غرس الأمل:

قالوا: فحدثنا عن غرس الأمل.

قال: لقد أشار ﷺ إلى هـذا الـركن من أركـان النصـح، فقـال وهـو يعلمنـا كيـف نتعامـل مـع المرضـى:(إذا دخلتم على المـريض فنفسوا له في الأجـل، فـإن ذلـك لا يـرد شـيئا، وهـو يطيب بنفس المريض)[1]

قال آخر: وقد روي في الحديث أنه ﷺ زار أم العلاء الانصارية ـ وهي تتوجع ـ فقال لها:(أبشري يا أم العلاء، فـإن مـرض المسـلم يحـط اللـه بـه عنـه خطايـاه كمـا يحـط عن الشـجرة أوراقهـا في الخريف)

قـال آخـر: لقـد رأيت بعض الأطبـاء في أرض الصـراع يخـبر مريضه بما يحطم روحه وجسده.

قال آخر: لهذا ينبغي أن نذكر مادة تنهى الطـبيب عن تيـئيس المريض.

قالوا: ولكن المريض قد يضطر للتعرف على مرضـه ليعـرف كيف يتعامل معه وفي ذكره ما يحقق هذاالخطر.

قال: هناك أساليب يمكن أن يتفادى بها الطبيب هذا.. فيجمـع بين الحسنيين.. حسنى العلاج وحسنى التنفيس.

الخلق

دخلت القسـم الرابـع من أقسـام (دسـاتير الأطبـاء)، فـرأيت الطيبة بادية على وجوه أهله، وكأن جميع ما أنزل اللـه من مكـارم الأخلاق قد صورت في وجوههم وسلوكهم.

قال أحدهم: لا بد أن نحدد مقاييس أخلاق الطبيب.

قال آخر: الخلق واحد.. ولكن لكل محل أخلاقه المرتبطة به.. وبما أن الطبيب له علاقة بالمرضى، وهم شـديدو الإحسـاس فـإن وظيفته تستدعي أخلاقا لها علاقة بهذا.

قال آخر: أرى أن أصول أخلاق الأطباء أربعة..

---

1) الترمذي.

قالوا: نعلم ذلك.. ولكن ما هي هذه الأصول الأربعة التي ترجع إليها أخلاق الأطباء.

قال: لقد تأملت فوجدت أنها تنحصر في الإخلاص والرحمة والتواضع والرفق.

الإخلاص:

قالوا: فما تريد بالإخلاص؟

قال: الإخلاص هو الأساس الذي يقام عليه كل بنيان، وأساس الانحراف هو فقدان الإخلاص، كما أن أساس النجاح هو وجوده.

قالوا: لا نشك في قيمة الإخلاص.. ولكنا نسأل عن كيفية تخلق الطبيب به.

قال: لقد كنت في أرض الصراع.. فرأيت كثيرا من الأطباء أجشع من التجار.. فلا يقصدون من علاجهم إلا الطمع في المال الذي يمتلئ به جيب المريض.

قالوا: فإن كان جيبه خاويا.

قال: أعرضوا عنه.. بل منهم من يصرفه كما تصرف الكلاب.

قالوا: ولكن الطبيب يحتاج إلى أجرة على عمله.

قال: ولكن مع ذلك لا يصح أن ندع الفقراء يلتهمهم المرض.

قال آخر: إن فراغ جيوب الفقراء في أرض الصراع يحول بينهم وبين التداوي الذي يخص المترفين، فبعض العمليات عندهم تتطلب أموالا ضخمة تنوء بها كواهل الأغنياء فكيف بالفقراء؟

قالوا: ذلك لأنهم حولوا من الطب تجارة.

قلت: وهل هو شيء غير التجارة؟

قال: لا يصح أن تصبح الحاجات الأساسية للخلق تجارة.

قلت: أتقصد أن يداوي الأطباء مجانا؟

قال: الناس مختلفون، فيهم الغني الذي يقدر على أن يدفع، وفيهم الفقير ولا قدرة له على الدفع..

قلت: تقصد أن يقبض الطبيب من الأغنياء حق خدمته، ولا يقبض من الفقراء.

قال: هذا صحيح، فكيف يقبض منهم ما ليس عندهم؟

ضحكت، وقلت: لكأني بكم لا تعرفون هؤلاء الأطباء، إنهم لا يضعون سماعاتهم على صدرك حتى يضعوها على جيبك.

قالوا: كيف.. أجيبك ينبئهم عن مرضك؟

قلت: لا.. بل ينبئهم عن استحقاقك للعلاج أو عدم استحقاقك.

قال: أيتركونك للموت من أجل فراغ جيبك؟
قلت: هم يخلون أنفسهم من المسؤولية.
قال: فأين زكاة صناعتهم؟
قلت: يدفعون ربع العشر عند مرور الحول.. هـذا إن بقي لهم النصاب الذي لم يأت عليه ما يتطلبه الترف.
قالوا: هناك زكاة المال، وهناك زكاة الصناعة.
قلت: لا أعرف في أبواب الزكاة ما يسمى بزكاة الصناعة.
قالوا: ألا تعرف أن زكاة العلم إنفاقه؟
قلت: بلى، فلا يصـح أن يكتم العلم، وقــد قــال تعــالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ ﴾(البقـرة:159)،ـ و قـال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (البقرة:174)
وقد ورد في الحديث الشريف قوله ﷺ:(من كتم علمـاً يعلمـه ألجم يوم القيامة بلجام من نار)، وقد قـال ﷺ:(إن من الصـدقة أن تعين صانعاً أو تصنع لأخرق)
قالوا: أليس الطب علما من العلوم؟
قلت: بلى.. بـل هـو علم من العلـوم الشـريفة.. فلـولاه مـا حفظت الصحة التي هي الأصل لحفظ الدين.
قالوا: فكيف يكتمون ما يحفظ الصحة ولا يبذلونه؟
قلت: ولكن كيف يصـطادون المـال إن بـذلوا هـذا النـوع من العلم النفيس.
قالوا: لا نتصـور أبـدا أن تصـبح الصـحة موضـعا للتجـارة.. ولا أتصور طبيبا يقف أمام مـريض على شـفا المـوت، يتركـه لمعاناتـه لأجل خلو جيبه من المال.
قلت: هذا هو الواقع.
قالوا: هذا هو واقعكم.. أما واقعنا، فمختلف تماما.. اكتبوا كـل ما يقينا من هذه الانحرافات التي وقع فيها أهل الصراع.
قال أحدهم: أنا اقترح تأسـيس مستشـفيات للفقـراء تغـنيهم عن البخلاء من الأطباء.
قالوا: بماذا نؤسسها؟ وكيف نؤسسها؟
قال: بأموال المحسنين، وزكاة الأطباء.

الرحمة:

قالوا: فما يتعلق بدساتير الأطباء من الرحمة؟

قال: لا يصح أن يخلو قلب الطبيب من الرحمة.. فبالرحمة يعالج الطبيب.

قال آخر: هناك مسألة مهمة إن رأيتم أن نبت فيها هنا.. فلها علاقة بهذا الباب.

قالوا: وما هي؟

قال: ذهبت إلى أرض الصراع.. فرأيتهم يتصارعون فيما يسمى بالقتل الرحيم.

قالوا: وما رأوا؟

قال: الحديث عن ذلك طويل.. وقد نقلت صورة لما رأيت.. وسأعرضها عليكم في هذا الرائي.

التفتت الجماعة نحو جهاز كذلك الجهاز الذي رأيته في حصون العافية، والذي يعمل بتقنية قوس قزح.. لقد كانت الصورة واضحة، وكأن أعيننا هي التي انتقلت لا الصورة هي التي حضرت.

ظهرت صورة جمع من الناس مجتمعين كما في البرلمانات التي عهدناها، قال رئيس الجلسة(1): جلستنا اليوم تتمحور حول موضوع مهم أرجو أن نبت فيه.. وهو ما يسمى بالقتل الرحيم..

فهل من حق الطبيب الحكم بالإعدام على المريض الميئوس من شفائه؟.. هل نرحمهم من عذاب بلا نهاية؟.. هل نجعلهم يموتون بشكل إنساني رحيم؟.. هل نوفر عليهم وعلى أسرهم المعذبة استمرار نزيف المعاناة النفسية والمعنوية والمادية بلا أمل؟.. هل نريحهم من آلام الإبر المغروسة في أوردتهم ليلاً ونهاراً؟.. هل نخلع تلك الوصلات التي تربطهم بحياة هي في الحقيقة حياة وهمية؟.. هل نفعل ذلك ... أم نتمسك بأمل مجهول ... معجزة إلهية تدفع النبض من جديد في الجسد الكائن في سكون؟.. هل من حق الإنسان الميئوس من شفائه أن يظل حتى الدقيقة الأخير تحت العلاج ... حتى ونحن نعلم أنه علاج بلا جدوى؟.. هل تفرض علينا الإنسانية أن نبقي إنساناً ميتاً حياً ... أو حياً ميتاً على قيد الحياة؟

قال أحدهم: أنا من الهند.. وقد اجتمع مؤتمر الاتحاد الدولي لجراحي المخ والأعصاب بنيودلهى من 8-13 أكتوبر 1989 م

(1) انظر: القتل الرحيم: هل هو رغبة إنسانية أم دعوة شيطانية؟، الدكتور محمد السقا عيد، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة. وانظر: مجلة زهرة الخليج في عددها رقم 694 يوليو 1992 السنة الرابعة عشرة.

وأجمع أعضاؤه.. وكـانوا أربعـة آلاف طـبيب على اتخـاذ قـرار ينص على أنه في حالات الأمراض غـير القابلـة للشـفاء.. وفى المرحلـة الأخيرة يحق للطبيب بعد مناقشـة واضـحة وقـرار من المـريض أو أقرب أقاربه أن يحد تدخلـه من هـذا العلاج بشـكله المناسـب إلى قدر الإمكان لنوعية الحياة التي تقترب من نهايتها.

قال آخر: كنت معه في هذا المؤتمر، وقد نص أيضـا على أنـه من الواجب العناية بالمريض الذي على حافة الموت حتى النهايـة.. ولكن بطريقة تسمح للمريض بالمحافظة على كرامته.

قال آخر: كنت معهم.. وكان القـرار الـذي وافـق عليـه أربعـة آلاف طبيب من مختلف دول العالم على أن من حـق الطـبيب في إيقاف علاج المريض الذي أصبح ميئوساً من شفائه.

قال آخر: لقد أبدعنا في بلادنا (اليوتانيجا)

قالوا: وما (اليوتانيجا)؟

قال: تستطيعون تسميته (القتل من أجل الرحمـة) أو (القتـل يأساً من الشفاء)

قالوا: وضح ما تريد.

قال: هذه قضـية متفجـرة في أكـثر من دولـة في كـل أنحـاء العالم.. وهناك دول تمارس بالفعل ظاهرة القتل الـرحيم.. ولكنهـا حتى الآن لم تصدر التشريعات والقوانين التي تنظم ممارسـة هـذا العمل.

قالوا: إلى الآن لم نفهم ما تريد.

قال: سأضرب لكم مثـالا يوضـح لكم هـذا.. في مـارس عـام 1991 نشرت إحدي المجلات الطبيـة الأمريكيـة واقعـة حـول هـذا الموضوع أشارت الكثير من الجدل وفيها يـروي الطـبيب (تيمـوثي كيل) حالة المريضة (دياني) التي كانت مصـابة بسـرطان حـاد في الدم، وقـررت ألا تتنـاول جرعـة الـدواء الكيميـائي المخصـص لهـا، والتي وصفها لها الطبيب المعالج.. ونظراً لاقتناعـه بـأن ديـاني قـد اتخذت بالفعل القرار الحكيم، فقـد وصـف لهـا الطـبيب المحاليـل الكيميائية التي ساعدتها على التخلص من حياتها.

قالوا: وصف لها ما يقتلها.

قــال: أجــل.. وفى يوليــو في نفس العــالم رفضــت هيئــة المحلفين إدانــة الطــبيب (كيــل) بتهمــة مســاعدة المــريض على الانتحار.

ثم جاءت (المبادرة 119) وهى استفتاء ولايـة واشـنطن على

مشروع قانون يبيح ممارسة القتل الرحيم، ليصبح أكـبر دليـل على تزايد التأييد لهذه الفكرة في الولايات المتحدة.

قالوا: فهل يجد هذا تأييدا شعبيا عندكم؟

قال: أجـل.. ولم يقتصـر الأمـر على ذلـك.. ففي عـام 1990 كان الطبيب المتقاعد جاك كينعوركاتاب حديث العنـاوين الرئيسـية في الصحف عندما ساعد جانيت إدكيز، وهي سيدة مصابة بمــرض عضال على الانتحـار في مدينـة ميتشـجان باسـتخدام آلـة الانتحـار الـتي اخترعهـا.. والـتي من خلالهـا يسـتطيع المـريض حقن نفسـه بمادة سامة من خلال أنبوبة خاصة.

وفى سـبتمبر عـام 1991 سـاعد الطـبيب كيفـور اثـنين من مرضاه على الانتحار أيضاً في ميتشجان التي ليس لديها أي قوانين حدية تمنع تدخل الطبيب لمساعد مرضاة على الانتحار.

وفى أبريــل 1919 نشــرت جمعيــة هيملــوك كتــاب ديــري همفري (المخرج الأخير Final Exit) الـذي يصـف أكـثر من طريقـة للانتحار، ويقدم بيانياً كاملاً بالأقراص التي يستطيع الشخص تناولهـا للانتحار وعددها، وسرعان ما أصـبح هـذا الكتـاب في مقدمـة أكـثر الكتب مبيعاً في الولايات المتحدة الأمريكية.

وقد امتـدح مؤيـدو الكتـاب مضـمون الكتـاب واعتـبروه مـادة قيمة لمساعدة المرضي الميئوس من شفائهم.. خاصـة المصـابين بالإيدز الذين يخشـون فقـد السـيطرة على أنفسـهم وعـدم كيفيـة موتهم.

بـل إن انتشـار الكتـاب على هـذا النحـو قـد يـدفع أصـحاب الأمراض العصبية بقوة إلى الانتحار.

قال آخر: أنا من هولندا.. ولنا طرقنا الخاصة بالقتل الــرحيم.. فعنـدنا يعطي المـريض محاليـل بهـدف قتلـه رحمـة بـه.. وهـذه العقـاقير تصـيب المـريض بغيبوبـة عميقـة لا إفاقـة منهـا خلال 30 دقيقة على أن تضع حداً لحياته في غضون عدة ساعات.

قــال آخــر: أنــا من بلــده.. وقــد أصــدرنا وثيقــة خاصــة بـ (الليثمانميــا)، وصــدرت عن أطبــاء الجمعيــة الهولنديــة الملكيــة للأدوية.. وهي تنص على أنـه يجب عـدم منح المـريض أي عقـاقير خاصة بالهلوسة أو التشنجات.. وإن حصل احتمال للتقيؤ فيجب أن يواجه بإعطاء المريض المزيد من العقاقير.

ومنذ نحو 20 عاماً مضت قبل أن تصبح اليوتانجيا عملاً مقبولاً في النظـام الطـبي الهولنـدي كـان المـريض الـذي يطلب تطـبيق

اليوثانيي عليه يخاطر بمواجهة موت أقل راحة وكرامة.. ففي ذلـك الـوقت كـان الأطبـاء الـذين يشـعرون بالأسـي لوضـع حـد لآلام المرضي يلجئون إلى إصابة المريض بنسبه نقص السـكر من خلال حقن بجرعـات مضـاعفة من الأنسـولين وحقنـه بعقـاقير أخـري تسـاعد على إصـابة نوبـة قلبيـة، وأحيانـاً كـانوا يخنقـون المرضـي بالوسائد.

قال آخر: أما الآن فيتم تخيير المـريض بين حقن بعقـار سـام تحت الجلد حتى يغرق في غيبوبـة كاملـة يعقبهـا حقن آخـر بمـواد تساعد على ارتخاء العضلات من أجل شل عمـل الجهـاز التنفسـي علاوة على طـرق أخـري يتم خلالهـا قتـل المـريض المـيئوس من شفائه علي عدة مراحل تستغرق عـدة سـاعات من خلال عقـاقير سامة أيضاً.

قال آخر: والأمر يزداد شـدة.. ونخشـى أن يخـرج الأمـر على السيطرة.. فيصبح الأطباء منفذي إعدام أكثر منهم أطباء.. وخاصـة إذا أصبح الأمر بيد الطبيب، ولم يعد المريض هـو صـاحب القـرار.. فإن ذلك سيفتح الباب أمام ممارسات غير مشروعة لا أول لهـا ولا آخر وقد يصعب وقفهـا.. وليس بعيـداً عن الأذهـان تجـارة الأعضـاء التي أصبحت رائجة عند الكثيرين لدرجة أنـه يمكن التأكيـد على أن هناك طرقا خاصة بهذه التجارة.

أغلق الرائي بعد أن بث وقائع هذه الجلسة، فقـام المتحـدث، وقال: لقد سمعتم مـا يحصـل في أرض الصـراع، فـاذكروا رأيكم.. وانظروا كيف تسدون ذرائع الفساد.

قال أحدهم: أول شيء لا أتصور أنكم تخالفونه هو أنه لا يجوز لأحد أن يقتـل نفسـه، أو أن يقـرر أن يقتـل نفسـه، كمـا يـرى من سمعنا من المصارعين.

قال آخر: وقد دلت النصوص المقدسة على هذا، فالله تعـالى يقول: ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً ﴾(النساء:29)

قال آخر: وقد دل الحـديث الصـريح الصـحيح على هـذا، فقـد قال ﷺ:(من تردي من جبل فقتل نفسه فهو في نـار جهنم يـتردى فيها خالداً مخلداً أبداً، ومن تحسـي سـماً فقتـل نفسـه فسـمه في يده يتحسـاه في النـار خالـداً فيهـا أبـداً، ومن قتـل نفسـه بحديـدة فحديدته في يده يجأ بها في بطنه في نار جهنم خالداً أبدا)(1)

قال آخر: وفي حديث آخـر قـال ﷺ:(من قتـل نفسـه بشـيء

1) البخاري.

عذب به يوم القيامة)[1]

قال آخر: وفي حـديث آخـر، قـال ﷺ:(كـان رجـل ممن كـان قبلكم وكان به جرح فأخذ سكيناً نحر بها يـده فمـا رقـأ الـدم حـتى مات، قال اللّه عزَّ وجلّ: عبدي بادرني بنفسه حرمت عليـه الجنـة) [2]

قال آخر: المـادة الأولى المتعلقـة بهـذا إذن هي: حرمـة قتـل المريض لنفسه سواء بالفعل أو بالقرار.

قالوا: أجل.. فلا نظن أن هناك من يخالف في هذا.

قـال أحـدهم: بقيت مسـألة الاسـتمرار في العلاج من مـرض مـيئوس منـه، هـل يجب على الطـبيب والمـريض الاسـتمرار في العلاج، أم يجوز قطع العلاج في حال اليـأس؟.. مـع العلم أن قطـع العلاج يؤدي لا محالة إلى الموت.

قال آخر: أرى أن المقصـد من العلاج هـو حصـول الشـفاء أو تسكين الألم.. فإن لم يتحقق أحد الغرضين.. فلا جدوى من العلاج.

قالوا: ما تقصد؟

قـال: أي أن هـذا الشـخص إن كـان يسـتعمل الـدواء ليبقي بصيص الحياة.. ولكنه يظل ـ مع ذلك ـ يعاني، فأرى أنه لا حرج في وقف العلاج.

قـالوا: هـذه مسـألة خطـيرة لا يمكن البت فيهـا إلا بفتـوى الفقهاء.

قال: أظن أن هناك نصوصـا وردت عن الكثـير من الصـالحين في هذا، وهي تدل على عـدم لجـوئهم إلى الطـبيب إذا يئسـوا من الشفاء.. وهي تدل على أن القصد هو الشفاء أو تسـكين الألم مـع الاستمرار في الحياة..

قال آخر: لقد قـرأت نصوصـا كثـيرة عن هـذا.. منهـا أنـه لمـا مرض عبـد اللّه بن مسـعود قيـل لـه: ألا نـأمر لـك بطـبيب؟ قـال: الطبيب أمرضني[3].

قال آخر: ومن جهة أخرى، فإن هذا المـريض سـيجعل نفسـه وأهله في معاناة مسـتمرة.. وأعـرف أن بعضـهم ــ وكـانوا فقـراء محدودي الحال ـ أرسلوا والدتهم لإجراء عملية في الخارج بـأموال ضخمة، وقـد كـانت عجـوزا مسـنة، وكـان المـرض ميئوسـا منـه..

---

1) البخاري ومسلم.

2) البخاري ومسلم.

3) قال المنذري:« ذكره رزين في جامعه، ولم أره في شيء من الأصول، وذكره أبـو القاسم الأصبهاني في كتابه بغير إسناد » الترغيب والترهيب: 2/294.

ولكنها ما إن وصلت، وأجريت لها العملية حتى لفظت أنفاسها الأخيرة.

قال آخر: صدقت.. فلو أن هؤلاء تركوا والدتهم تموت بجانبهم كان أفضل لهم ولها.. ولو أن تلك الأموال الكثيرة التي ذهبت لجيوب المستشفيات الخاصة ذهبت إلى أهل الحاجة لكان أنجح لهم جميعا.

قال آخر: أظن أننا نتفق على هذه النقطة.. فالعلاج الواجب هو ما حقق مقصد الشرع من التداوي.. أما ما لا طائل وراءه إلا التعب فلا حاجة له.. والأفضل للمريض هو الاستسلام لقدر الله بالموت..

قال آخر: ولكن..لا بد من سد ذرائع الفساد التي قد يتخذها البعض لقتل مريضه قتل الرحمة الذي يتصوره.

قال آخر: هم يتصورون أن الرحمة في تخلصه من العذاب.. مع أن ذلك العذاب الذي يعانيه في تلك اللحظات من الرحمة.. لأن الله تعالى يطهره من ذنوبه، ولعل ذنوبه تغفر في تلك الدقائق التي تمتلئ ألما.

قال آخر: ولهذا أخبر ﷺ أن (موت الفجأة أخذة أسف)(1)

قال آخر: ولهذا كان ﷺ يتعوذ من موت الفجأة وكان يعجبه أن يمرض قبل أن يموت(2).

قال آخر: ولهذا أخبر ﷺ أن للموت سكرات.. وقد ورد في الحديث: أن رسول الله ﷺ كانت بين يديه ركوة أو علبة فيها ماء، فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه،ويقول:(لا إله إلا الله إن للموت سكرات)،ثم نصب يديه فجعل يقول:(في الرفيق الأعلى حتى قبضومالت يده)(3)

قال آخر: وفي هذه السكرات رحمة لا ينبغي أن نتسبب في حرمان المريض منها..

قال آخر: وقد روي في الحديث عن ابن مسعود قال: دخلت عَلَى النبي ﷺ، وهو يوعك فقلت: يا رَسُول اللَّهِ إنك توعك وعكا شديدا، قال:(أجل إني أوعك كما يوعك رجلان مِنْكم)، قلت:(ذلك أن لك أجرين) قال:(أجل ذلك كذلك، ما مِنْ مسلم يصيبه أذى: شوكة فما فوقها إلا كفر اللَّه بها سيئاته، وحطت عَنْه ذنوبه كما

1) أبو داود..
2) الطبراني في الكبير.
3) البخاري.

تحط الشجرة ورقها)[1]

قال آخر: ما دمنا قد بتتنا في هذا.. فلنتحدث عن نقطة مهمة اختلف فيها بعض أهل الصراع.

قالوا: وما هي؟

قال: هناك مرضى في عداد الموتى.. ولكنهم مرتبطون بأجهزة تمدهم بحياة صورية لا معنى لها.. مع العلم أن تكاليف هذه الأجهزة ضخمة لا يمكن تحملها.. وهي في نفس الوقت تجول دون استفادة الغير منها.

قالوا: هذه المسألة مثل التي قبلها.

قال: ولكن ألا يعتبر وقف الجهاز عن العمل نوعا من قتل المريض!؟

قال أحدهم: لقد تحدث الفقهاء عن هذا.. ففرقوا بين مجموعة صور للحياة.. فهناك الحياة المستقرة، وهناك الحياة غير المستقرة.

قال آخر: لقد قرر بعض الفقهاء المعاصرين[2] على أن الشخص يُعتبر ميتا إذا تبينت فيه إحدى علامتين:إذا توقف قلبه وتنفسه توقفاً تاماً، وحكم الأطباء بأن هذا التوقف لا رجعة فيه.. أو إذا تعطلت جميع وظائف دماغه تعطلا نهائيا، وحكم الأطباء الاختصاصيون الخبراء بأن هذا التعطل لا رجعة فيه، وأخذ دماغه في التحلل.

وفي هذه الحالة يسوغ رفع أجهزة الإنعاش المركبة على الشخص، وإن كان بعض الأعضاء لايزال يعمل آليا بفعل الأجهزة المركبة.

قال آخر: وقد وافق المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي في دورته العاشرة المنعقدة بمكة المكرمة (1408هـ) على رفع أجهزة الإنعاش وإيقافها متى تبين بالفحوصات الطبية المؤكدة من قبل المختصين بأن هذا الشخص قد مات دماغيا.

قال آخر: أيمكن الاستفادة من أعضاء هذا الذي حكم عليه بالموت؟

قال آخر: أجل.. وبهذا يمكن إنقاذ مئات المرضى الذين يعانون من فشل نهائي لأعضائهم الحيوية الهامة، وبالتالي إنقاذهم.

التواضع:

---

1) البخاري ومسلم.

2) مجمع الفقه الإسلامي في دورته الثالثة المنعقدة في عمان - الأردن - 1407هـ/ 1986م.

قالوا: فما تريد بالتواضع؟

قال: لقـد كنت في أرض الصـراع.. فـرأيت من عجـائب كـبر الأطباء ما ينقضي دونه العجب.

قالوا: عجبـا.. أطـبيب، ويتكـبر؟.. كيـف يتعامـل المـريض مـع طبيب مستكبر؟

قال: لقد رأيت من المرضـى من يـرتج عليـه إذا وقـف أمـام الطبيب.

قالوا: فما ترى من علاج لهذا؟

قال: أرى أن يتصرف الطبيب بكـل مـا يـزيح الهيبـة منـه من نفس المريض حتى يستطيع أن يصف له حاله.

قال آخر: ولا أرى ما يفعله كثير من الأطباء من الانقبـاض عن المرضى بحجة حفظ هيبتهم.. فقد كان ﷺ أعظم النـاس هيبـة مـع أنه كان أعظم الناس تواضعا.

الرفق:

قالوا: فما تريد بالرفق؟

قال: لقد نص رسول الله ﷺ على هـذا الخلـق، فقـد ورد في الحـديث عن أبي رمثـة قـال: دخلت مـع أبي على رسـول اللـه ﷺ فرأى أبي الـذي بظهـره[1]، فقـال:(دعـني أعالجـه فـإني طـبيب)، فقال ﷺ:(الله الطبيب)[2].. وقد ذكر ﷺ علة كون الله هو الطبيب الحقيقي، فقال:(الله الطبيب، بـل أنت رجـل رفيـق، طبيبهـا الـذي خلقها)

قال آخر: لقد قرأت نصوصا جميلة لابن الحـاج تتعلـق بهـذا.. إن شئتم قرأتها لكم.

قال آخر: لا حاجة لأن تقرأها.. فها هو ابن الحاج.. وسـيذكرها لكم.

قال ابن الحاج: من آداب المريض أنه عند مباشـرته لمريضـه يتعين عليه أن يؤنسه ببشاشة وطلاقة وجه ويهون عليه ما هو فيـه من المرض اقتداء بالسنة المطهرة.. وينبغي للطيب أن يكون أمينا على أسرار المرضى فلا يطلع إلا إذا علم أن المريض لم يـأذن لـه في ذلك إلا بقصد اسـتجلاب خواطرالاخـوان أومن يتـبرك بدعائـه.. وينبغي ألا يقعد مع الطبيب غيره لمن هـو مباشـر للمـريض وعـالم بحـال مرضـه بشـرط أن لا يسـتحى المـريض أن يـذكر مرضـه

---

1) وهو خاتم النبوة وكان ناتئاً فظنه سلعة تولدت من الفضلات.

2) الترمذي والنسائي مختصرا ومطولا وقال الترمذي: حسن غريب.

بحضرته.

ومن آكد ما على الطبيب حين جلوسه عند المريض أن يتـأنى عليه بعد سؤاله حتى يخبره المريض بحاله، ويعيد عليه السؤال لأن المريض ربما تعذر عليه الإخبار بحاله لجهله به أو تأثره بقوة ألمه.

قلت: أراك تنتقد كثيرا من أهـل عصـرك في المـدخل.. فهـل انتقدت الأطباء؟

قـال: كيـف لا أنقـدهم.. وكيـف أرضـى عن منكـرهم.. هم لا يمهلون المريض حتى يفرغ من ذكـر حالـه، بـل عنـدما يشـرع في ذلك فإن الطيب يجيب أو يكتب.. والحال أن المريض لم يفـرغ من ذكر حاله..

قلت: يزعم بعضهم أن ذلك من قوة المعرفة والحذق وكـثرة الدراية بالصناعة.

قال: لا.. فالعجلة لغير الطبيب قبيحة لمخالفتهـا لآداب السـنة المطهرة فكيـف بهـا في حـالات الطيب.. فيتعين على الطـبيب أن يسمع كلام المريض إلى آخره، فلعل آخـره ينقض أولـه أو بعضـه.. ولربما يغلط المريض في ذكر حالـه أو يعجـز عن التعبيرعنـه، فـإذا تأنى الطيب وأعاد عليه السؤال برفق أمن من الغلط.. فإن الغلط في هذا خطر لأن أصل الطب والمقصود منه هو معرفـة المـرض، فإذا عرف سلمت مداواته غالبا.

قالوا: وهل هناك ناحية أخرى تتعلق بالرفق؟

قال: أجل.. ينبغي للطيب أن لا يقتصـر على سـؤال المـريض وحده، بل يسأل من يخـدم المـريض إذ ربمـا يعـرف عن المـريض أكثر مما يعرفه هو.

قالوا: هذه ناحية مهمة.. فقد لا يعرف المريض كيف يعبر عن مرضه.

قال: وينبغي للطيب أن يعرف حال المريض في حـال صـحته في مزاجه ومرباه وأقليمه وما أعتاده من الأطعمة والأدوية، سـواء بالسـؤال من المـريض أو ممن يلـوذ بـه.. وإذا تعـذر عليـه ذلـك فليسأل عن والدي المريض، ويطبه بمقتضى حالهما.

قالوا: فهل هناك ناحية أخرى تتعلق بهذا؟

قال: أجل.. ينبغي للطبيب أن ينظر في حال المـريض.. فـإن كان مليا أعطاه من الأدوية ما يليق بحاله، وان كـان فقـيرا أعطـاه ما تصل إليه قدرته من غير كلفة ولا مشقة.

قالوا: فهل هناك ناحية أخرى تتعلق بهذا؟

قال: أجل.. ينبغي للطبيب أن يكون الناس عنده على أصناف فصنف يأخذ منه، وصنف لا يأخذ منه، وصـنف إذا وصـف لهم شـيئا من الأدويـة أعطى لهم مـا ينفقونـه فيـه.. فالصـنف الأول من لـه سعة في دنياه.. والصنف الثاني العلماء والصلحاء المسـتورون في حال دنيـاهم، فلا يأخـذ منهم شـيئا إلا أن يكـون محتاجـا.. والصـنف الثالث الفقـراء الـذين لا يقـدرون على كفـايتهم في حـال الصـحة، فهؤلاء يعطيهم ثمن ما يصفه لهم إن كان في سعة.

قالوا: فلنسجل كـل مـا ذكـره ابن الحـاج.. فكـل هـذه أخلاق يحتاج الطبيب إلى التحلي بها.

ثالثا ـ مصانع الشفاء

خرجت من مزارع الشفاء بالقناعات الكثيرة التي امتلأت بهـا من فضل الله على عباده بتيسير أنواع الدواء التي ترمم مـا يصـلح أجسادهم إلى الأجل الذي أراده الله لانتهاء الوظيفة، والتسريح من الخدمة، والإحالة على التقاعد.

فجأة لاحت لي لافتة كتب عليها (مصـانع الشـفاء).. فـدخلت، فوجدت كثرة كثيرة من الناس.. كـل واحـد في شـغل يختلـف عن شغل غيره.

أحسسـت بالحاجـة إلى السـؤال عن سـر هـؤلاء ووظيفتهم، وعلاقتهم بالمصـانع.. فجـاءني معلمي من غـير أن أجهـد نفسـي بالبحث عنه، وقال: هذه مصانع الشفاء..

قلت: قرأت ذلك.. ولكني أستغرب لهؤلاء.. وما يعملون؟

قال: هؤلاء يبحثون في صنع ما يشفي الخلق من آلامهم.

قلت: لقد علمت بأن أهل هـذه المـدائن يعتقـدون أن الـدواء أنزل من السماء.. ولم تصنعه يد الإنسان.. بـل رأيتهم يسـمون مـا نصنعه من الأدية سموما.. فكيف يستقيم هذا المصنع مع مبادئهم.. أم تراهم تخلوا عنها!؟

قال: لا.. هم لم يتخلـوا عنهـا.. ولكنـك أنت الـذي لم تفهمهم، ولم تفهم مبادئهم.

قلت: فما يقصدون؟

قـال: إن مـا حملتـه من بـذور الخطـأ الـتي اسـتوحيتها من كلماتهم ستصـحح لـك في هـذا القسـم.. فقـد وضـعوا فيـه قسـما مرتبطا بالضوابط الشرعية لاستخدام الأدوية المصنعة.

قلت: أتكون زيارتي لهذا القسم مرتبطة بهذا فقط؟

قال: أجل.. فمصانع هذا المستشفى تختلـف عن مصـانعكم.. وأدويتها غـير أدويتكم.. ولهـذا سـتمر ـ فقـط ـ على مـا يـبين لكم الأحكام المرتبطة بأدويتكم.

قلت: أهي أربعة.. كسائر ما رأيت؟

قال: أجل.. أما القاعة الأولى، فهي قاعة الشرعية.. فلا يحـل صنع الدواء الذي لم يأذن الشرع في صنعه.

قلت: والثانية؟

قال: قاعة الضـرورة.. وهي القاعـة الـتي تـبين لأحـوال الـتي

يجوز فيها استعمال هذا النوع من الأدوية.

قلت: والثالثة؟

قال: قاعة الموازنة.. وهي القاعة التي تتم فيها الموازنـة بين المصالح والمفاسد المنجرة عن صناعة الأدوية.

قلت: والرابعة؟

قال: قاعة البدائل.. وهي القاعة الـتي يبحث فيهـا عن بـدائل الأدوية المصنوعة بما هو أقل خطرا وأجدى نفعا.

الشرعية

سرت إلى القاعة الأولى المرتبطـة بقيـد الشـرعية، فوجـدتها بشكل مسجد جميل يجلس فيه الفقهـاء في حلـق مختلفـة ومعهم الأطباء.. وقد كان المنظر جميلا أغـراني بالـدخول، والانضـمام إلى حلقة من الحلقات.

تحدث أحـدهم، فقـال: من رحمـة اللـه تعـالى بعبـاده أنـه لم يجعـل دواءهم فيمـا حـرم عليهم.. فـالخبيث لا يـؤدي إلى الطيب.. والداء لا يوصل إلى الدواء.

قـال آخـر: لقـد وقـف الورعـون الموقـف الصـحيح من أول خطوة حين نظروا إلى المحرمـات على أنهـا علـل لا أدويـة، فهـذا الإمـام جعفـر الصـادق سـليل بيت النبـوة، سـأله بعض النـاس عن الخمر، فقال له:(ما يمنعك من الماء الذي جعل الله منه كل شيء حي؟)، قال: لا يوافقني قال:(فما يمنعك من العسل الذي قال الله فيه: ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾(النحـل:69)؟ قـال: لا أجـده. قـال: فمـا يمنعـك من اللبن الـذي نبت منـه لحمـك واشـتد عظمـك؟ قـال: لا يوافقني. قال:(تريد أن آمرك بشرب الخمر.. لا والله لا آمرك)

قال آخر: وسئل عن الـدواء يعجن بـالخمر، فقـال:(مـا أحببت أن أنظر إليه ولا أشمه، فكيف أتداوى به؟)

قال آخر: ومما يـذكر عن ابن النفيس أنـه فى مرضـه الأخـير وصـف لـه بعض الأطبـاء تنـاول شـيء من الخمـر، إذ كـانت علتـه تناسب أن يتداوي بها على ما زعموا، فأبي ان يتناول شيئا من ذلك وقال:(لا ألقي الله تعالى.. وفى باطني شيء من الخمر)

قال آخر: وهذا ليس من الورع المستحب.. بل هو من الــورع الــواجب.. فقــد ورد في النصــوص مــا يــبين حرمــة التــداوي بالمحرمات، فقد قال ﷺ:(إن الله أنزل الداء والـدواء، وجعـل لكـل

داء دواء، فتداووا، ولا تداووا بالمحرم)(1)

قال آخر: بل ورد في الحديث إخبار النبي ﷺ بعدم وجود داوء في المحرمات، فقال ﷺ:(من أصابه شيء من الأدواء، فلا يفــزعن إلى شيء مما حرم الله، فإن الله تعالى لم يجعـل في شـيء ممـا حرمه شفاء)(2)

قال آخر: وسأل بعضهم النبي ﷺ عن الخمـر، فنهـاه، أو كـره أن يصنعها، فقال: إنما أصـنعها للـدواء، فقـال ﷺ:(إنـه ليس بـدواء ولكنه داء)(3).. وفى حديث آخـر عن طـارق بن سـويد الحضـرمى؛ قال: قلت: يا رسول الله ؛ إن بأرضنا أعنابا نعتصرها فنشرب منها، قال:(لا)، فراجعته، قلت: إنا نستشفى للمريض، فقال ﷺ:(إن ذلك ليس بشفاء ولكنه داء)

قال آخر: وفي حديث آخر أنه ﷺ سئل عن الخمـر يجعـل فى الدواء، فقال:(إنها داء وليست بالدواء)(4)

مضار الحرام:

قال آخر: أنا طبيب.. وسأخبركم بما يوافق ما أخبر به ﷺ من كون الخمر داء لا دواء فيه.. وسأنقل لكم ما يقوله من لا يفرق بين الحلال والحـرام.. فهـذا الـدكتور أوبـري لـويس وهـو رئيس قسـم الأمراض النفسية في جامعة لنـدن يقـول فى أكـبر وأشـهر مرجـع طبي بريطاني(5):(إن الكحول هو السم الوحيـد المـرخص بتداولـه على نطاق واسع في العالم كله، ويجده تحت يده كل من يريـد أن يهرب من مشاكله.. ولهذا يتناوله بكثرة كل مضـطربي الشخصـية، ويــؤدي هــو إلى اضــطراب الشخصــية ومرضــها (Psycho-pathic Anomaly))

ثم يقول:(إن جرعة واحـدة من الكحـول قـد تسـبب التسـمم وتؤدي إما إلى الهيجـان أو الخمـود، وقـد تـؤدي إلى الغيبوبـة.. أمـا شــاربو الخمــر المزمنــون (ch Alcoholics) فيتعرضــون للتحلــل الأخلاقي الكامل مع الجنون)

قال أحدهم: لقد كان الأطبـاء يزعمـون في الأزمنـة الغـابرة.. بل على زمن رسول الله ﷺ.. بل حتى كثيرا من عـوام عصـرنا أن

---

1) أبو داود.

2) أبو نعيم في الطب ، وقد ورد موقوفا عن ابن مسعود: إنَّ اللهَ لَمْ يَجْعَلْ شِفَاءَكُمْ فِيمَا حَرَّمَ عليكم » وهو في البخاري وغيره.

3) مسلم.

4) أبو داود، والترمذى.

5) مرجع برايس الطبي- الطبعة العاشرة.

للخمر بعض المنافع الطبية.
قال: تلك أوهام كثيرة وقعوا فيها بسبب الجهل.. ولما تقدمت الاكتشافات العلمية بطلت تلك المزاعم وتبين أنها مجرد أوهام، وأن كلام الصادق المصدوق ﷺ عنها هو الحق الذي لا ريب فيه ولا التباس.
قلت: ولكن الله تعالى ذكر أن للخمر منافع، فقال: ﴿ يَسْأَلونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾ (البقرة:219).. فقد أثبت المنافع.. ولكنه أخبر بأن المضار أكثر من المنافع.
قال: صدقت.. منافع الخمر التي ذكرها القرآن الكريم هي بحسب ما يتوهمه الذين كانوا يقولون بإباحتها، وهي إما منافع مادية لمن يبيع الخمر ويتجر بها، ولكنها طامة كبرى على المجتمع وخسارة مادية أية خسارة..
وإما منافع طبية وصناعية وأغلبها موهوم.. مثل الاعتقاد بأن الخمر تفتح الشهية، وقد استخدمت الخمر كفاتح للشهية منذ أقدم العصور، واستخدمها اليونان والرومان والفرس والعرب وتفننوا فيها.. بل يستخدمها الأوروبيون اليوم وخاصة الفرنسيون وتدعى (Apenibf) أي فاتحة للشهية، وعادتهم أن لا يشربوا صعب الأطعمة إلا النبيذ.. ومثلهم الإيطاليون..
قلت: فهذه منفعة.. فكثير من الناس تسد شهيتهم، فيرق عظمهم ويسلمهم ذلك للموت المحقق.
قال: الخمر تكذب على أصحابها.. فهي تفتح الشهية أول الأمر، فتزيد من إفراز حامض المعدة كلور الماء (Hcl).. ولكنها بعد فترة تسبب التهاب المعدة.. وتعقب تلك المنفعة الموهومة مضرات وعواقب وبيلة وخيمة، أولها التهابات المعدة، وفقدان الشهية والقيء المتكرر وآخرها سرطان المريء.
قلت: ومن المنافع التي يذكرها بعض قومي حمايتهم من البرد.. وخاصة للذين يسكنون المناطق الباردة.
قال: كذبوا.. وقد جاء وفد اليمن ووفد من حضرموت إلى النبي ﷺ، وطلبوا منه أن يسمح لهم بشرب الخمر بحجة أن بلادهم باردة، فأبى ذلك.. فقد روي أن ديلم الحميري سأل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إنا بأرض باردة نعالج فيها عملا شديدا، وإنا نتخذ من هذا القمح نتقوى به على أعمالنا، وبرد بلادنا، فقال رسول الله ﷺ:(هل يسكر؟)، قال: نعم، قال:(فاجتنبوه) قال: إن

الناس غير تاركيه، قال:(فإن لم يتركوه فقاتلوهم)(1)

قلت: وما موقف العلم من هذا؟

قال: ألا يكفيك ما أخبر نبيك ﷺ؟

قلت: أنت من قومي.. وتعرف قومي..

قال: لقد جاء الطب الحديث بعد هذه الحادثة بألف وأربعمائة عام ليخبر بأن ذلك الدفء ليس إلا وهما.. فالخمر توسع الأوعية الدموية، وخاصة تلك التي تحت الجلد، فيشعر المرء بالدفء الكاذب، كما يحصل في أعياد الميلاد في أوروبا وأمريكا حيث يسكر كثير من الناس، ويبقى بعضهم في الشوارع والحدائق يتعرضون للبرد القارس، فيموتون من البرد، وهم ينعمون بالإحساس الكاذب بالدفء.

قلت: من المنافع التي يعتقدها قومي تأثيرها الصحي على مرضى القلب، وقد سمعت من يقول:(من أصابته أزمة قلبية، وكاد يموت فعلم أنه لو أخبره الطبيب بأنه لا يجد ما يدفع به الخطر سوى شرب مقدار معين من الخمر، فإنه يجوز له شربه)

قال: هذا خطأ فاحش، بل هو وهم قاتل.. فإن الخمر لا توسع الشرايين التاجية المغذية للقلب، كما كان موهوما من قبل، وإنما تضيقها.

قلت: كيف ذلك.. هذا من المعلوم عند العامة بالضرورة؟

قال: ومتى يؤخذ العلم عن العامة!؟.. إن الخمر تسبب في ترسيب الدهنيات والكوليسترول في جوفها، وبذلك تساعد على تسبب جلطات القلب والذبحة الصدرية، وخاصة مع التدخين.. فكلتا المادتين تساهمان في انسداد الشرايين التاجية، الأولى (أي الخمر) بترسيب الدهنيات والكوليسترول، والثانية بانقباض الشرايين وتضييق مجراها.

قلت:.. ولكن..!؟

قال: ليس ذلك فقط، بل إن للخمر خاصية أخرى تجعل منها داء للقلب لا دواء له.. فهي تصيب عضلة القلب بالتسمم (Toxic Cordionyopathy).

قلت: إن من قومي من يذكرونها علاجا للبواسير.

قال: قد كان ذلك في الأزمنة الغابرة(2)، وما دروا أن الخمر

---

1) أبو داود.

2) وقد روي أن أحدهم سأل الإمام الصادق عن رجل به مرض البواسير الشديد، وقد وصف له دواء من نبيذ لا يريد به اللذة بل يريد الدواء فقال: لا ولا جرعة. قيل: ولم؟ قال: لأنه حرام وأن الله لم يجعل في شيء مما حرمه دواء ولا شفاء.

تسبب البواسير وتهيجها وذلك إما مباشرة بسبب الاحتقان وتمدد الأوعية الدموية في الشرج.. وإما بواسطة تليف الكبد وازدياد ضغط الدم في الوريد البابي.

خبث الحرام:

قال أحدهم: والأمر لا يتوقف على ما يحمله الحرام من مضار.. بل إن الحرام يحوي ما هو أخطر من ذلك.

قالوا: وهل هناك ما هو أخطر من ذلك؟

قال: الخبث.. ولهذا ورد في الحديث أن النبي ﷺ سمى الدواء المحرم الدواء الخبيث، ففي الحديث: نهى رسول الله ﷺ عَنِ الدَّوَاءِ الخَبِيثِ(1).

قالوا: وما في الخبيث من المعاني؟

قال: ألا تعلمون أن الدواء ليس مجرد مواد تدخل الجسم، فيتوقف تأثيره عليها.. بل إنه يؤثر من جهات أخرى لا نعرفها!؟

قالوا: كيف ذلك؟

قال: إن الله تعالى برحمته لم يحرم الطيبات(2).. بل حرم الخبائث.. وهي ممحوقة البركة.. إذا نزلت الجسم لم تنزله لتداويه.. بل تنزله لتملأه بالأسقام.

قال آخر: ولكن البركة شيء معنوي.

قال: لا.. إن لها تأثيرا حسيا قويا.. لقد التقيت ببعض العلماء، فذكر لي سرا في عدم صحة الاستشفاء بها.

قالوا: فما ذكر لك؟

قال: لقد قال لي:(إن شرط الشفاء بالدواء تلقيه بالقبول، واعتقاد منفعته، وما جعل الله فيه من بركة الشفاء، فإن النافع هو المبارك، وأنفع الأشياء أبركها، والمبارك من الناس أينما كان هو الذى ينتفع به حيث حل، ومعلوم أن اعتقاد المسلم تحريم هذه العين مما يحول بينه وبين اعتقاد بركتها ومنفعتها، وبين حسن ظنه بها، وتلقى طبعه لها بالقبول، بل كلما كان العبد أعظم إيمانا، كان أكره لها وأسوأ اعتقادا فيها، وطبعه أكره شىء لها، فإذا تناولها فى هذه الحال، كانت داء له لا دواء إلا أن يزول اعتقاد الخبث فيها، وسوء الظن والكراهة لها بالمحبة، وهذا ينافى الإيمان، فلا يتناولها

---

1) الترمذي وغيره.

2) لقد حرم الله تعالى الطيبات على بعض الأمم من باب العقوبة، كما قال تعالى:﴿ فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً ﴾(النساء:160)

المؤمن قط إلا على وجه داء)(3)

قال أحدهم: صدق فيما قال.. فإن شرط الانتفاع بالدواء تلقيه بالقبول واعتقاد منفعته.. وهذا كلام يعرفه الأطباء.. وسمى هذا التأثير (Plucebo effect).

قالوا: فحدثنا عن هذا؟

قال: إن الأبحاث الطبية الحديثة تتجه إلى هذا.. فقد رأوا اختلاف تأثير الدواء الواحد في المجتمعات المختلفة، فبينما يؤثر الدواء في مجتمع بعينه بطريقة خاصة، يختلف ذلك التأثير ولو يسيرا في مجتمع آخر.. بل إن تأثير الدواء يختلف من شخص إلى آخر.

وقد ذكروا لذلك عوامل عديدة.. والعامل النفسي أحدها، فإن تلقى المريض الدواء بالقبول واعتقد منفعته حصل له، ولو نوع شفاء، وإن كان تلقيه له بسوء الظن فيه، واعتقاد مضرته، لم يحصل له نوع شفاء بل ربما حصل له نوع ضرر.

أما تأثير الدواء الخبيث أو المأكل أو المشرب الخبيث في النسل فهو باب جديد من أبواب الطب.. وقد كثر الكلام فيه بعد اكتشاف عقار الثاليدوميد (Thaludomude)، وهو عقار مهديء خال من المضاعفات، فلما أعطى للحوامل تشوهت الأجنة، وخرج الأطفال بدون أطراف.

وثارت قضايا أمام المحاكم في أوروبا، وخاصة في ألمانيا، حيث اكتشفت هذا الدواء، وسحب الدواء، ولكن الشركة التي أنتجته أفلست لفرط ما دفعت من غرامات وتعويضات.

قلت: فما ترى من تفسير لذلك؟

قال: إن الأغذية والأشربة تتحول بعد الهضم والامتصاص إما إلى طاقة تحرك الجسم ووقود للعقل والقلب، أو إلى مواد لبناء الأنسجة وإبدال التالف منها بجديد صالح.

قلت: أعلم هذا.. وقد رأيت تفاصيله في حصون العافية.

قال: ونحن نعرف الآن أن المواد النشوية والدهنية تتحول إلى طاقة بينما تتحول المواد البروتينية إلى خلايا وأنسجة، ويقع ذلك ضمن عمليات كيماوية معقدة فدورة كريب (Krebs cyde) مثلا هي مجموعة من العمليات الكيماوية البالغة التعقيد التي تحول سكر الدم في ميتوكوندريا الخلايا إلى طاقة مخزونة عبر ما يقرب من أربعين عملية كيماوية.

---

3) الطب النبوي: 124.

وتتحول ضمن دورة كريب وخارجها مجموعة من الأحماض الأمينية الهامة لبناء الخلايا والأنسجة، فالمواد البروتينية ليست إلا مجموعة ضخمة من الأحماض الأمينية هذه.

وهكذا ترى أن ما تأكله أو تشربه يتحول بالتالي إلى محرك لعضلة يدك أو عضلة قلبك أو قادح لزناد فكرك، أو يتحول إلى نفس تلك العضلة في اليد أو اللسان أو القلب، أو يجري في عروقك مع دمك مكونا الكريات الحمراء أو البيضاء أو الصفائح، أو حيوانا منويا يخرج من صلبك وترائبك.. أفلا يدخل في تركيب جسمك وتكوين فكرك بعد هذا ما تأكله أو تشربه من الخبائث كالخمر ولحم الخنزير وغيرها مما حرمها الله؟ بل إنها لكذلك.

الضرورة

سرت إلى القاعة الثانية، وهي القاعة التي تبحث في الضرورات المبيحة لاستعمال الأدوية الصناعية، فوجدت أهلها متفرقين كل يمسك بشيء من الأدوية، ويحاول أن يتعرف على وجه الضرورة فيها.

تقدمت إلى مجموعة منهم، فسمعت أحدهم يقول: لا شك أنكم تعرفون غرابة هذه الأدوية على بنيان الإنسان، فهي من طينة غير طينته، ومن شكل لا يلائم شكله.. ولكنها مع ذلك قد تصلح علاجا لكثير من الأمراض التي تعاني منها البشرية.. والتي لم نجد لها بعد علاجا كافيا شافيا.

قال آخر: سلمنا لهذا.. ولكن الذي ننكره هو المبالغات الكثيرة في استعمال هذه الأدوية.. فالطب المتداول يصف العقاقير الكيمياوية بأنواعها المختلفة من أقراص وكبسولات وسوائل وحقن، كما يصف المواد الغذائية[1].

قال آخر: وهو إذا ما فشل في استخدام الأدوية يلجأ إلى الجراحة.. وأثناء العملية الجراحية وبعدها، لا يكف هذا الطب عن هوسه بهذه الكيميائيات، فتراه يعطى المريض كميات أكبر من هذه الأدوية.

قال آخر: وليس الأمر قاصرا على هذا.. فالتجار يتنافسون كل يوم في صناعة الجديد من الأدوية، وهم لا يفكرون إلا في العقاقير الكيميائية.

1) هناك طرق علاجية يستعملها الطب الحديث، ولكنها لا تمثل إلا جزءاً يسيراً جداً من العلاج المتداول، كالعلاج الطبيعي من تمارين ومساجات، وتعريض بالإشعاع، والكهرباء وغيرها.

قال آخر: ومع عقم الكثير من هذه العقـاقير في علاج الكثـير من الحالات المرضية إلا أن الهوس يبقى مستمرا.

قال آخـر: لقـد لاحظت في أرض الصـراع أنـواع الغـرر الـتي يتعرض لها المرضى.. فكم من دواء يصدر من مؤسسات البحـوث وشركات الأدوية والدوائر الطبية المختلفة لمرض ما، وكأنه الترياق الذي يكسـر كـل علـة.. وإذا بـه بعـد أن يخـرج إلى السـوق، ويبـدأ الأطباء بوصفه للمـرض، بفـترة من الـزمن يتبـدد الأمـل ويكتشـف النـاس أن هـذا الـدواء الجديـد ليس أفضـل من سـابقه.. وربمـا اكتشفوا أنه أكثر إيذاءً بسبب الآثار الجانبية التي يخلفها.

قال آخر: لا أظن أننا اجتمعنا لمناقشة هذا..

قال آخر: نعم.. لقد جئنا لمناقشة مخاطر الأدوية لنبين الأصل في حكمها.. ثم نواحي الضرورة في استعمالها.

قالوا: فمن حضر لنا ما يمكن قوله في هذا؟

قال أحدهم: لقد درست مجموعة أدوية تستعمل على نطـاق واسع لعلاج حالة حموضة وقرحة المعدة والإثني عشري.

قالوا: فما وجدت؟

قال: الكثير من المخاطر التي تحتوي عليها هذه الأدوية.

قالوا: فصل لنا ما نحتاج إلى بت الحكم فيه.

قال: إن الطب المتـداول ــ في أرض الصـراع ــ لا يعتقـد أن التغذية الخطأ هي أهم أسباب حصول قرحـة المعـدة، وإنمـا يرجـع السـبب إلى عـدوى من الأسـنان أو اللـوزتين أو الأمعـاء، أو عـدم وصول الدم بشكل كاف مما يؤدي إلى حصـول القرحـة، وقـد رأوا أنه بما أن حامض الهيـدروكلوريك موجـود بكـثرة في المعـدة فإنـه يبقي القرحة مفتوحة.

قالوا: فماذا اقترحوا لعلاج هذا؟

قال: لقد قادهم هذا إلى نظام غذائي قلـوي، وإلى اسـتعمال عقاقير ضد الحموضة، وأخرى لتـأخير إفـراغ المعـدة من الطعـام، وثالثة لتقليل إفراز الحامض المعدي.

قالوا: فما وجه الخطر في هذا؟

قال: هناك، بصفة عامة، نوعان من مضادات الحموضة، الأول القابلـة للامتصـاص، ومنهـا بيكاربونـات الصـوديوم، وكاربونـات الكالسيوم، فامتصاص أيّ منهمـا يسـبب حصـول مسـتويات عاليـة من أملاح الصوديوم والكالسيوم في الجسـم، والنتيجـة ازديـاد في قلوية الدم والأنسجة.

قـالوا: إلى الآن لا نـرى لهـذه الأدويـة أي خطـر.. فلم تشـنع عليها؟

قال: اصبروا.. فبعد دراسـتها وتجربـة المرضـى الكثـيرين لهـا رأيت أن من أهم أعراضــها الغثيــان والضــعف والصــداع، ثم من الممكن أن تؤدي إلى تلف الكلى، ومن الممكن أن ترفع مستويات الكالسـيوم في الـدم ممـا يـؤدي إلى تكلس الأنسـجة والأعضـاء الناعمة.

قالوا: هـذه مخـاطر عظيمـة لا ينبغي التوقـف في تحـريم مـا يؤدي إليها.

قال: أما النوع الثاني، وهي مضـادات الحموضـة غـير القابلـة للامتصـاص، ومنهـا هايدروكسـيد الألمـنيوم، فإنـه يقلـل مسـتويات الفوسفات في الدم، مما يـدفع الجسـم لاستخلاصـها من العظـام، وهذا يسهم في ضعف العظام.. بل يصـبح العظم فاقـداً للملح إلى درجة تجعل حصول الكسور سهلة نسبياً.

إضـافة إلى ذلـك احتمـال الإصـابة بالإمسـاك.. كمـا أنـه من الممكن ـ على الرغم من اعتباره غير قابل للامتصاص ــ أن يـذوب رافعاً نسبة الألمنيوم، وهو مادة سامة إذا ما كان مستواه عاليا.

قالوا: لا شك في المخاطر التي يحملها مثل هذا الدواء.. فمـا المخاطر التي تؤخر من إفراغ المعدة من الطعام؟

قال: من آثارها الجانبية الأقل شيوعا، ولكن الأخطر، احتبـاس البول، وحالة الماء الأزرق في العين، كما أنـه من الممكن حصـول انسـداد كامـل للفتحـة البوابيـة عنـد هـؤلاء الـذين عنـدهم إنسـداد جزئي، ولهذا لا يجوز وصفه لمن لديه قرح في المريء.

قالوا: والأدوية التي توصف لتقليل إفراز الحامض المعدي؟

قال: منها السميتدين والرانيتدين.. ومن آثارها البسيطة الــتي من الممكن أن تحـدث الإسـهال وآلام العضـلات والـدوار والطفح الجلدي.. كما تم تسجيل حالات نادرة من العقم، بالإضافة إلى آثـار أخــرى حصــلت بســبب بعض الخــواص الهرمونيــة الجنســية في السميتدين.. بالإضافة إلى ذلك سجلت حـالات التهـاب البنكريـاس والتهاب الكلى معه أيضاً.

قالوا: لقد عرفنا المخاطر التي تحويها مثل هذه الأدوية.. فهل من بدائل عنها؟

قال: هناك بدائل كثيرة، تمتلئ بها مطاعم الشفاء ومزارعـه.. ولكن الناس يأبون إلا هذه الكيميائيات.

قــالوا: فليفت الفقهــاء بحرمــة مثــل هــذه الأدويــة وعــدم استعمالها إلا للضرورة القصوى.

قال: هم يخافون.

قالوا: ممن!؟.. إن الفقيه لا يخاف إلا الله.

قال: هم يخافون أن يرمـوا بـالتخلف إن هم تحـدثوا في مثـل هذا.. وهم يروون قوله ﷺ: (أنتم أعلم بأمور دنياكم)

قالوا: فليخبروهم أن يرووا معه قوله ﷺ:(لا ضرر ولا ضرار)

التفتوا إلى خبير كان جالسا معهم، وقالوا: وماذا وجدت أنت؟

قــال: لقــد بحثت في الأدويــة الــتي توصــف لعلاج حــالات الروماتزم وأمراض المفاصل، فوجدت لها من المخاطر ما سأصفه لكم.

قـالوا: من الأدويـة المسـتعملة الأسـبرين.. ولا نـرى لـه من المخاطر، بل هو من الأدوية الآمنة.

قال: نعم ذلك صحيح.. ولكن ذلك يصح مع القرص والقرصين ولوجع الرأس أو البرد.. أما إذا زادت الجرعة عن 2.4 غم فإنه من المؤكـد تقريبـا أن يصـاب المـريض بآثـار جانبيـة قويـة لا شـك في خطورتها.. منها القـرح المعديـة والـنزيف الـذي يـؤدي إلى فقـدان الدم إلى درجة خطيرة في بعض المرضى.. ومنها الغثيـان.. ومنهـا تأثر السمع إلى درجـة سـماع رنين في الأذن، بـل والصـمم.. ومن الأمور العادية حصول الدوار الترنحي عند تناول جرعات عاليــة من الأســبرين، وحــتى التشــوش الــذهني.. ومن الممكن أن يصــبح المريض شديد الحساسية بحيث يحصل معـه حالـة احتبـاس المـاء في الجسـم، إضـافة إلى الطفح الجلـدي.. وفي حـالات معينـة قـد تحصل حالات دم مرضية نادرة كفقدان القدرة على إنتاج الصـفائح الدموية.

على أن هناك آثار أكثر خفـاء لهـذا العقـار هي تـدمير وزيـادة إفراز فيتامين أ وحامض البنتوثينيك وهـو من مجموعـة فيتـامين ب المـركب.. وهـو أمـر محـزن حقـا لأن هـذين الفيتـامينين يلعبـان دوراًضرورياً في تخفيف التهاب المفاصل، وفي العمليات المختلفـة للجسم المساعدة على مقاومته المرض.

قالوا: فما علاج كل هذه الحالات التي وصفت؟

قال: ليس هناك أي حل لهذه الآثار الجانبية سوى التوقف عن تناول الأسبرين.. مع ذلك، فقد وجدت أن من هذه الآثار ما لا يمكن شفاؤه بعد ذلك.

قالوا: ولكن ألم يضعوا بدائل أخرى؟

قال: هناك الفينلبيوتازون، وهو ـ مثل الأسبرين ـ يسبب نـزف المعـدة، قـد حصـل لي هـذا شخصـيا حيث لم يتوقـف الـنزيف إلاّ بإجراء عملية جراحية كبيرة، والتي كان لهـا مضـاعفات غـير قابلـة للتقويم.

بالإضافة إلى هذا، فإن له أثرين جانبيين نادرين وخطرين

قالوا: ما هما؟

قال: هذا العقار يسبب احتبـاس المـاء، وفي بعض المرضـى، يكـون هـذا إلى الدرجـة الـتي تـؤدي إلى عجـز القلب.. أمـا الأثـر الخطير الآخـر فهـو مـرض من أمـراض الـدم، حيث يتوقـف نخـاع العظـام عن إنتـاج كريـات الـدم البيضـاء، وهـو مـا يقلـل المناعـة الطبيعية للجسـم ضـد الأمـراض، فيـترك المـريض فريسـة سـهلة للعدوى.

قالوا: ما نسبة ندرة هذا الخطر؟

قال: هو ليس نادرا ندرة حقيقية، فهذه الآثار الجانبيـة تصـيب 20 بالمائـــة إلى 40 بالمائـــة من المرضـــى الـــذين يأخـــذون الفينلبيوتازون.

بالإضــافة إلى أن من آثــاره الجانبيــة العامــة قــرح المعــدة والـنزيف والغثيـان واحتبـاس المـاء وارتفـاع ضـغط الـدم والـدوار الـترنحي والأرق..أمـا الطفح الجلـدي وتضـخم الغـدة الدرقيـة في أمراض الدم المميتة والتهاب الكلى فنـادرة ولكنهـا أكـثر خطـورة، وعندما يحقن فإنه قد يؤدي إلى حدوث خراجات وتلف عصبي.

قالوا: هذه سموم وليست أدوية.. فهل هناك بدائل أخرى؟

قــال: من العقــاقير الـتي يمكن مقارنتهـا بهـذا العقـار، في مجموعة العقاقير غير السـتيرويدية، الأنّدوميثاسـين والنابروكسـين والفنبوفن والأبوبرولمن والسلنداك وغيرها.

قالوا: أهذه عقاقير آمنة؟

قال: لا.. بل لهذه العقاقير آثار جانبية مشابهة لتلـك الـتي في الفينلبيوتازون.. إضافة إلى الحساسية، وبضمنها الربو، واختلاطـات الكبد والكلية.

قلت: مـــا بالـــك لا تـــذكر الكـــورتزون وهورمـــون الأدرينوكورتكوتروفك[1] (ACTH).. وكلاهمـــا من الهرمونـــات الطبيعية.. فالأول هورمون طبيعي تفرزه الغـدة الكظريـة، والثـاني

---

1) يعطى لتحفيز الغدة الكظرية لإفراز الكورتيزون.

هورمون طبيعي أيضاً تفرزه الغدة النخامية.. ويعطى كلاهما زيــادة نسبة الكورتزون في الجسم.

قال: أجـل.. لقـد تم التصـفيق لهـذين العقـارين على أسـاس أنهما الدواء الشـافي من الرومـاتزم والتهـاب المفاصـل.. ولكنهمـا في الحقيقة ليسا علاجاً شافيا، فهما لا يؤثران في العلاج، بل أنهمـا يحجزان ما يسبب المرض عن المريض.

قلت: لا حــرج في أن ينعم المــريض ببعض الراحــة.. وهــل الحياة إلا أيام وساعات!؟

قال: ذلـك التـأثير لا يـدوم إلا فـترة قصـيرة، يشـعر المـريض حينها بالراحة وزوال الآلام بالإضافة إلى ما يستتبعها من الكآبــة، ثم تحصل الانّتكاسة بعد مـدة قصـيرة.. وقـد تكـون بالسـاعات ليعـود المريض إلى أسوأ مما كان عليه.

قالوا: فما الآثار الجانبية لهذه العقاقير؟

قال: من الآثار الجانبية لهذين العقارين زيادة إمكانية التعـرض لشلل الأطفال.. ويعتقد بعض الأطباء أنه إذا مـا اسـتعملت بشـكل غير دقيـق، فإنهـا من الممكن أن تسـبب ضـعف عظـام المـريض، بسبب تقليل الأملاح منهـا ممـا يـؤدي إلى الكسـور.. وقـد سـجلت حالات تأثر كبير لفقرات العمـود الفقـري بعـد الاسـتعمال الطويـل للكورتيزون، وكل ذلك بسبب نقص حاد في الكالسيوم والفســفور والنتروجين، بسبب الكورتيزون كما يعتقد الأطباء.

بل إن المجلات الطبية تحذر من أخطـار الكورتـيزون فتقـول بعضها بأنه يشل دفاعات الجسم الطبيعيـة ضـد العـدوى، وأنـه قـد يســبب أعرضــاً مضــرة في حــالات الســل وانفصــام الشخصــية والسكري وقرحة المعدة.. كما أنه، وربمـا كـان أسـوأ من الجميـع، يغطي تقدم المرض عن الطـبيب والمـريض بحيث لا يعرفـان بـأنّ المرض قد تقدم.

وبعـد التوقـف عن تنـاول العقـار تعـود الأعـراض إلى سـابق عهدها، وربما أسوأ، وقـد يصـاب المـريض بالعـدوى بسـبب هبـوط مناعته ضد الأمراض.

وبعــد أخــذ عينــات من غــدد بعض المرضــى الــذين يأخــذون الكورتيزون، وبعضهم لمدة خمسة أيام فقط لوحظ حدوث ضــمور في الغدد الأدرينالية، فتصور الحال بعد سنين من استعماله.

هـذا بالإضـافة إلى احتمـال حصـول ردود الفعـل الحـادة في مختلــف أنحــاء الجســم مثــل الجلــد والكليــتين والــدم والأعضــاء

التناسلية والشعر والمعدة والعقل والشخصية والأعصاب والقلب والأوعية الدموية.. ولعل أكثر أثر جانبي وضوحاً هو الوجه المدور للمرض الذين يتعاطون الكورتيزون، وكذلك علامات الشد والبثور في الوجه.

قالوا: فهل اخترعوا أدوية أخرى لا تحمل هذه الآثار؟

قال: اخترعوا الستيرويدات الكورتيزونية، وهي هرمونات صناعية دخلت السوق على أساس أنها أقل ضرراً من الكورتيزون، إلا أن التجربة أثبتت أنها تحدث آثاراً جانبية خطيرة كالكورتيزون.

قال أحدهم: سمعت عن حقن الذهب.. فهل بحثت فيها؟

قال: أجل.. وهي تستعمل عندما تفشل كل العقاقير الأخرى، ودائماً تتوقف المعالجة عندما تبدأ أمراض الدم ومشاكل الكلية بالظهور، أما الطفح فشائع ويؤدي ظهوره إلى توقف المعالجة.. ومن آثارها الجانبية الأخرى قرح الفم، واحتباس الماء، والتهاب القولون، واضطرابات عصبية، ومشاكل رئوية.

الموازنة

قصدت القاعة الثالثة من القاعات التي يناقش فيها أهل الحل والعقد في (مصانع الشفاء) ضوابط استعمال الأدوية الكيميائية، فقرأت لافتة مكتوبا عليها قوله تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴾ (الرحمن:7 ـ 8)

سمعت أحدهم يقول: لا يكفي أن ننكر أو نقر.. بل لا بد من وضع موازين تضبط التعامل مع هذه الأدوية التي مزجت بين كونها ترياقا، وكونها سموما.

قالوا: ما تقصد بذلك؟

قال: لقد قسم الفقهاء الأشياء إلى ثلاث حالات: أما الأولى، فهي أن يكون فيها ضرر محض ولا نفع فيها البتة، والثانية أن يكون فيها نفع محض، ولا ضرر فيها أصلًا، والثالثة: أن يكون فيها نفع من جهة وضرر من جهة.

أما الضرر المحض، فلا شك في حرمته لقوله تعالى: ﴿ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إلى التَّهْلُكَةِ ﴾ (البقرة:195)، وقوله ﷺ: (لا ضرر ولا ضرار)

وأما المنفعة المحضة، فلا شك في إباحتها.

قالوا: والضرر المختلط بالنفع؟

قال: يوازن بينهما.. فإن كان الضرر أشد أفتي بالحرمة.. وإن

كان أقل أفتي بالجواز المضبوط بضوابط الضرورة.
قالوا: فكيف نطبق هذا على الأدوية المصنعة؟
قال: هذا يطبق على الصانع، وعلى الطبيب،وعلى المريض.
قالوا: فصل ذلك.
قال: لقد كنت في أرض الصـراع، فوجـدت العجب العجـاب.. لقـد رأيت الجميـع يتنافسـون في زرع ابتسـامة لحظيـة على فم المريض ليستلوا ما في جيبه، فإذا ما عاد الألم عـادوا، واسـتلوا مـا في جيبه مقابل ابتسامة أخرى.. وهكذا.
قالوا: وإلى أن ينتهي بهم هذا؟
قال: إلى زرع الآلام في جميع جسده.. وحينذاك يعلقوه بحياة وهمية خير منها الموت.. بل إنهم قد يبيعون له المـوت المبتسـم.. ألم تسمعوا عن الموت الرحيم؟
قالوا: بلى.. فما ترى من علاج لهذا؟
قال: لقد وضعت دراسة طويلة في هـذا درسـت فيهـا جميـع الأدوية المصنعة في أرض الصراع.
قالوا: من أي ناحية درستها؟
قال: من جهة مضارها ومنافعها.
قالوا: كيف ذلك؟
قال: لقد رأيت بعض الأدويـة ــ مثلا ــ يوقـف ألم الـرأس في لحظات معدودات.
قالوا: هذا منفعة محضة.
قال: ولكني وجدته يؤذي جميع أجهزة الجسم ابتـداء من الفم الذي يمر عليه.. فهو لا يمر على شيئا إلا خلف خلفه ضررا..
قالوا: فبماذا حكمت على هذا النوع؟
قال: هذا النوع ضرر محض.
قالوا: لم.. لقد ذكرت أن له منفعـة في وقـف إيلام الـرأس.. أليس ذلك منفعة؟
قـال: بلى.. ولكن هنـاك بـدائل كثـيرة لهـذا.. وهي لا تضـر بشيء.. أما هذا السم الذي آذى كل أجهـزة الجسـم، فـإن منفعتـه منفعة موهومة.. إنه مثل التخدير الذي تلقاه الدجاجات المسكينات قبل ذبحها.
قالوا: فهل بحثت في البدائل؟
قال: ذلك من شأن أهل البدائل في القاعـة المجـاورة.. وقـد أنبأوني على الكثير منها.

قالوا: فاذكر لنا أمثلة على اختلاط النفع بالضرر.

قال: قد يصاب الإنسان بجراثيم فتاكة، فيضطر إلى استعمال بعض الأدوية المصنعة بسبب إهمال البحث في البدائل.. ففي هذه الحالة يجوز استعمال هذه الأدوية مع الإقرار بضـررها باعتبـار ذلـك محدودا من جهة، وضرورة من جهة أخرى.

البدائل

خـرجت إلى قاعـة البـدائل(1)، وقـد كنت أتصـورها كسـائر القاعات، لكني لما دخلتها وجدتها مستشفى قائمـا بذاتـه، وبمجـرد دخـولي سـمعت همسـات فارحـة داخلهـا، فأصـخت بسـمعي إلى بعضها، فسمعت هذا الحوار:

قال الأول: لقد قدم ـ اليوم ـ الحكماء السـبعة الـذين أرسـلوا إلى الأقاليم للتعرف على بدائل الدواء.

قال الثاني: وهل جاءوا بشيء؟

قال الأول: لقد جاءوا بأشـياء كثـيرة.. وهم يزعمـون أن لكـل مرض ما لا يحصى من أنواع الأدوية.

قال الثاني: إنهم سيقضون بهذا على ما تنتجه مصانع الصـراع من أدوية.

قال الأول: ولكنهم أخبروا عن مـدى الإيـذاء الـذي تلقـوه من هذه المصانع، بل من المرضـى الـذين امتلأت أفـواههم بالسـخرية منهم.

قال الثاني: فهل تأثروا بذلك؟

قال الأول: لا.. هم مقتنعون تماما بما يفعلون.. ولهـذا لا يـؤثر فيهم شيء.

قال الثاني: وما سبب قناعتهم؟

قال الأول: لقد لاقوا من فتـك الأدويـة الصـناعية مـا جعلهم لا يرتدون القهقرى.

قال الثاني: كيف فكر هذا المستشفى في إرسالهم؟

قال الأول: لقد سمعوا قوله ﷺ:(اطلبـوا العلم، ولـو بالصـين، فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم)(2)

قال الثاني: ولكن الحديث ضعيف.. وعهـدي بهم ينفـرون من الضعيف.

---

1) أكثر ما نورده في هذا المبحث من معلومات علمية موجودة بمواقع الطب البـديل، وهي مواقع كثيرة متشابهة.

2) العقيلي وابن عدي والبيهقي في شعب الإيمان وابن عبد البر في العلم.

قال الأول: لقد سمعوا معه قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ (الحجرات:13)

تقدمت منهما، وقلت: فما فهموا منها؟

قال الأول: إن قومك جلسوا على عرش العالم، فألغو بجلوسهم التاريخ والعالم.

قلت: لم أفهم.

قال:إن قومك ألغوا حضارات العالم، وخبراتهم الطبية وقدراتهم العلاجية، مع أن القرآن الكريم يطلب التعارف وتبادل الخبرات، واحترام كل طرف للطرف الآخر.

قلت: فهل ترى من حل لقومي؟

قال: أجل.. حلول كثيرة.

قلت: فما أولها؟

قال: أن يخرج الأطباء والمرضى من قوقعة المستشفيات ودخان المعامل، ويطلقوا حرية الفئران البيضاء، ليتجولوا بين البدو في الفيافي وقمم الجبال، ويبحثوا عند الهنود والصينيين عن بدائل الدواء.

قلت: وهل يوجد ذلك، أو هل يمكن ذلك!؟.. وهبهم ذهبوا.

قال: لا يكفي أن يذهبوا، بل يجب ان يسمعوا.

قلت: فهبهم سمعوا.

قال: لا يكفي ان يستمعوا، بل لا بد أن يتعلموا، ويبحثوا، ويجربوا، فحينذاك ستلتقي البشرية جميعا على هدف واحد، وحينذاك تنزل بركات الشفاء.. فهل وعيت ما قلت؟

قلت: لا أعي إلا بمثال؟

قال: هؤلاء الحكماء السبعة خير الأمثلة..

قلت: لم كانوا سبعة.. عهدي بأهل السلام يحبون الأربع!؟

قال: تلك أركان، وهي محصورة.. أما السبعة فعدد يفيد الكثرة، وهو غير محصور.

قلت: فما قال هؤلاء السبعة؟

قال: العلم لا يتلقى إلا من أهله.. فهيا اقترب منهم لتسمع من أفواههم ما يقولون.. واعلم بأن ما يصفونه أدوية من أدوية الأرض، وهي قد تخطئ، وقد تصيب، وأهل هذا المستشفى ــ كما تعلم ــ لا يردون المخطئ حتى لا يحرموا المريض من إمكانية صوابه..

قلت: وأنتما ألا تسيراني معي؟
قالا: لا.. لا بد أن تسير وحدك.. فلم يؤذن لنا في السير معك.

مغناطيس الشفاء

سرت إلى رجل يحمل مغناطيسا بشكل حذوة حصان، فقلت: أأنت معلم المغناطيس؟

قال: لا.. أنا عالم ولست معلما.. رزقني الله في صغري هذا المغناطيس الذي تراه معي، فسخرت حياتي كلها في البحث عن أسرار المغنطة، وقد جئت إلى هذا المستشفى ـ من رحلة طويلة في البحث عن أسرار العلاج به(1) ـ وقد جئت لتطبيقها هنا.

قلت: وهل أذن لك فقهاء هذا المستشفى في ذلك؟

قال: لقد شجعوني على ذلك..

قلت: ولكن ألم يسمعوا بما لقي من تقديس حتى اعتقد بعض الأقوام بأن له قوة إلهية، بل وذهب أحد الفلاسفة إلى حد القول بأن للمغناطيس روحاً لأنه يحرك الحديد.. ألا يعرفون سد الذرائع؟

قال: لو طبقوا ما خفته من ذرائع الفساد لما تركوا شيئا في الحياة.. فهل هناك شيء لم يعبد من دون الله!؟

قلت: وهل رأوا ما تفعل؟

قال: لا بد من ذلك.. ألم يقل ﷺ:(اعرضوا علي رقاكم)، فما كان لهم أن يفتوا من غير أن يعرفوا.

قلت: قد عرفت المغناطيس، وقد غرمت به في صغري كما غرمت به، فما هو العلاج به؟

قال: هو علاج يستخدم الطاقة المغناطيسية في علاج كثير من الأمراض التي تصيب الجسم.. وهو علاج قديم.. فقد كان يعتقد للمغناطيس خواص رائعة في الماضي، حيث كان الأشراف يلبسونه للحيلولة دون تقدم السن(2)، وكانت كليوباترا تلبسه على

---

1) المعالجة المغناطيسية MAGNETOTHERAPY: هي الطريقة العلاجية التي تستعمل مغناطيساً واحداً أو أكثر على مواضع مختلفة من الجسم لتحقيق الشفاء.

2) أجريت تجارب على الحيوانات للنظر في إمكانية زيادة أعمارها. وقد وجد العالم الروسي الدكتور "كوماروف" البيولوجي في معهد علوم الجينات ونائب رئيس اللجنة الوطنية لإطالة العمر صناعياً بأن عمر الذباب المنزلي قد تضاعف بإطعامهم السكر الممغنط. كما أجرى تجارب على متطوعين لمعرفة التغيرات التي تطرأ على الأنسجة لإطالة العمر. وهو يأمل في إطالة عمر الإنسان إلى 400 سنة.

وأجريت تجارب أخرى لإطالة أعمار الفئران في الاتحاد السوفيتي وتوصلوا فيها إلى إطالة أعمارها بنسبة 50% من معدل العمر الطبيعي. وقد حصلت مفاجأة في أثناء التجارب وهي أن فأرة عمرها أربع سنوات ولدت في هذا السن المتقدم، بل إن العمر المعتاد لها لا يتجاوز ثلاث سنوات.

جبهتها للمحافظة على جمالها، كما كان يلبس لإزالة الصداع.

وقد عرف الآريون المغناطيس على أن له بالإضافة إلى قوى غيبيةوجذبيــة للحديــد، لــه خــواص علاجيــة. وهنــاك ذكــر للعلاج بالمغناطيس لبعض الأمراض في الكتابات الموجودة لبعض الأديان.

وقد بدأ تطـوير العلاج بالمغنـاطيس مـؤخراً في بعض الـدول المتقدمة تقنياً كالولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي واليابـان ودول أخرى غيرها.

وكان رائـد المغناطيسـية البشـرية الـدكتور فـرانتس مسـمر الذي درس الطب في فيينا في القرن الثامن عشـر، وطـور فكـرة وجود قوى من أماكن أخرى من الكون تـؤثر على الإنسـان بقـوة.. وقد كان مسمر متأثراً بأفكار الفيزيائي فيليبوس باراسلســاس في القرن السادس عشر، والذي قال بـأن للمغنـاطيس قـوى علاجيـة بحيث يمكن أن يشفى العضـو المصـاب بوضـع قطعـة مغنـاطيس عليه، كما تأثر مسمر بعمل الأب هـول أسـتاذ التنجيم في النمسـا، والذي استعمل المغناطيس في علاج المصابين بحالات عصبية.

وقد أكد الدكتور صامويل هانمـان منشـئ الهوميوبـاثي الـذي كان معاصراَ لمسمر وجود القوة الحركية في المغانط الملحية بعد التجارب الدقيقة، وأيد استعمال قطبي المغناطيس. كمـا أكـد على وجود القوة المغناطيسية البشرية، وهي التي يمكن اسـتعمالها في العلاج إذا ما اتصل الشخص صاحب النية الصـادقة والرغبـة القويـة في شفاء المريض، إذا اتصل بالمريض لمساً أو حتى بدون اتصـــال أن يستعمل هذه القوة المغناطيسية الطبيعية التي حباه اللـه إياهـا في شفائه. وهـذا متحقـق في فعـل المعـالجين الموجـودين حاليـاً والذين يسمونهم (HEALERS)

قلت: كيف يعالج المغناطيس، وما أراه إلا حديدا قد آتـاه اللـه قوة الجذب.

قال: هو لا يقوم بالشفاء بذاته، بل يهيئ بيئة متوازنة للجســم للإسراع في عملية الشفاء.

قلت: كيف ذلك؟

قـال: العلاج المغناطيسـي يعتمـد على نفس قواعـد الطاقـة المغناطيسية في الطبيعة، حيث تخترق الطاقة المغناطيسية الجلد في موضع معين لتمتص عن طريق الشعيرات الدمويـة الموجـودة في الجلد المغطي لهذا الموضع، وتسير في الـدم حـتى تصـل إلى مجـرى الـدم الرئيســي الـذي يغـذي جميـع الشـعيرات الدمويـة

الموجودة بالجسم.

قلت: وكيف يمتص الدم الطاقة المغناطيسية؟

قال: ألا تعلم أن الدم يحتوي على الهيموجلوبين، وهو يحتــوي على جزيئـات حديـد، وشـحنات كهربيــة أخــرى، وهي تمتص هـذه الطاقــة المغناطيســية، فينشــأ تيــار مغناطيســي في مجــرى الــدم يحمل الطاقة المغناطيسية إلى أجزاء الجسم المختلفة.

قلت: وما تأثير هذه الطاقة الممتصة؟

قال: هي تساعد على تحفيز الأوعية الدموية فتتمدد، وبالتالي تزداد وتتحسن الدورة الدموية، مما يؤدي لزيادة تـدفق الغـذاء إلى كـل خلايـا الجسـم، وبالتـالي تسـاعده على التخلص من السـموم بشكل أفضل وأكثر كفاءة.

وهي كـذلك تعـادل المحتـوى الهيـدروجيني لخلايـا وأنسـجة الجسم، وتساعد هـذه البيئـة المتوازنـة على تحسـين أداء وظـائف الجسم، وبالتالي يشفي الجسم نفسه بنفسه.

قلت: فالطاقـــة المغناطيســـية إذاً تســـاعد الجســـم على أن يشفي نفسه بنفسه عن طريق تحفيز الكيمياء الحيويـة الموجــودة فيه.

قال: أجـل.. وهـو مـا يعـرف بآليـة الشـفاء الـذاتي، وبالتـالي يحدث الشفاء بطريقة تلقائية.

قلت: فهـل تـأثير هـذه الطاقـة محـدود زمانـا ومحلا.. أم أنـه مطلق؟

قال: لقد أثبتت الدراسات أن للطاقة المغناطيسية تأثيراً على كل أجزاء الجسم.. وهذا التـأثير قـد يظـل عـدة سـاعات حـتى لـو أبعدنا المجال المغناطيسي عن الجسم.

قلت: فما الفوائد التي لمسـتها من خلال تطـبيق هـذا النـوع من العلاج؟

قال: كثيرة، منها زيادة قدرة هيموجلوبين الدم على امتصاص جزيئات الأكسجين مما يزيد من مستويات الطاقة بالجسم.

ومنها تقوية خلايا الدم غـير النشـطة ممـا يـؤدي لزيـادة عـدد الخلايا في الدم.

ومنها تمدد أوعية الـدم برفـق ممـا يسـاعد على زيـادة كميـة الدم التي تصل إلى خلايا الجسـم، فـيزداد إمـدادها بالغـذاء وتـزداد قدرتها على التخلص من السموم بشكل أكثر فاعلية.

ومنها تقليـل نسـبة الكوليسـترول في الـدم وإزالتـه من على

جدران الأوعية الدمويـة، ممـا يـؤدي لتقليـل ضـغط الـدم المرتفـع للمعدل المناسب.

ومنها أنها تعادل الأس الهيدروجيني في سـوائل الجسـم ممـا يساعد على توازن الحمض مـع القلـوي بالجسـم، زيـادة على أنهـا تعدل أنشطة الإنزيمات بالجسم بما يتناسب مع احتياطياته.

ومنهـا أن إنتـاج الهرمونـات واطلاقهـا يـزداد أو يقـل تبعـاً لمتطلبات الجسم في أثناء فترة العلاج، ومثـل ذلـك زيـادة سـرعة تجدد خلايا الجسم مما يساعد على تأخير الشيخوخة.

ومنهـا أنهـا تسـاعد على تنظيم وظـائف الأعضـاء المختلفـة بالجسم، وتسـاعد على التخلص من الإحسـاس بـالألم عن طريـق تهدئة الأعصاب، فعندما يتم إرسال الإشـارات الـتي تعـبر عن الألم للمخ تقوم الطاقة المغناطيسـية بتقليـل النشـاط الكهـربي وتغلـق قنوات وصول هذه الإشارات للمخ، فيزول الألم.

قلت: هذه فوائد مباركـة عظيمـة النفـع.. فـاذكر لي الحـالات المرضية التي يمكن علاجها باستخدام هذه الطاقة.

قــال: من الحــالات الــتي يمكن علاجهــا باســتخدام العلاج المغناطيسـي: خشـونة وضـعف مفاصـل الأيـدي والأرجـل والأذرع والأقدام والأكتاف.. ومنها علاج المشاكل الهضمية، كعسر الهضــم، والتهـاب المعـدة، وغيرهمـا.. ومنهـا علاج عـدم انتظـام عمليـات التمثيل الغذائي بالجسم مثـل نقص إنتـاج الأنسـولين.. ومنهـا علاج بعض أنــواع الســرطان.. ومنهــا علاج الإصــابات مثــل الجــروح والحــروق.. ومنهـا علاج الـنزيف الـذي ينتج عن ضـعف الأنسـجة والأعضاء مثل نزيف اللثة.. ومنها علاج الأشكال المختلفـة لالتهـاب المفاصـل.. ومنهـا علاج كسـور المفاصـل والعظـام، وعلاج انثنـاء المفاصـل في أي جــزء من أجــزاء الجســم.. ومنهــا علاج عــدوى وحصــى الكلى.. ومنهـا علاج عــدم انتظــام عمليــة التنفس مثــل أمراض الربو والالتهـاب الشـعبي.. ومنهـا علاج المشـاكل الجلديـة مثل حب الشباب والأكزيما.

قلت: فما هي نتائج العلاج بهذه الطاقة؟

قال: نتائج إيجابيـة عمومـا، ففي دراسـة قـام بهـا د. ناكاجـاوا مدير مستشفى أسوزا بطوكيو اسـتخدم فيهـا العلاج المغناطيسـي لعلاج 11 ألـف مـريض يعـانون من تشـنج العضـلات في الأكتـاف ومنطقــة الرقبــة تحقــق الشــفاء بنســبة 90 بالمائــة بين هــؤلاء المرضى.

قلت: عرفت إيجابيات هذا الدواء.. فهل له من سلبيات؟

قال: لقد أطلق أحد زملائي، وهو د. كيميث مكلين، وهـو أحـد علمـاء معهـد المغناطيسـية بولايـة نيويـورك الأميركيـة على العلاج بالمغناطيسية وصف معجزة الطبيعة، حيث أنه يفيـد في علاج كـل الأمراض، وبدون أعراض جانبية تذكر.

قلت: لم.. فعهدي بالأدوية تحوي من السلبيات بقدر ما تحوي من الإيجابيات.

قـال: لا يعتـبر العلاج بالمغناطيسـية دواء، فلـذلك لا يمكن أن يسبب الإدمان مثل بعض الأدوية كمـا أنـه لا يتفاعـل مـع أي دواء.. زيادة على ذلك فقد أجريت تجارب كثيرة جداً على الحيوانات التي تجرى عليها التجارب عـادة لمصـلحة الإنسـان كـالأرانب والفـئران والأسماك والطيور، وكذلك النبات وبعض الأنسجة الحية، وقـد أكـد في هـذه التجـارب أن تعـرض الكـائن الحي إلى قـوة مغناطيسـية عاليـة جـداً لا تسـبب لـه ضـرراً ممـا شـجع على تـدعيم التعـريض للمغناطيس للأغراض العلاجية.

قلت: فهو لا يحوي أي سلبيات إذن.

قال: ليس على العموم.. فالعلاج الـذي لا يحـوي أي سـلبيات هو العلاج المبارك، أما هذا فله سلبياته.. ولكنها قليلة جدا.

قلت: فما هي؟

قال: بعض الأعراض الجانبية والتي قـد تظهـر ــ إن وجـدت ـ بشكل واضح لعدة أيام قليلة بعد العلاج بالمغناطيسية.. وهي تتمثل في الصداع والأرق وارتفاع درجة حرارة الجسم.. وهي تـزول بعـد يوم أو يومين من العلاج وبشكل تلقائي.

قلت: فهل تعالجون جميع المرضى بمغناطيس واحد؟

قال: لا.. درجة شدة المرض ومدته هي التي تحدد قوة حجــر المغناطيس المستخدم، ومن الأفضل أن يبـدأ المـريض باسـتخدام حجر المغناطيس ذي قوة منخفضة، ثم يزيد من قوته تـدريجيا بعـد ذلك.

أما الأطفـال، والصـغار، وكبـار السـن، فيعـالجون عن طريـق مغناطيس كهربي منخفض القوة.

قلت: والمدة.. هل هي سواء بالنسبة لجميع المرضى؟

قال: لا.. ففترة العلاج بالمغناطيسية تـزداد إذا كـان المـريض يعـاني من الأنيميـا، أو نقص الكالسـيوم، أو العلاج بعقـاقير تخمـد نظام المناعة التلقائي بالجسم.

لمسات الشفاء

سرت إلى رجل يحرك يده حركات مختلفة، تصـورت للوهلـة الأولى أنه يعاني مرضا عقليا، فقـد رأيت بعضـهم بين قـومي يبـالغ في مثل هذه الحركات، اقتربت منه، وقلت: مـا بـك يـا أخي.. أرى أهلك قد أهملوك.. هل تحتاج لشيء!؟

نظر إلي متعجبا، وقال: ولم يهملني أهلي؟.. وهل تراني صبيا أحتاج إلى حضن والدتي أو رعاية والدي!؟

قلت: لا أراك صبيا.. ولكني أراك..

ضحك، وقال: لا تذهب بـك الظنـون مـذاهبها.. فأنـا حكيم من الحكماء السبعة الـذين قـدموا لهـذا المستشـفى من رحلـة البحث عن بدائل الصناعة.

قلت: فأي مغاطيس وجدت؟

قال: أنا لم أذهب للبحث عن المغناطيس.. بـل ذهبت للبحث عن الدواء البديل.

قلت: فما وجدت؟

قال: لقد وجدت رجلا من قومك اسمه (أندرو تيلر ستل)

قلت: وهل يوضع هـذا الرجـل في كـوب المـاء ليشـرب بـدل الدواء؟..

قال: لا.. هذا رجل كان يخـدم في الخطـوط الأماميـة للقتـال في الحرب الأهلية الأمريكية كجـرّاح.. وقـد فقـد أولاده الثلاثـة في ذات السحايا الفقرية.

قلت: كثيرون هم الذين يشبهون هذا الرجل.. فما ميزته؟

قال: لقد أصبح (أندرو تيلر ستل) غير مقتنع.. بل متشائماً من الطب المتداول.

قلت: متى كان ذلك؟

قال: في أواسط القرن الماضي.

قلت: يحق له أن يتشاءم.. فقد كان العلاج المتوفر غـير نـافع في أكثر الحالات، وكانت الجراحة أمراً قاسيا جداً لحداثة اسـتعمال المخدر.. وأسباب أخرى.

قال: لهذا كله أراد ستل أن يجد طريقة علاجيـة أكـثر تعاطفـاً مع المريض وأكثر نفعاً.

قلت: هنا بدأت تدخل الموضوع.. فماذا وجد؟

قال: بعد تجارب طويلة أجراها تأكـد من أن الوسـائل اليدويـة لوحدها أكثر فعاليـة بشـكل ملفت للنظـر من الطـرق الأخـرى في

أكثر الحالات التي تعامل معها.. وفي عام 1874 بدأ باستعمال الطرق اليدوية في العلاج، والتي سماها الأستيوباثي[1]، وذلك مع الجراحة أيضاً في عيادة كبيرة جداً، وأصبح معروفاً للنجاحات التي حققها.

وبعد ثماني عشرة سنة، وبعد أن أثبت بأن هذه الطرق هي أكثر فعالية من الطرق المتوفرة في حينه، أسس أول مدرسة لتعليمها سماها مدرسة الطب الأوستيوباثي في كركسفل بولاية مزوري.

قلت: ولكن المعالجة والدعك اليدوي ليس جديداً، فقد وصف أبو قراط أبو الطب عدة حركات لمعالجة العمود الفقري.. كما أن الطب الشعبي في كل أنحاء العالم يحتوي على أشكالاً من هذه المعالجة.. وأعرف من بني قومي من يلعب بها لعبا.

قال: ذلك صحيح.. ولكنه بينهم محصور في أمراض محدودة.. وليس لمختلف الحالات المرضية كما رأى أندرو ستل.

قلت: فهل رأى صاحبك هذا أن هذا الدعك يمكن أن يحقق الشفاء لمختلف العلل؟

قال: هو لم يقل بأنه يحقق الشفاء.. وإنما قال ــ كما قال إخوانه من أصحاب الطب البديل ـ بأن للجسم قوة ذاتية للشفاء واستعادة الصحة، وقد تميز عنهم بتصوره أنه إذا ما تداخلت مشكلة بنيوية، مثل شد عضلي أو انحناء في العمود الفقري.. أو غيرهما، فإن ذلك سيؤثر بشكل سلبي على السريان الدموي والعصبي، وبالتالي يؤثر على قدرة الجسم على الشفاء، ويحصل المرض.

قلت: ما تقصد بذلك؟

قال: هو يرى ضرورة كون مصادر الدم والأعصاب لكل أنسجة الجسم غير معاقة لكي تعمل هذه الأنسجة بالشكل الصحيح، وتقوم بترميم الجسم وتصليحه.

قلت: هذه الفكرة.. وما أسهل أن نفكر.. ولكن كيف طبقها في العلاج؟

قال: لقد أسس ـ انطلاقا من ذلك التصور ـ طريقة للمعالجة أو الدعك باليد سماها بلغته MANIPULATION، ويقصد منها إعادة أي انحرافات بنيوية إلى وضعها الطبيعي.

---

1) الأوستيوباثي OSTEOPARHY: هو نظام علاجي يتعامل مع بنية الجسم، أي العظام والمفاصل والأربطة والأوتار والعضلات وكل الأنسجة الرابطة، وعلاقتها مع بعضها، وتأثيرات وضعها الصحي على أجهزة الجسم المختلفة.

قلت: أرى أن صاحبك يغلب الجانب الميكانيكي الآلي في الإنسان.

قال: هذا صحيح.. فهو يرى أن الجسم يحتوي على دفاعاته الذاتية.. وأن المرض يحصل عندما تضعف هذه الدفاعات.. والضعف قد حصل لكون الجسم أصبح غير صحيح ميكانيكيا.

قلت: لقد ذكرت لي صحبتك له.

قال: أجل.. لقد صحبته طويلا.. وتعلمت على يده.

قلت: فكيف كان يتعامل مع مرضاه؟

قال: كان الدكتور ستل ينظر إلى مرضاه بنفس النظرة الكلية.. ولم يكن ينظر إليهم بالطريقة المعتادة أي معالجة الأعراض بدون البحث عن الأسباب.. ولهذا كان يسأل المريض عن كل ما يتعلق به مما يعتبره الطبيب البديل ذا علاقة بحالته المرضية.. فيسأله عن صحته العامة ومهنته وحتى حياته السابقة.. وهو يلاحظ قبل أن يبدأ بسؤال المريض كيف يمشي وكيف هو وضع قامته ودرجة الحركة عندما يجلس.. وهو يهتم بدرجة الحركة في كل المفاصل، في ذلك القفص الصدري، وهو شيء يستطيع ملاحظته من تنفس المريض مثلاً.

قلت: هذا التشخيص.. ولكني أريد العلاج.

قال: كان يقوم بفحص الأنسجة الرابطة بواسطة أصابعه، وكان يفحص الأعضاء الداخلية يدويا كالكبد والمعدة.. فقد كان يرى أن البنية والوظيفة في الأعضاء مترابطة بشكل لا فكاك عنه، وقد سمعته يقول:(إن الجهاز العظمي العضلي، من العظام والأربطة والعضلات والصّفاق(1)تكون بنية واحدة والتي عندما تتعرض للاختلاف عن وضعها الطبيعي من الممكن أن تحدث تغييرات في وظائف أجزاء أخرى من الجسم)

قلت: أراه يعطي للصفاق أهمية كبرى.

قال: أجل.. ولهذا كان يقول:(إن الصفاق هو المكان الذي تبحث فيه عن أسباب المرض، وهو المكان الذي يبدأ فيه عمل)

قلت: فهذا النوع من العلاج يهتم ـ فقط ـ بالصفاق؟

قال: لا.. لعل اهتمامه الأكبر بالعمود الفقري.. فقد كان ستل أول من قدم تفسيراً مقبولاً حول أهمية العمود الفقري للمحافظة على الصحة حيث أنه محيط بالحبل الشوكي.. والحبل الشوكي ـ

---

1) وهو الطبقة التي توجد تحت الجلد مباشرة والتي تتألف من حزم من أنسجة ليفية مرنة والتي تغلف العضلات والأعصاب والأعضاء المختلفة.

كما تعلم ـ ملحق بالدماغ.. وهو يسطر على كل فعاليات الجسم، بما فيها الأعضاء الحيوية الهامة كالكلى والقلب والكبد والرئتين والأوعية الدموية والغدد.

ولهذا فإن أي تداخل مع الأعصاب المارة من وإلى الدماغ من خلال الحبل الشوكي لا بد وأن يؤثر على العمل الطبيعي للأنسجة التي تمر منها أو إليها هذه الأعصاب.

قلت: الصفاق والعمود الفقري هما محلا الداء والدواء عند صاحبك؟

قال: لا.. هناك الأعضاء الميكانيكية الأخرى كالمفاصل والعضلات.. بالإضافة إلى وجود عوامل أخرى مسببة للمرض كالغذاء والوراثة والبيئة والنفس والبكتريا.. فهو لا يدعي إمكانية علاج الحالات المرضية الناتجة من هذه العوامل.

قلت: فهناك ميادين محدودة للعلاج بهذا النوع على حسب ما فهمت؟

قال: أجل.. فقد أثبتت التجارب لأصحابي بأن المريض الذي يتم تخليصه من الخلل الميكانيكي الحاصل في جهازه العظمي العضلي، وذلك بإزالة الخلل المرضي الأوستيوباثي، يتخلص من حالات مرضية كانت قد سببت من هذا الخلل، بل ويعود إلى صحته الكاملة إذا ما كان سبب المرض هذه الاختلالات الأوستيوباثية فحسب.. ولكنه إذا ما ترسخ المرض العضوي ـ بحيث سبب عطباً دائماً في الأعضاء المحنية ـ فإن الأوستيوباثي لا تعود نافعة لإزالة الحالة.

قلت: لقد ذكرت الخلل المرضي الأوستيوباثي.. فما الذي تقصد به؟

قال: هذه التسمية تقدم القاعدة العلمية لفعل العلاج الأوستيوباثي.. فنحن نعتقد ـ كما يعتقد معلمنا ــ أن لكل مفصل مجالا معينا من الحركة، وهو المجال الطبيعي.. وتساعد المفاصل في حركتها الأربطة والأوتار والعضلات وكذلك الصفاق.

وهذه الأنسجة تمكن المفصل من الحركة حسب المجال الطبيعي لكل إنسان، ذلك لأنّ لكل إنسان مجالا لحركة المفاصل يختلف عن غيره.. وعندما يحصل تحرك لأي مفصل بشكل غير اعتيادي يحصل تثبيت للمفصل مما يبقيه، بمساعدة الأوتار والأربطة والعضلات في نقطة هي أقصى ما يمكن في مجال حركته، وعندما يكون المفصل بهذا الوضع يسمي الأوستيوباثيون

هذه الحالة بالخلل المرضي الأوستيوباثي.
قلت: فهل يظهر هذا الخلل لعيون أصحابك؟
قال: لا.. إن هذا الخلل ليس واضحا عياناً، وإلا لبان ذلـك في صـور الأشـعة.. فهـو لا يتضـمن تباعـداً كبـيراً للعظم عن مكانـه الطبيعي، وإنما هو مجـرد تحـرك بسـيط للمفصـل بحيث يثبت في أقصى مـا يمكن من مجـال حركتـه.. ومـع ذلـك فإنـه من الأهميـة بمكان، بحيث أن تشخيصه ضروري جداً كمقدمة للعلاج.. وهنا تبرز ضـرورة مراجعـة معـالج أوسـتيوباثي متـدرب بشـكل صـحيح على ذلك.
قلت: فكيف يؤثر هذا الاختلال البسيط؟
قال: لأنه بـذلك سـيؤثر على أي جـزء في الجسـم.. وهـو مـا يمنعه من المصادر الدموية والعصبية اللازمة، وبالتالي من التغذيـة، وهذا يؤدي به لا محالة إلى المرض.
قلت: أريد توضيحا أكثر لهذا.
قال: إن حدوث الخلل المرضـي الأوسـتيوباثي يـؤدي ــ مثلا ـ إلى حصـر الأعصـاب الـتي تسـير من خلال الفقـرات من الحبـل الشوكي إلى أجزاء الجسم المختلفـة، ومن أجـزاء الجسـم عائـدة إلى الدماغ.. وعند حصول الخلل الأوستيوباثي في مفصل مـا فـإن الأجزاء القريبة منه لا بد أن تصاب بالمشكلة ذاتها، وهذا يـؤدي إلى أن تحصر الألياف العصبية المارة إلى المفصل من خلالها.
كمـا يمكن أن يلتهب العصـب الـذي لا يمـر من المنطقـة مباشرة،وإنما قريباً من المنطقة المحصورة.
قلت: هذه ناحية ناتجة عن الخلل الميكانيكي..
قال: هناك ناحية أخرى.. وهي نقص مصدر الدم، وهذا يحصل إذا مـا حصـل أي شـد عضـلي في العضـلات المتصـلة مباشـرة أو بشـكل غـير مباشـر للجـزء من العمـود الفقـري المتـأثر بالخلـل الأوستيوباثي، حتى وإن لم يكن قريباً منه.. وسيؤدي ذلك إلى عدم عمل الصفاق بالشكل الطبيعي مما يقلل من سـريان الـدم أو قـد يوقفه كلياً، مما قد يؤدي إلى حالات مرضية خطيرة.
قلت: هل هناك مضاعفات أخرى غير هذين؟
قـال: أجـل.. فهـذا قـد يـؤدي إلى عطب القـرص الفقـري.. فعندما يستمر الخلل الأوستيوباثي بدون علاج لفترة طويلـة تصـبح إمكانية إزالته أقل.. وحتى لو لم يكن القرص الفقـري متحركـاً من مكانه، فقد لوحظ في البحث المختبري بأن قابليته على امتصـاص

المـــاء من الـــدمواللمف تقـــل إذا مـــا اســـتمرت حالـــة الخلـــل الأوستيوباثي، وهذا يسبب تقلصاً في حجم القـرص ممـا يقلـل من كفاءته كمانع للصدمات.

وقد يؤدي كل ذلك إلى تلف المفصـل.. وذلـك مشـابه تمامـا للتلف الذي يحصل في أي جـزء من الماكينـة الموضـوع باسـتمرار تحت الشد المسـتمر عنـدما يكـون في غـير الوضـع الاعتيـادي لـه حسب التصميم.

قلت: إلى الآن لا زلت متشوقا لمعرفة كيفية الفحص.

قـال: بعـد أن يتم التشـخيص، ويتوصـل المعـالج إلى سـبب المشكلة يبدأ بالمعالجة التي غرضها إعادة تـوازن العمـود الفقـري والشـد فيمـا حولـه، وكـذلك موازنـة الشـد في الأجـزاء البنيويـة الأخرى.. وبهذا يمكن إعادة حركات كـل أجـزاء البنيـة إلى طبيعتهـا وتقليل الحصر والاختلافات غير الطبيعية عن الأعصاب وفي الدورة الدموية.

قلت: لكن كيف يعيد كل أجزاء البنية إلى طبيعتها؟

قال: هناك طرق عديـدة لـذلك مثـل المـد والتـدليك وغيرهـا، ويعتمد إجراؤها على عدة عوامل منها حجم المريض ووضع قامتـــه ونوع المشكلة ووضع المفصل المعين، فإذا ما كان المفصل معاقـاً مثلاً لا يجب أن يحـاول المعـالج إعادتـه إلى وضـعه الطـبيعي، بـل ينصح المريض بمـا يجب عملـه.. ومن أكـثر الطـرق اسـتعمالا في إزالـة تثـبيت المفصـل في أقصـى نقطـة من مجـال حركتـه هي الحركة السريعة جداً.

أما التدليك فهو خاص بهذه الطريقة العلاجية، وإن كان يشابه التدليك المعروف الذي يقـوم بعملـه المعـالج الطـبيعي في الطب المتداول والذي يقـوم بـه أي شـخص في الحقيقـة، ومـا يقـوم بـه المعالج الأوستيوباثي هنا هـو معالجـة للأنسـجة الرقيقـة الموجـودة تحت الجلد مباشرة.

قلت: تقصد الصفاق؟

قال: أجل.. فقد رأيت اهتمام الأوستيوباثي بالصفاق بـــدءاً من الدكتور ستل حيث سمعت ما قال.

قلت: ألا يؤلم هذا الأسلوب العلاجي؟

قال: كثير من المرضـى يخشـون من هـذا خصوصـاً من تلـك الحركـــة الســـريعة جـــداً، إلا أن الواقـــع ينفي حصـــول أي ألم في العلاج.. ولكن قد يحس المريض بعدم الراحة للحظة واحدة بسبب

وضعه غير المريح على سرير العلاج مثلاً.

ولكن كـل ذلـك يعتمـد على الاسـترخاء الكامـل للمـريض، وخصوصاً في الحركـة السـريعة جـداً.. ذلـك لأن الاسـترخاء يجعـل العضلات مرتخية ممـا لا يشـد المفاصـل إلى درجـة تمنـع حصـول تحركها إلى الوضع الطبيعي وهو ما يبتغيه المعالج.

كما أن الاسـترخاء ضـروري جـداً لمن كـان يشـكو من الآلام، في أثناء المعالجة وخارجها.. وقد طـور المعـالجون الأوسـتيوباثيون طرقا عديدة لتحقيق ذلك.

قلت: فما مدة العلاج؟

قال: هي تعتمد على الحالة نفسها.. فإذا كانت الحالة مزمنـة، فإن المراجعة الأولى قد تسـتغرق سـاعة من الـزمن، وقـد يعطى فيها بعض العلاج، كمـا يضـع المعـالج في هـذه الحالـة برنامجـاً من جلسـات علاجيـة قصـيرة على مـدة زمنيـة طويلـة، بحيث تطـول الفترات الزمنية فيما بين الجلسات شيئا فشيئاً.

أما إذا كانت الحالة جديدة، فإن جلسات العلاج لا بد أن تكون معدودة.

إبر الشفاء

تركت الأوستيوباثي يحـرك يديـه بحركاتـه الغريبـة، ثم سـرت في القاعة أبحث عن حكيم آخـر، وعن أسـلوب آخـر من أسـاليب العلاج البديل.

رأيت رجلا يحمل مجموعة إبر.. لست أدري هل كـان ينظمهـا أم كان يعبث بها، اقتربت منـه ناصـحا، وقلت: يـا أخي.. هـذه الإبـر خطيرة يمكن أن تصيب أي إنسان بآلام شديدة.

التفت إلي، وقال: ليس لي مهمـة في الحيـاة إلا أن أغرسـها في الأجسام.. بل أثبتها فيها تثبيتا.

قلت: أراك تحمل حقدا عظيما..

قال: بل أشفق شفقة عظيمة.

قلت: لا تستقيم لك الشفقة مع إيلام خصومك.

قال: أنا لا أغرس هذه الإبر إلا في أجسام أصدقائي.

قلت: لا أرى أنه يمكن أن يفكر أحد في صحبتك.

قال: لا.. هم يقصدونني.. وقبل آلاف السـنين كـانوا يقصـدون إخوانا لي كانوا يحملون نفس الإبر التي أحملها.

قلت: أرى أن لكلامك نبرات صدق.. فحدثني عن شأنك.

قال: أنا أحد الحكماء الذين أتوا ببدائل الصناعة.

قلت: من أين أتيت بها؟ وعلى من تتلمذت؟

قال: أتيت بها من الصين.. لقد رحلت إلى الصين لتعلمها.. وقد تتلمذت هناك على خلق كثيرين.

قلت: على ما يعتمد علاجك؟

قال: على هذه الإبر.

قلت: هل أنت جراح؟

قال: لا.. أنا أغرس هذه الإبر في الجسم، وأعالج بها(1).

قلت: أي بدعة هذه التي تقولها؟

قال: لا.. ليست هذه بدعة.. هذه أقدم من طب قومك.. بل لا يعرف لأولها تاريخ على التحديد(2).

قلت: فحدثني عن هذا النوع من العلاج.

قال: أتعرف الين واليانغ؟

قلت: عموما.. فقد عرفت ذلك من جورج أوشاوا.

قال: فاعرف الآن بأن هناك مسارين للطاقة في جسم الإنسان أحدهما هو الين، والآخر هو اليانغ، وذلك في مفهوم عام عن الطاقة يسمى تشاي (CH'i) أو قوة الحياة، أو القوة الحيوية.. والين واليانغ متكاملان على الرغم من كونهما متعارضين، ولأجل بقاء الإنسان في حالة صحية جيدة يجب بقاء الينواليانغ في حالة توازن.

قلت: عرفت هذا.

قال: لقد وجد الصينيون أن هذه القوة الحيوية (الين واليانغ) تدور في الجسم في مسارات تشابه الدم واللمف والأعصاب، وسموها خطوط المريديان (MERIDIANS) والتي تدل في معناها الحرفي على خطوط الزوال أو خطوط الطول والعرض، ويمكن رصد هذه المسارات الآن بالطرق الإلكترونية ووسائل أخرى، وغيابها يعني الموت.

---

1) العلاج بالإبر الصينية ACUPUNCTURE هي الطريقة العلاجية المعتمدة على إدخال إبر ذات هيئة معينة في نقاط معينة على جسم المريض لمدة زمنية قصيرة في الجلسات العلاجية.

2) فأول كتاب كتب في هذا الموضوع يعود إلى أيام الإمبراطور الأصفر هوانغ تاي الذي عاش في وقت الولايات الحربية في الصين في الفترة بين 475 و221 قبل الميلاد... ففي هذا الكتاب أمر الإمبراطور بعدم استعمال أي علاج عدا الإبر وأن يتم تدريسها وممارستها بحيث يصعب نسيانها أو العزف عنها مستقبلاً.

وهناك كتاب آخر اسمه كتاب الجبال والبحار كتب قبل أكثر من 2.000 سنة يشير إلى وجود صخور تنفع في صنع الإبر. على أن هناك من يعتقد بأن أولى الكتابات في هذا الموضوع كانت قد بدأت قبل 4.500 سنة واستمرت لمدة 1.500 سنة بحيث كتب آخر فصل منها قبل 3.000 سنة.

قلت: أهي شبكة في الجسم كشبكة العروق والأعصاب؟
قال: أجل.. فهناك 26 دائرة رئيسـة من خطـوط المريـديان، وكل واحدة مقترنة بوظيفة أو عضو من وظائف وأعضاء الجسم.
قلت: نحن نعـرف حركـات الـدم بجس العـروق.. فكيـف تعرفون هذه المسارات؟
قال: نحن نقيم وضع هذه المسارات بواسطة النبضين الـذين يتم الإحساس بهمـا في منطقـة الرسـغ، أي قريبـا من نبض القلب الذي يفحصه الطبيب الاعتيادي، ولكنه شيء مختلف كلياً عنه.
ويمكن تقييم وضع الجسم الصحي بهذه الطريقـة حـتى قبـل أن تبدأ الأعـراض بـالظهور، وبهـذا فـالطبيب الصـيني يسـتطيع أن يعرف بأن صحة المريض تتدهور،وبذا ينصح المريض قبل أن تظهر المشكلة وتتعقد.
ولهذا السبب كان الطبيب الصيني يتقاضى أجراً عندما يكـون الإنسان متمتعاً بصحة جيدة، فإذا ما مـرض يتوقـف عن الـدفع إلى أن يستطيع الطبيب أن يعافيه من المرض.
قلت: فما دور الطاقة الحيوية في الجسم؟
قال: دورها أن تبقي الين واليانغ في توازنهما المطلوب بطرد الطاقة الفائضة خلال سطح الجسم عند نقاط معينة على خطـوط المريديان وتحويلها إلى المناطق التي تفتقد إليها.
قلت: أهناك نقاط في الجسم مختصة بهذا؟
قال: أجل.. وقد اكتشـفوا منهـا حاليـا 800 نقطـة.. ولا يـزال البحث فيها مستمرا.
قلت: فهمت هـــذا.. ولكـــني لا أزال لا أدرك دور الإبـــر في الشفاء.. أو أنواع العلل التي يمكن أن تعالجها.
قال: إن المعالجة بالإبر تعتمـد على تغيـير مسـتويات الطاقـة في نظام خطـوط المريـديان، وهـذه الخطـوط عبـارة عن قنـوات تربط النقاط العلاجية الخاصة بالأعضـاء المختلفـة، وسـر ذلـك هـو وجود اتصالات بين هـذه القنـوات المختلفـة، والـتي تشـكل شـبكة معقدة منها.
أما أنواع العلل التي يمكن علاجهـا، فتختلـف اختلافـاً شـديداً.. فبعضها كألم الشقيقة تستجيب غالباً بشكل جيد جــداً، في حين أن غيرهـا كرومـاتزم المفاصـل والربـو تسـتجيب في بعض الأحيـان، وبشكل جزئي.
وهناك أنواع من الحالات كالحالات المعدية والأمراض الخبيثـة

لا تستجيب مطلقاً، وإن كان يمكن إزالة بعض أعراضها.
وعلى كل حال يمكن القول بـأن العلاج بـالإبر قـد نجح نجاحـاً تختلـف درجتـه في علاج الأمـراض الوظيفيـة المختلفـة كالشـقيقة والصـداع المـزمن والقـرح ومشـاكل الهضـم والتهـاب المفاصـل والتهاب الأعصاب وعرق النسـا والتهـاب الجلـد والأكزيمـا وضـغط الدم العالي والكآبة والقلق والالتهابات الصدرية وكثير غيرها.
أمـا الأمـراض الـتي تحـدث تغيـيراً في الأنسـجة كالتهـاب المفاصل الذي أدى إلى تغيرات في سطوح المفاصل، فـإن العلاج بالإبر لا يمكن أن يكون إلا علاجاً مسـاعداً لعلاج آخـر، وليس علاجـا يتوقع منه أن يشفي هذه الحالات.
قلت: فما سر هذه الاستجابات المختلفة؟
قال: ذلك يعتمد على أسباب مختلفـة، منهـا العامـل الفـردي، حيث لوحظ أن بعض من يعاني من حالات اعتقـدنا عـدم اسـتجابتا بدرجة كبيرة للعلاج بالإبر استجابت بشـكل ملفت للنظـر، في حين أن حالـة أخـرى تعتـبر من الحـالات الـتي تعالجهـا هـذه الطريقـة بسهولة لم تستجب.
ومنها الوقت من اليوم، واليـوم من الشـهر الـذي يعطى فيـه العلاج، فإنه معروف منـذ زمن بـأن الكثـير من الأفعـال والعمليـات الجسمانية لها إيقاع حيوي كذاك الـذي يحـدث لمـدة يـوم واحـد أو 24 ساعة في أمور مثل درجة حـرارة الجسـم ومسـتويات الأملاح والهرمونات في الدم.. ولهذا يفضل بعض المعالجين التقليـديين أن تتم جلسات العلاج في ساعات مختلفة من النهار والليل للحصـول على نتائج أفضل.
قلت: فهل يتعارض استعمال الإبر مع الأدوية الصناعية؟
قال: قد يحصل ذلك، ويكون من عوامل تخلف العلاج بـالإبر.. فبعض هذه الأدوية لها تأثير على الجهاز العصبي المركـزي، بـل إن منها ما يعطى لهـذا السـبب كالمهـدئات ومضـادات الكآبـة.. فكـل مضادات الهستامين التي تستعمل للحساسية أو غثيان السفر غالباً ما يكون لها تأثير على الدماغ.
ومثل ذلك، فإن ملامسة النقاط الـتي عـولجت بـالإبر، سـواء بالملابس أو باليـد أو أيـة ملامسـة تلقائيـة أخـرى، في الأيـام الـتي تعقب العلاج تعتبر تقوية للتحفيز الذي قامت به الإبـرة على شـكل استجابة التهابية من الأنسجة التي في نقطـة العلاج.. لـذا فـإن أي دواء مضاد للالتهاب سيقضي على هـذا الأثـر المهم، والـذي يطيـل

من عمر التحفيز العلاجي.

ومن هـذه الأدويـة الكـورتزون والأسـبرين والبيوتازوليـدين.. والتي لا شك أنك عرفت خطرها على الصحة.

قلت: أجل.. فقد عرفت ذلك في قاعة الضرورة.

قال: ولأجلها تهنا في الأرض للبحث عن البدائل.

قلت: أيشـترط الإيمـان بجـدوى العلاج لحصـول الشـفاء.. أم يمكن أن يجرب أي مجر من غير أن يؤمن؟

قال: بالإيمان يتحقق الشفاء من غير إبر.. ولكن الإبر قد تؤثر من غير إيمان.

قلت: من ملاحظتـك للمرضـى الـذين عـالجتهم مـا جـدوى العلاج؟

قـال: ذلـك يختلـف بـاختلاف المرضـى واختلاف أمراضـهم.. فمنهم من كـانت اسـتجابته بتخفيـف الأعـراض من حيث قوتهـا، وترددهـا على المـريض، أو بتحولهـا أقـل إزعاجـاً.. او أن المـريض يقلـل من اعتمـاده على الأدويـة الـتي كـان يأخـذها... ومنهم من يشفى تماما بحمد الله.

قلت: على ما يعتمد ذلك؟

قال: على ما ذكرنا من أسباب.. بالإضافة إلى أنه لا يمكن أن يحصل تقدم نحو الأحسن منذ الجلسة الأولى، وإنما يحتاج ذلك إلى مرور عدة جلسات علاجية.

ويجب أن تتوقع أن تشتد الأعراض في البدايـة، وهـذا يحـدث في الكثير من الحالات، وهـو يـدل على أن التحفـيز قـد حـدث في نقاط لها علاقة بالمرض، وهو المطلوب.

قلت: فهناك أعراض جانبية إذن؟

قال: هي ليست كأعراض الأدوية.. وإنمـا هي رد فعـل عـادي جداً ومتوقع في كل العلاجات البديلة التي لا تسكت الأعراض ـ كما يفعل قومك ـ وإنما تخرجها إلى السطح، وتحفز القوة الحيوية لكي تقضي عليها.

قلت: فهل هناك مخاطر من هذا الدواء؟

قال: لا أكتمك بأنها قد تحوي على بعض المخــاطر.. فهي من أدويـة الأرض واجتهـادات أهـل الأرض، ولكنهـا تقـل مـع الأطبـاء المهرة.

قلت: فاذكر لي مخاطرها كما ذكرت لي بركاتها.

قال: من مخاطرهـا العـدوى، والـتي قـد تحصـل عنـد إدخـال

الإبرة غير المعقمة، ولهذا يفضل استعمال الإبـرة مـرة واحـدة مـع مريض واحد فقـط.. كمـا أنـه من الممكن أن تحصـل العـدوى من جلد المريض نفسه، وهنا لا بد من تعقيمه بالكحول.

ومنها تدمير الأنسـجة، وهـو مـا يمكن أن يحصـل عنـد إدخـال الإبــرة فتــدمر الأوردة أو الأعصــاب(1) أو حــتى أعضــاء كبــيرة كالرئتين(2) مثلاً.. ولهذا يفضل ــ احتياطـا ــ مراجعـة طـبيب درس التشريح الجسماني بشكل كاف بحيث يعرف المنـاطق الحساسـة والرقيقة.

ومنها إسـكات المـرض، وهـذا يحصـل إذا مـا اسـتطاع العلاج بـالإبر تخليص المـريض من أعـراض المـرض كـالآلام مثلاً فيعتقـد المريض بأن حالته تتحسن في حين أن المرض يتقدم نحو الأسوأ.. فقد يكون ألم الظهر مصاحباً للسرطان فإنه يمكن للعلاج بالإبر أن يزيل الألم فيعتقد المريض بأن الحالـة تتحسـن في حين أن الأورام مستمرة بالانتشار.

قلت: هذه مخاطر عظيمة.

قال: لقد عرفت في غرفة الموازنات كيف تتعامـل مـع مثـل هذا.

قلت: أجل.. ننظر إلى المحاسن والمساوئ ثم نوازن بينهمـا، كما قال تعالى: ﴿ يَسْأَلونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُـلْ فِيهِمَـا إِثْمٌ كَبِـيرٌ وَمَنَـافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَـا أَكْبَـرُ مِنْ نَفْعِهِمَـا ﴾(البقـرة:219).. فكيـف تطبق هذا الميزان في الإبر؟

قال: أتجنب مواطن الخطر.. وكل مـا يمكن أن يـؤدي إليهـا.. فإن فشلت في حالة من الحالات أرسلتها لإخواني من الحكماء..

قلت: السبعة..

قال: لا.. هم إلى السبعين أقرب منهم إلى السبعة.

قلت: ولكني سمعتهم يقولون (الحكماء السبعة)

قال: لقد قالوا ذلك لك ليبينوا لك كثرة البدائل.. لا ليحصروها.

أقدام الشفاء

ما ابتعدت قليلا عن صـاحب الإبـر حـتى وجـدت رجلا يمسـك بقدمه، وهـو يـدلكها دلكـا غريبـا، فتصـورت أنـه قـد تعـثر وسـقط، فـاقتربت منــه مســرعا، وقلت: كيـف وقعت؟.. دعــني أنظــر إلى موضع الألم حتى أضمدك، أو أحملك إلى من يضمدك.

1) وذلك يؤدي ذلك إلى آلام عصبية أو فقدان الإحساس أو غير ذلك.

2) حيث يمكن أن يخرج الهواء من الرئة المثقوبة ويدخل في الحيز المجـاور فيحـدث ضغطاً يتزايد حتى يؤدي إلى توقف الرئة عن العمل والاختناق.

قال: لا.. ليس الألم في قدمي.
قلت: أين هو إذن؟
قال: لقد أصابني ألم في معدتي.. فجلست أعالجها.
ضحكت، وقلت: وهل معـدتك في قـدمك؟.. ألسـت من بـني آدم؟.. إن بني آدم يحملون معدهم في بطونهم، لا في أقدامهم.
قال: أنا منهم، ومثلهم.. معدتي لا تزال في بطني.
قلت: ولكن.. لم تهت عنها، فـرحت تبحث عنهـا في قـدمك.. هل تراك أحول؟
قال: لا.. أنا أبصر بكلا عيني جيدا.
قلت: فلم ذهبت إلى قدميك بدل معدتك؟
قال: ذهبت إلى المركز الصحي لمعدتي.
قلت: وهل لمعدتك مركز صحي؟.. وأين؟
قال: لمعدتي، ولكل أعضائي وأجهزتي مراكـز صـحية.. أتـرى أن الله خلق لنا كل شيء.. ولم يخلق لأجسامنا مراكز صحية ترمم فيها.
قلت: هذه فكرة طيبة.. ولكن أين هذه المراكز؟
قال: في القدمين..
قلت: في القدمين كل مراكز صحة الإنسان.
قال: أجل..
قلت: لا تمـزح معي.. فـإني طـالب علم.. وأخـاف أن أنخـدع بتصديقك.. فتكون لك أوزار جهلي.
قال: لا.. لست كاذبا ولا مخادعا.. ولكني طـالب حـق مثلـك.. وقد آلمني أنين المرضى، فقطعت الجبـال السـبعة لأبحث لهم عن أسرار الشفاء.
قلت: ألم تجدها إلا في القدمين؟
قال: هذا مـا اهتممت لـه ويسـره اللـه لي، ألم تعلم أن اللـه ﴿ أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (طـه:50)
قلت: بلى..
قال: فلا تحقر ما أعطاني.. فالله لم يحتقرني حين أعطانيه.
قلت: اعذرني.. فأنا من قـوم امتلأوا بـالغرور.. وامتلأوا بعـده بالجدل.. ولكني مع ذلك من قوم لا يقبلـون إلا بالبرهـان، ألم يقـل الله تعالى: ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (البقرة:111)
قال: بلى.. فعن أي برهان تبحث؟
قلت: عما تفعله وتقوله؟

قال: لا بد أن تعرفـني ــ أولا ــ وتعـرف مـا أعمـل حـتى تعلم برهاني.

قلت: صدقت.. فالحكم على الشيء فرع عن تصوره.

قال: أنا ممن يسـمون بالحكمـاء السـبعة، وقـد قـدمت هـذه الأيام من الصين بعد أن من الله علي بالتتلمذ على علاج ولـد قبـل أكثر من خمسة آلاف سنة.

قلت: تلك الإبر الصينية.. وقـد كنت عنـد الحكيم الـذي يعـالج بها.

قال: هما أخوان.. فالاثنتان تعملان على أساس واحـد، وعليـه فمن كـان يأخـذ علاجـاً بـالإبر، لا يجب أن يحـاول الاسـتفادة من علاجي.. والعكس صحيح..

قلت: فبم تعالج أنت؟

قال: أنا أعالج بالمعالجة الانعكاسية[1].

قلت: المعالجة الانعكاسية.. ما المعالجة الانعكاسية؟

قال: هي ما رأيتني أفعله من التدليك في قدمي.

قلت: لم أسألك عن هذا.. وإنما سألتك عن سره.

قـال: نحن نعتقـد أن الجسـم مقسـم إلى منـاطق مختلفـة كالمنـاطق الـتي تقسـم بهـا البلاد.. وقـد قسـم أسـتاذي ومعلمي الدكتور فترجيرالد[2] الجسـم إلى عشـرة منـاطق طولية[3] بحيث تقع كل خمسة على أحد جانبي الجسم، بتناظر على جـانبي الخـط الوهمي الذي يقسم الجسم طولياً إلى قسمين متساويين.

قلت: أتقسمون الجسم كما يقسمه أصحاب الإبر الصينية؟

قال: لا.. بل هي مقاطع بعرض متساو وعلى عمـق الجسـم.. وهناك نقاط في القدم تنعكس بالتأثير على أعضـاء الجسـم بحيث تقع النقطة أو النقاط الخاصة بعضو ما في نفس المنطقة الطولية التي يقع فيها هذا العضو.

قلت: أهذا ما أردته بوجود المراكـز الصـحية لأعضـاء الجسـم

---

1) المعالجة الانعكاسية REFLEXOLOGY: هي تدليك نقاط معينة في القـدمين بطريقـة معينة بحيث يحدث ذلك تأثيرا علاجياً في مناطق الجسم المختلفة.

2) من الكتب الـتي كتبت حـول العلاج حسـب المنـاطق، أي تقسـيم الجسـم إلى مناطق، ما كتبه طبيبان أوروبيان في 1582 م هما الـدكتور أدامـز والـدكتور أتـاتس كمـا كتب الدكتور بل في لايبزغ كتاباً بعد ذلك بقليل حول نفس الموضوع.

3) بالإضـافة إلى هـذه المنـاطق الطوليـة العشـرة، هنـاك ثلاث منـاطق عرضـية من الممكن أن يكون لها انعكاسات في القدمين، وهي: الخط المار بـالكتفين، والخـط المـار بالوسط بمستوى أضلاع الصدر السفلى، والخط المار بمسـتوى منطقـة الحـوض... وقـد وجـدوا أن المنطقـة العرضـية الأولى تمثلهـا منطقـة أصـابع القـدم، أمـا المنطقـة الثانيـة فتمثلها المنطقة الوسطى والثالثة منطقة الكعبين.

في القدمين؟

قال ــ وهـو يشـير إلى منـاطق مختلفـة من قدمـه ــ: أجـل.. فالرأس، توجد مناطق انعكاسـاته في منطقـة الأصـابع حيث توجـد نقاط انعكاسية لكل من الدماغ والجيوب الأنفيـة والعيـنين والأذنين وقناة أوستاكي.

والجهـاز العضــلي العظمي، توجــد منــاطق انعكاســاته في مختلف مناطق القدمين كما هو واضـح.. وهنـاك منـاطق انعكـاس للعمود الفقري على جانب القدم بحيث تبدأ بالمنطقـة العنقيـة في الإصـبع الكبـير، وتنتهي بـالعجز في كعب القــدم، وهنـاك منـاطق انعكاسية للرقبة والكتفين والحجاب الحاجز وعصب الظهـر النـازل إلى الساقين وهو المسمى عرق النسا والمفاصل الأخرى جميعاً.

والهرمونات، توجد مناطق انعكاساتها في باطن القــدم، وهي للغدد المختلفة كالبنكرياس والأدرينـالين والمجـاورة لهـا والدرقيـة، أما الغدد المنتجة كـالرحم والمبـايض وقنـاة فـالوب في النسـاء أو البروستات والخصية للرجال ففي وجه القدم.

والجهاز التنفسـي، توجـد منـاطق انعكاسـات للرئـة والقصـبة الهوائية والحنجرة والأنف.

والقلب والــدورة الدمويـــة، ومنطقـــة انعكـــاس القلب في المنطقـة العرضـية الأولى من القـدم اليسـرى في وسـط بـاطن القدم، أما الأوعية الدموية فيمكن تحسين دوران الـدم بهـا بتـدليك المنـاطق المختلفـة من القـدم، أو حسـب المنطقـة ذات الـدورة الدموية غير الطبيعية.

والجهاز اللمفاوي، وتقع نقاط انعكاس عقد اللمف في قاعدة الأصابع بين كل إصبعين في وجـه القـدم وفي جـانب الكاحـل، أمّـا الطحال والغدة الثيموسية ففي باطن القدم اليسرى.

والجهاز الهضمي، وتقع منـاطق انعكاسـات أجزائـه المختلفـة في باطن القدمين.

قلت: كل ما ذكرته لا يمكنني أن أناقشك فيه.. لأني لا زلت لا أعرف مصدر هذه المعلومة ولا توجيهها.

قال: لا يهمك ذلك.. ألا تعرف أنك تتعامل مع أشياء كثيرة في حياتك دون أن تدرك حقيقتها ولا وجه عملها؟

قلت: ربما..

قال: لا.. هذا هو الصحيح.. إن معدتك تهضـم الطعـام دون أن تحتاج أن تشرح لك كيفية هضمها للطعام.

قلت: معــدتي مــأمورة.. أمــا هــذه فأدويــة.. وهي خاضــعة للاجتهاد.

قال: ربما تكون خاضعة للاجتهاد، وربما تكون توقيفية منزلة.

قلت: أيمكن هذا؟

قـال: لا يسـتنكر هـذا.. فاللـه تعـالى عنـدما دل الخلـق على طعامهم دلهم على شـفائهم.. ألا تعلم أن الحيوانـات تعـرف كيـف تعالج نفسها!؟

قلت: لا أعلم ذلك..

قال: هناك حكيم من حكمائنـا تعلم على يـد الحيوانـات كثـيرا من أسـرار الشـفاء.. أفـترى أن اللـه يهـدي الحيوانـات ولا يهـدي عباده.

قلت: وضح ما تقصد.

قال: هذا العلاج القديم الذي لا تعرف جذوره قـد يكـون وحيـا من وحي الله نزل على نبي من أنبياء الله.. فأرشد العباد إليه كمـا أرشـد رسـول اللـه ﷺ الخلـق إلى الحجامـة والعسـل والقسـط والحبة..

قلت: ولكني لا أعرف أن الله أرسل نبيا في الصين.

قال: وهل الصين أدنى شأنا من العرب أو بني إسـرائيل.. ألم يقل الله تعالى: ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (فاطر:24)

قلت: ولكن القرآن الكريم لم يخبرنا بهذا.

قال: لقد قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُـلاً مِنْ قَبْلِـكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾(غافر:78)

قلت: لقد ذكر المفسرون والمؤرخـون أخبـار العـالم من آدم ﵇ إلى الآن ولم يذكروا هذا..

قال: إن التاريخ الذي ملأوا به كتبهم هو تاريخ بـني إسـرائيل.. وهـو تفسـير بـني إسـرائيل للتـاريخ.. وهم يختصـرون التـاريخ في قوميتهم، فلا تسمعوا لهم.

قلت: عد بنا إلى دليلك.

قــال: ممــا يــدلك على هــذا أن العلاج بــه لم يقتصــر على الصينيين.. ولو لم تثبت جدواه لما انتشر هذا الانتشار.

قلت: أعرف في غير الصين؟

قال: أجل.. لقد وجد ما يثبت أن المصريين قد استعملوا هـذه الطريقة بشكل أو بآخر كما تـدل على ذلـك الرسـوم الأثريـة حيث رسم فيها تدليك القدم بشكل معين، وذلك قبل 3.000 عام.

قلت: والمعاصرون.. هل قبلوا هذا؟

قال: لعلك لا تصدق بأن أول من أعطى هذه الطريقة العلاجية دفعة حقيقية إلى الأمام هو معلمي الدكتور الأمريكي وليم فتزجيرالد في 1913م.. وكان في ذلك الوقت رئيساً لقسم الأنف والحنجرة في مستشفى سانت فزانس في هارتفرد بولاية كونكتكت، وكان يحظى باحترام بالغ كطبيب وجراح في هذا التخصص.. ويبدو أن عمله السابق في أوروبا، في لندن وفيينا، قد جعله يتعرف على هذه الطريقة العلاجية التي لم تكن آنذاك سوى أفكار غير ممارسة عملياً على نطاق واسع.

لقد لاحظ الدكتور فتزجيرالد بأن بعض المرضى لم يكونوا يحسون بآلام شديدة عند إجراء بعض العمليات في الأنف والحنجرة في حين يتألم غيرهم كثيراً، وعلم أن السبب هو أن الأولين كانوا يضغطون على أيديهم ـ والتدليك في اليدين مستعمل هنا كما في القدمين ــ بسبب خوفهم أو قلقهم مما كان يخفف الألم، وبمرور الوقت استطاع معرفة هذه المناطق وغيرها وتأثيرات كل منها على أعضاء وأقسام الجسم المختلفة.

وهناك آخرون ساهموا في تطوير ونشر الطريقة الانعكاسية مثل الدكتور بوورز الذي كتب مقالات حول الموضوع، والذي يعود إليه تسمية الطريقة، ومنهم الدكتور جو رايلي وزوجته اليزابث حيث كتب كتباً عديدة حول الموضوع.

وهناك سيدة أمريكية تدعى يونس انغهام والتي كتبت، بعد أن تدربت مع الدكتور رايلي، كتابين أصبحا من الكتب المعتمدة في دراسة وممارسة الطريقة، أما الرائد الأول لهذه الطريقة في بريطانيا فهي السيدة دورين بيلي، والتي تعرفت على الطريقة من السيدة انغهام أثناء زيارتها لأمريكا.

قلت: سلمت لك بكل هذا.. ولكني أريد شيئا ملموسا أقنع به قومي.

قال: تقصد التفسير العلمي الذي ينسجم مع عقول قومك.

قلت: لم تعدو ما في نفسي.

قال: لقد قدمت نظريات عديدة في ذلك، إلاّ أنّ الشيء المقبول هو أنّ المعالجة الانعكاسية تؤثر على الدورة الدموية والأعصاب..

قلت: لا أشك في أن الدورة الدموية الصحية مهمة جداً لأداء الوظائف بالشكل الصحيح لكل أعضاء الجسم، فالدم هو الناقل

للمواد الغذائية إلى كل الأنسجة، وهو الـذي يحمـل منهـا الفضـلات لطردها.

أما الجهاز العصبي، فإنّ أكثر المشاكل سببها شد عصبي في مناطق الجسم المختلفة.

ولكن كيف تؤثر هذه المعالجة في الدم والأعصاب؟

قال: هي مفيدة جداً في تقليل الشد العصبي مما يجعل هـذه المناطق المختلفة مسترخية أكثر، وبالتالي تـؤدي وظائفهـا بشـكل أفضل.. ولمعرفة مدى دقة العملية، وكذلك أهميتها يجب أن تعرف أنه توجد 200،7 نهايـة عصـبية في القـدمين والـتي تتصـل ببـاقي أجزاء الجسم من خلال الحبل الشوكي والدماغ.

ومن الأمور المصاحبة لهذه الطريقة العلاجية تكسـير المعـالج لبلورات الكالسيوم التي توجد في القـدمين.. وهـذه البلـورات هي جزء من الكالسيوم الموجود في الدم، والتي تتجمـع في القـدمين، بسبب الجاذبية الأرضية، إذا ما كان هناك عـدم تـوازن في الجسـم أي حالة مرضـية.. وعنـدما يـدلك المعـالج القـدمين ويحس بوجـود هذه البلورات فإنها تتكسر بفعل التدليك.

والأهم من ذلـك هـو أن المعالجـة الانعكاسـية تسـاعد القـوة الشفائية الموجودة في الجسم دون اللجوء إلى الأدوية الخارجية.

قلت: كيف ذلك؟

قال: لقد عرف وجود سريان من الطاقة يربـط بين الأعضـاء الواقعة في نفس المنطقة الطوليـة، إلا أن طبيعـة هـذه الطاقـة لا تزال غير معروفة.

قلت: أهي كخطــوط المريــديان الصــينية الــتي بحث فيهــا أصحاب إبر الشفاء؟

قال: أجل.. واتفاقنـا على هـذا يـدل على أن هـذا لـه أصـل لا نعرفه.. وقد أمكن بواسطة التصوير الكرليـاني الحـديث (KIRLIAN) مشاهدة مجالات الطاقة المحيطة بالأشـياء.. وقـد شـوهد في هـذا التصوير أن مجالات الطاقة الموجـودة حـول منـاطق الانعكاسـات في القدمين تضـعف إذا مـا كـان هنـاك عـدم تـوازن في المنطقـة المتعلقة بهذه النقاط الانعكاسـية، كمـا شـاهدوا كيـف أن مجـالات الطاقة هذه تزداد قوتها بعد المعالجة الانعكاسية.

قلت: ألا يمكن أن يكون سر قدرة المعالجة الانعكاســية على تقليل الألم هو التدليك نفسه؟

قــال: يمكن أن يكــون ذلــك خاصــة وأنــه قــد يســبب إفــراز

المورفينات الطبيعية من الدماغ.. ولهـذا نجـد بعض المرضـى، في بعض الحالات، يشعرون بإحساس معين في منطقة الجسـم الـتي يجري معالجتها، أي تدليك نقاط انعكاساتها.

قلت: فهل هناك آثار مزعجة لهذا النوع من التداوي؟

قال: توجد آثار مزعجة.. ولكنها قليلة مقارنة بأدوية قومك.

قلت: ما هي؟

قال: هناك ردود فعل تختلـف بين مـريض وآخـر.. منهـا رغبـة أكبر بالتبول لأن الكليتين تطردان كمية أكبر من اليوريا، أي البـول، والذي قد يكون ذا لـون ورائحـة مختلفين.. ومنهـا زيـادة في عمـل الأمعاء الغليظة مع احتمال تكون الغازات.. ومنها أعـراض مشـابهة لأعراض البرد بسبب زيادة إفراز المخـاط من الأغشـية المخاطيـة مما قد يدفع المريض للتمخط، ومن الممكن أن يزداد السعال مـع البلغم.. ومنها زيـادة في الطفح الجلـدي خصوصـاً إذا كـان قـد تتم إسكاته بالأدوية المتداولة، كما يمكن أن يزداد التعرق.. وقـد تظهـر حالات من الماضي كان قد تم إسكاتها سـابقاً.. وقـد تتغـير طبيعـة النوم إلى نوم أعمق أو صـعوبة في النـوم، كمـا قـد تصـبح الأحلام ملحوظة أكثر(1).

قلت: فهل يمكن تفادي هذه الآثار؟

قـال: لا.. هـذه علامـات إيجابيـة.. وهي دالـة على أن العلاج يعمل، وأن الجسم يحاول إعادة التوازن المفقود.

ولهذا قد يحدث ما يطلق عليه (أزمة الشفاء)، وهي التي تزيد فيها أعراض الحالة المرضية لمدة زمنية قصيرة، ثم تـزول ليصـبح الجسم بعدها بوضع أفضل مما كان عليه قبلها.. ومن الخطأ تصـور أن هذا من فشل العلاج، والذي قد يـدفع المعـالج إلى تركـه العلاج في الوقت الذي بدأ فيه العلاج بالعمل.

المرض الشافي

سـرت كلمـات الانعكاسـيين في قـدمي، فملأتهمـا نشـاطا، وصارتا جذلتين مسرورتين تكادان أن تطـيرا بي.. فهـذه أول مـرة أدرك أن الله وضع في قدمي مستشفى قائما بذاته لعلاجي.

---

1) هناك بعض المواد التي تباع في الأسواق (في الغرب) مما يعلن عنها بأنها نوع من المعالجة الانعكاسية مثل بعض الأحذية والنعال أو القطعة الخشبية الاسـطوانية المحـززة والتي يراد منها تقوية عضلات القدم وتنشيط الدورة الدموية. وفي حالة النعال أو الحـذاء يجب مراعاة عدم انتعاله لمدة طويلة مخافة عمل التدليك بهذه الطريقة أكثر من اللازم، هذا مع أن احتمال أن يكون التدليك متوازناً بين النقاط احتمالاً ضعيفاً تماً يجعل استعمال هذه الأحذية غير محبذ.

مـا ابتعـدت قليلا عن صـاحبي حـتى وجـدت رجلا قـد أخذتـه الحمى كل مأخذ.. وهـو ــ مـع ذلـك ــ في غايـة الفـرح والسـرور، فهرعت إليه، وقبلت رأسه، وقلت: لا شك أنـك أحـد أولئـك الـذين رأيتهم في (ابتسامة الأنين) يبتسمون للبلاء.

قال: ولم يبتسمون له؟

قلت: رضى بما قدر الله.

قال: نعم الرجال هم.. ولكني لا أزعم لنفسي هذا.

قلت: فكيـف تبتسـم مـع أن الحمى تلتهم أعضـاءك وتمتص دماء الحياة من جسدك؟

قال: أنا فرح لأني لا أزال احتفظ بالقوة الحيوية التي تحميـني من العلل.

قلت: سـمعت بهـا.. ولكن دعـني منهـا.. وحـدثني عن سـبب الحمى التي اعترتك لعل أنواعا من السموم تخـترق جسـدك.. هيـا بنا إلى الطبيب لعلاجها.

قـال: أنـا طـبيب.. وقـد حقنت نفسـي بـدواء أثـار في هـذه الحمى.

قلت: ولم حقنت نفسك به؟.. ألعلة أصابتك؟

قال: لا.. أنا بحمد الله سليم معافى.. ولكني فعلت ذلـك لأرى تأثيره في.. وأرى نوع الأمراض التي يعالجها.

قلت: ما تقول ـ يا رجل ـ أأنت في وعيك، أم أن تـأثير الحمى قد امتد إلى مداركك، فجعلك تهرف بما لا تعرف!؟

قال: لا.. ما كان لي أن أجلس في هذا المستشفى ثم أهرف ما لا أعرف.

قلت: من أنت.. فإني أرى لك حديثا عجبا.

قال: أنا من الحكماء الذين يطلق عليهم (الحكماء السبعة)

قلت: مـا أغـرب هـؤلاء الحكمـاء.. مـاذا وجـدت.. لقـد وجـد أصحابك المغناطيس والإبرة واليد والقدم.. فماذا وجدت أنت؟

قال: وجدت أربعة أركان للعلاج..

قلت: أعلم أن أركان كل شيء أربعة.. فمـا هي؟ وقبـل ذلـك من أنت؟

قال: أنا رجل من بني قومك أصـابتني أمـراض مزمنـة احتـار فيها الأطبـاء، فجربـوا فيهـا كـل سـمومهم.. وبعـد أن يئسـت منهم ذهبت إلى صديق لي من ألمانيا وذلك عام 1796 م، وهو صامويل هانمـان.. وقـد درس الكيميـاء والطب، واعتـاد أن يزيـد من دخلـه

بكتابـة المقـالات والكتب، واعتـاد في كتاباتـه الاحتجـاج ضـد الممارسات الطبية الخشـنة والجرعـات الكبـيرة من الأدويـة الـتي تعطى للمرضى، ولكنه ما لبث أن يئس من أن يصبح طبيبًا، فصـار يعمل بالترجمة.

قلت: فهل جلستما تبكيان على حظ الطب المتداول؟

قال: تقريبا كنا نفعل ذلك.. ولكن حدثت بعد ذلك المفاجأة.

قلت: ماذا حدث؟

قـال: في عـام 1790 بالتحديـد، بينمـا كـان هانيمـان يقـوم بترجمة كتاب المواد الطبية لصاحبنا الدكتور ويليام كولين مـر على عبارة حول لحاء الكينا يشـير فيهـا كـولين إلى أن الكيـنين ــ وهي مـادة مستخلصـة من لحـاء الكينـا ــ علاج جيـد للملاريـا بسـبب الخصائص القابضة له.. لكن تلك العبارة لم تقنع هانيمان الذي كان يدرك ككيميائي أن هناك الكثير من المواد القابضة الأكـثر قـوة من الكينين التي ليس لها أي تأثير في علاج الملاريا.

قلت: فهل أرسل رسالة إلى صاحبه ينبهه إلى هذا؟

قال: لا.. لقد قرر أن يختبر المادة أكثر..

قلت: كيف يختبرها.. أعلى مرضى الملاريا؟

قال: لا.. لقد أعطى نفسه جرعات من الكينين، ليختبر تـأثيره عليه ويسجل ردود أفعاله.

قلت: فماذا حصل؟

قال: لقـد حصـلت المفاجـأة.. لقـد ظهـرت أعـراض الملاريـا عليه.

قلت: هذا عجيب.. أدواء ينتج أعراض داء؟

قال: لقد كان هـذا معاكسـاً للـرأي الطـبي السـائد، والـذي لا يزال سائدا في أوساط الطب المتداول.

قلت: لعلها صدفة.. فلماذا اهتم لهـا أو اهتممت لهـا كـل هـذا الاهتمام.

قـال: لا.. لقـد كـان صـاحبي عبقريـا.. فـافترض فرضـية راح يبحث عن دليلها.

قلت: فما افترض؟

قال: القانون الأول من قوانين الشفاء..

قلت: الأربعة؟

قال: أجل..

قلت: فما هو؟

قال: لقد استخلص بأن المادة الـتي تعـالج مريضـاً مـا تظهـر نفس أعـراض المـرض على الشـخص السـليم لـو تناولهـا، أو أن المـادة الـتي تنتج أعراضـاً على الشـخص السـليم هي الـتي تعـالج المريض بنفس الأعراض.

قلت: فكيف تأكد من صحة هذا؟

قـال: لقــد أعــاد التجربــة على آخــرين من بينهم شخصــي الضعيف الذي يجلس أمامك.. واستمر في تـدوين ردود أفعالنـا، ثم أعاد الكرة مستخدمًا مواد أخرى كانت تستخدم كعلاج مثل البلادونا والزرنيخ.. وسميت العملية بالإختبارات العملية، والـتي أجـريت في ظل شروط صارمة من عدم تعاطي المتعرض للتجربة للكحوليات أو الشاي أو القهوة.

وقد توصل من خلال تلك التجـارب إلى الأعـراض المشـتركة المتكررة في أغلب الحالات الناتجة عن كل مادة من المـواد الـتي استعملها في الإختبار، وسميت تلك الأعراض بـالأعراض الرئيسـية التي تكون معًـا مـا يمكن أن نسـميه الصـورة الدوائيـة لكـل مـادة مختـبرة.. ومن ثم فقـد توصـل إلى اكتشـاف قاعـدة المثـل يعـالج المثل.

قلت: فهل انتقلتم إلى المرضى؟

قال: أجل.. لقد جربنا هذه الأدوية على المرضى الـذين كـانوا يعانون من حالات لها نفس أعراض الأدوية هذه.. وقد كانت النتائج ممتـازة، حـتى أنهم اسـتطاعوا شـفاء من كـانت حـالاتهم ميئوسـاً منها.. بل إن الشفاء يتم أحيانا بجرعة واحدة فقط.

قلت: فما أطلقتم على هذا النوع من العلاج؟

قال: لقد أطلق الدكتور هانمان على هذا الطب الجديـد اسـم الهوميوبــاثي(1) اشــتقاقا من الكلمــتين اليونــانيتين (OMEOS) أي مشابه، و(PATHOS) أي معاناة.. أي أن المادة التي يجب أن تعــالج المريض في حالة معينة وتشفيه هي التي تنتج نفس المعاناة لــدى الشخص السليم لو تناولها.

قلت: إن هــذه الفكــرة تشــبه مــا نعرفــه من التطعيم ضــد الأمراض السارية.

قال: أجل.. ولكن مـع فـارق مهم وخطـير.. وهـو أن التطعيم إجراء وقائي قبل الإصابة بالمرض، أمـا في الهوميوبـاثي فهـو علاج

1) الهوميوباثي Homeopathy: طريقة علاجية تعتمد على إعطاء المريض دواء محضراً بأسلوب خاص، بحيث أن هذا الدواء لـو أعطي إلى السـليم بجرعـات عاليـة فإنـه يسـبب عنده نفس الأعراض المرضية الظاهرة عند المريض.

لحالة مرضية موجودة، ولكل الحالات بلا استثناء.

قلت: فهل خرج صاحبك بهذا النوع من العلاج إلى النـاس، أم أنه خاف أن يرموه بالحجارة؟

قـال: لا.. لقـد ظهـر كتـاب لهانمـان في عـام1810 م، وقـد أحدث ضجة في الأوساط الطبية لاشتماله على نظام علاجي جديد كلياً وجذرياً وهو الهوميوباثي، واسم الكتاب (ORGANONN OF THE ART OF HEALING).

وقد وضع فيه القانون والمبادئ التي يقوم على أساسـها هـذا العلم، والـتي كـانت حصـيلة عشـرين عامـاً من العمـل المتواصـل الدؤوب(1).

قلت: فهل رماه الناس بالحجارة؟

قـال: أولئـك بـني جلـدتك.. أمـا علاجـه، فقـد لقي كـل الاحترام..فقـد لقي هـذا النـوع من العلاج شـعبية كبـيره في الهنـد وباكستان، ويدرس هذا الطب في جامعاتها.

بل للطب التماثلي معاهد ومستشـفيات في أوروبـا وأمريكـا، وهي ذات شـعبية كبـيره وخاصـةً في المملكـة المتحـدة، حيث أن الملكة اليزابيت تعالج بهذا الطب، وبسبب تشجيعها لـه انتشـر في أوروبا وأمريكا..والأمير تشارلز من رواد هذا الطب، وقد ساهم في فتح مراكز للتعليم والمعالجة.. وقد طلب مؤخرا من المستشفيات تقديم وجبات نباتية متوازنة خالية من المواد الكيماوية.

ويعتـبر الآن من أكـثر أنـواع الطب البـديل تحـدياً للطب الحديث.. حيث أنه أحرز نجاحات كثيرة خاصة مـع خلـوه من الآثـار الجانبية.

قلت: هذا القانون الأول.. فما القانون الثاني؟

قال: ينص القانون الثاني على أن (المـرض ليس هـو العطب في عمل عضو معين، لكنه ـ كل شيء ـ اختلال في قوتـه الحيويـة المسؤولة عن عمل الجسم ككل)

قلت: سمعت هذا من كل من مررت به من الحكماء.

---

1) وملخص هذه المبادئ ـ والتي سنشرحها هنا ـ هو:

1- يحصل الشفاء بتوافق مع قوانين معينة موجودة في الطبيعة.

2- لا يمكن حصول الشفاء خارج هذه القوانين.

3- لا وجود للأمراض وإنما هناك أفراد مرضى.

4-المرض يكون ديناميكياً (متغيراً متحركاً) بطبيعته، ولذا فالعلاج يجب أن يكون كـذلك كي يصبح فعالا.

5- لا يحتاج المريض إلا إلى دواء واحد في أيـة مرحلـة من مراحـل المـرض. ولا يمكن أن يحصل الشفاء إذا لم يتم تناول هذا الدواء المعين.

قـال: كلهم يتفقـون على هـذا.. وهـو يخـالف تجزئـة قومـك للإنسان.. ولهذا يعتقد صاحبي.. بل كل أصحابي.. بل كـل الحكمـاء أنه توجد في الجسم قوة، سماها هانمان (VITAL FORCE) أي القوة الحيوية، وأنها هي التي تقف وراء عمل الأعضـاء بالشـكل الصـحيح أي الصحي.. فإذا ما حصل اختلال في الوضع الطبيعي لهذه القــوة ظهرت أعراض المرض على الإنسان.. وقد استدل على ذلـك بـرد فعل الجسم على شكل الحمى عندما يصاب ببرد.

قلت: أكان صاحبك مسلما؟

قال: لا.. للأسف.. ولـو أنـه وجـد من يعرفـه بالإسـلام تعريفـا صحيحا جميلا لكان أسلم.

قلت: أتدري.. لقد نطق بمـا نطـق بـه رسـول اللـه ﷺ، فقـد قال:(مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثـل الجسـد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسـهر والحمى)(1).. فقد استدل ﷺ لوحدة الجسد بالحمى.

قال: وقد أشار إلى هذه القوة قوله ﷺ في الحديث الآخر:(ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسـد كلـه، وإذا فسـدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)(2)، فقد اعتـبر ﷺ صـلاح الجسـد وفساده رهنا لصحة القلب.

قلت: فكيف تعرف على هذه القوة؟

قال: إننا جميعا نحس بهذه القوة الحيويـة في حياتنـا اليوميـة عندما نستطيع أن نتأقلم مع الظروف المتغيرة، سواء كانت تغيـيراً في الطقس أو عند السـفر أو تغيـيرا في الطعـام، أو عنـد الحـزن الشـديد أو المـرض.. فنحن نلاحـظ في جميـع هـذه الأحـوال قـوة ومرونة وقابلية على التأقلم على هذه الظروف المستجدة.

إننا الآن أكثر قدرة على إدراك القوة الحيويـة لوجـود وسـائل التعـرف على أمـور أخـرى مشـابهة لهـا كالمغناطيسـية والكهربـاء اللذين لا نستطيع معرفة الدافع وراء حركاتها وقواها المختلفة.

قلت: أرى أن أصحابك يعظمون هذه القوة..

قـال: وكيـف لا يعظمونهـا.. وهي حقيقـة الإنسـان، ومصـدر قوته.. لقـد كتب أحـد أصـحابنا، وهـو (كنت)(3) يقـول واصـفاً بعض خصائص القـوة الحيويـة:(إنهـا محبـوة بـذكاء خلاق، أي أنهـا تعمـل

---

1) مسلم.

2) البخاري ومسلم.

3) وهـو أمـريكي، ويعتـبره البعض أعظم طـبيب هوميوبـاثي بعـد هانمـان، في كتابـه الموسوم « محاضرات في الفلسفة الهوميوباثية »

وتكون اقتصاديات العضو البشري.. إنها بناءة، فهي تبقي الجسم بحالة بناء وإعادة بناء مستمرة، ولكن عندما يكون العكس صحيحاً، عندما تنسحب القوة الحيوية من الجسم لأي سبب فإن القوى التي أصبحت حرة غير منضبطة تصبح قوى تدميرية.. إنها معرضة للتغيرات، أو بعبارة أخرى، يمكن أن تسير بنظام أو لا نظام، بوضع اعتيادي أو مرض.. إنها تهيمن وتسيطر على الجسم الذي تحتله.. إن لها خاصية التأقلم.. إن وجود قابلية التأقلم في الجسم لا شك فيها، ولكن ما هو هذا الشيء فيه الذي يمكنه أن يكون متأقلما؟ إن الجسد الميت لا يتأقلم، لابد إنها القوة الحيوية التي تجعله يتأقلم ليبقى، بحالة منتظمة في حر أو برد، في رطوبة أو جفاف وفي جميع الظروف)

قلت: هذه لغة أقرب إلى الشعر منها إلى العلم.

قال: هذا أسلوب قومك.. فهم يرمون كل ما لا يفهمونه بالشعر والفلسفة.. وهل الحياة إلا شعر وفلسفة!؟

قلت: فكيف يطبقون هذ الفلسفة على العلاج؟

قال: هم يرون أنه لتحقيق الشفاء يجب أن يكون العلاج معيناً للطبيعة وليس إجراءاً معزولاً عنها.. ولذلك لا يصح أن نتيه مع التسميات المختلفه للأمراض كتشخيص لهذا المريض أو ذاك.. لأنّه من الممكن أن يشكو مريضان من أعراض متشابهة، ولكنها بسبب علتين مختلفتين، أو أن يشكوان من أعراض مختلفة، ولكن العلة واحدة.

ولتحقيق الشفاء يجب أن يوصف الدواء اللازم، أي الصحيح مائة في المائة وإلا لا يمكن الحصول على نتائج إيجابية، بل يمكن أن تخف الحالة فحسب.

قلت: فكيف يتم هذا؟

قال: لتحقيق الشفاء يجب تغيير الدواء عندما تتغير الأعراض في كل مرحلة من مراحل المرض، فإن الهوميوباثي يساعد الجسم على محاربة المرض ولا يحاربه هو بنفسه كالدواء المتداول.. لذا وجب مساعدة الجسم بالشكل المطلوب في كل مرحلة من مراحل المرض، أي كلما حصل تغير ما في الأعراض أو قوة المريض يعود الدواء الذي كان يتناوله غير منسجم مع ما استجد.

قلت: ما معنى هذا؟

قال: ستفهمه في القانون الثالث.

قلت: فما القانون الثالث؟

قـال: هـو القـانون الـذي ينص على أنـه (لا يمكن للأدويـة أن تخترق الجسم الفيزيائي للوصول والتأثير على القوة الحيوية إلا إذا كانت هذه الأدوية في حالتها الديناميكية المنشطة)

قلت: فما معنى هذا لقانون؟

قال: تفهمه بإدراك معنى الدواء الهوميوباثي.

قلت: فما الدواء الهوميوباثي؟

قال: يستخرج الدواء الهوميوباثي من مصـادر متعـددة، إلا أن النباتـات تشـكل أكـثر من 60 بالمائـة من مصـادره.. وتسـتخلص المواد من أجـزاء مختلفـة من النبـات، من قشـور وجـذور وأوراق وأزهار وأثمار الأشجار والشـجيرات والنباتـات الأخـرى.. ثم الأملاح مثل فوسفات الكالسيوم وملح الطعام والـذهب والفضـة والبلاتين والكــبريت.. ثم الحيــوان، مثــل حليب البقــرة، وأصــداف بعض البحريات، والصبغة الزرقاء من الحيوان البحري الحبار التي يقذفها عنـدما يتعـرض لـه، ولسـعات الحشـرات، وفـرو القطـة، وشـعر الحصان.. ثم الأنسجة المريضة مثـل تيوبركلـنيوم المسـتخلص من قيح الســل والــذي يســتعمل في علاج حــالات مشــاكل الصــدر والحنجــرة المتكــررة، وهــو شــبيه بعمليــة التلقيح في الطب المتداول.. ثم المواد المثيرة للحساسية عند بعض الأفراد مثل غبار الطلع الـذي يثـير حساسـية الرمـد الـربيعي، أو غبـار الـبيت الـذي يسبب الربو.. ثم الدواء الذي يصنع من الأدوية الـتي يصـفها الطب المتداول، ويستفاد منها في علاج الآثار الجانبية لهـذه الأدويـة مثـل حـامض الساليسـيليك الـذي هـو مـادة الأسـبرين، فـإن الـدواء الهوميوبـاثي المحضـر منـه يسـاعد على تخفيـف الآثـار الجانبيـة للأسبرين كالدوار ورنين الأذن.

قلت: أهذه مصادر أدويتكم.. إنها مصادر غريبة.

قال: وطريقة عملها أغرب.. فإنهـا كلهـا تسـتعمل لتـؤثر على أساس قاعدة معالجة الشبيه بالشبيه، أي معالجـة المـريض بـدواء يسبب أعراضا في السليم تشابه الأعراض التي عند المريض.

قلت: فهمت كل هذا.. ولكني لم أفهم القـانون الثـالث بعـد.. فما معنى توقـف تـأثير الـدواء على القـوة الحيويـة على كونـه في حالته الديناميكية المنشطة؟

قال: ستفهم ذلك بإدراك كيفية تحضير الدواء الهوميوباثي.

قلت: فكيف يحضر هذا الدواء؟

قال: لقد سمى الـدكتور هانمـان تحضـير الـدواء الهوميوبـاثي من هـذه المصـادر المختلفـة " POtENTIZATION " أو التقويـة، أي وسيلة الحصول على قوة أو فعالية المصدر الـدوائي بشـكل أمين، ولكنه فعال لمعاونة عملية الشفاء.

قلت: ما التقوية؟.. وكيف تكون؟

قـال: إن الغايـة من عمليـة تحضـير الـدواء هـو الكشـف عن الجوهر الطبيعي للمصدر، والذي يجب أن يكون متناسقاً مع جـوهر الشخص المتعاطي له.

قلت: فهمت هذا.. ولكني أسأل عن الكيفية؟

قـال: كيفيـة الوصـول إلى تلـك الحالـة تتم عن طريـق الـرج والضرب على سطح قوي، ثم بالتخفيف.. وقد كان ذلك على عهـد صاحبي يجري يدويا، أما الآن فيجري باستعمال ماكينة خاصة.

قلت: فسـر لي كيفيـة ذلـك.. فلا يـزال خيـالي عـاجزا عن تصوره.

قال: في البدء يؤخذ مستخلص المـادة، ويطحن، ثم ينقـع في الكحـول، أو المـاء، أو سـكر الحليب لمـدد معينـة للحصـول على المحلـول الأول المسـمى المحلـول الأم.. بعـدها تؤخـذ قطـرة من المحلول الأم وتخلط مع قطرات من الكحول، ثم يرج بقـوة لمـدة معينة مع الضرب على سـطح قـوي، لنحصـل عنـدها على محلـول 10:1.. بعدها تؤخذ قطرة من هذا المحلـول الأخـير وتخلـط مـع 9 قطرات من الكحول، ثم يرج بقوة لمـدة معينـة مـع الضـرب على سطح قـوي لنحصـل على محلـول 1:ـ 100.. وهـذا في الطريقـة العشرية.

أما في الطريقة المئوية، والتي هي مستخدمة أيضـاً، فتخلـط قطرة واحدة من مسـتخلص المـادة مـع 99 قطـرة من الكحـول، ومـع الـرج والضـرب نحصـل على محلـول 1:ـ 100، وفي المـرة الثانيـة نحصـل على محلـول 1:ـ 10.000، وهكـذا.. وأقـل نسـبة مصنعة، عادة، هي ا: 1.000.000 أي واحد إلى مليون.

قلت: لا أرى أن هناك مادة في هذا المحلول.. ولا أستطيع أن أتخيل وجود دواء فيها.

قـال: ولكن الحقيقـة العجيبـة تنص على أن هـذه النسـب المخففة هي ليست فقط فعالة، وإنما هي فعالة أكـثر من النسـب الأقل تخفيفا.. أي أن الدواء يصبح أقوى كلما تم تخفيفه، مـع الـرج والضرب طبعاً.. وهو شيء لا يمكن مقارنته بالدواء الاعتيادي.

قلت: إنك وصاحبك تناقضان أصولا عقلية.. كيف يكون التأثير بنقص التركيز؟.. لا أكاد أعي ما تقول.. أليس للحمى التي يـرتعش لها جسمك تأثير فيما تدعي؟

قـــال: لا.. إنهـــا حمى شـــفاء لا حمى داء.. صـــدقت في أن التخفيف، في الحـالات القصـوى، يصـل بالمـادة الأولى إلى درجـة ينعدم فيها وجود أي جزيء منها، وهذا ما حمل البعض على القـول بعدم وجود أي فعاليـة في هـذه المحاليـل المخففـة جـداً.. ولكنهم متوهمون.

قلت: كيف يتوهمون.. وأنت تقر بنفسك بضـعف التركـيز إلى درجة التلاشي.

قـال: لقـد ذكـرت ضـعف التركـيز..ولكـني ذكـرت معـه قـوة التأثير.

قلت: سلمت لك هذا.. فما سره؟

قال: لقد اكتشف هانمان بأن هـذا شـكل من القـوة الداخليـة عنـد كـل مـادة في الطبيعـة، فإنـه يمكن تحريـك هـذه القـوة واستعمالها إذا عرفنا كيف نتعامل مع المادة بشـكل صـحيح.. وقـد أوضح العلم، بعـد هانمـان بكثـير، بأنـه إذا تم تقليص مـادة مـا إلى حالتها الجزيئيـة بحيث يتم فصـل جـزيء منهـا، فـإن هـذا الجـزيء يعـرض شـكلا من أشـكال الحركـة التلقائيـة سـميت الحركـة البراونية(1)، وتتألف كل ذرة وجزيء من درجات عالية من الطاقة، وأن الجسميات الموجودة داخل الـذرة تتحـرك بسـرعة قريبـة من سرعة الضوء، ومن هذا يتضح أن المواد كلها تخـزن كميـات هائلـة من الطاقة الساكنة بداخلها.

وبسـبب مـا، يتمكن الـرج والتخفيـف الهوميوبـاثي من إطلاق هـذه الطاقـات العظيمـة العلاجيـة..وكمـا أنـه يمكن رؤيـة الحركـة البراونيـة في المجهـر، فإنـه يمكن رؤيـة هـذه الطاقـات من خلال النتائج الباهرة التي تحققها في العلاج.

وكما أصبحتم تتقبلون ما تقوله الفيزيـاء الكميةوأينشـتاين من أن المادة هي في الحقيقة طاقة، وأنـه يمكن إطلاق هـذه الطاقـة، فإنه يمكن هضـم أمـر هـذه المـواد الفعالـة بشـكل عجيب، والـتي تتوجه لتخليص الإنسان من المرض.

قلت: أدركت هـذا.. واسـمح لي أن أعـترض اعتراضـا عليـك وعلى صديقك.

---

1) نسبة إلى براون.

قال: لا حرج عليك.. اعترض كما تشاء.
قلت: لقد ذكرت أنه قام بالتجارب على نفسه وعلى أصدقائه وعلى المرضى.. ألا يتنافى هذا مع أصول التجـارب العلميـة.. فهي لا تجري تجاربها على الإنسان قبل إجرائها على الحيوان.
قال: هذا خطأ من أخطاء قومـك.. فهم يجربـون الـدواء على الحيوانات بحقنها بمواد تصيبها بالمرض، ثم تحقن بالـدواء لمعرفـة مدى فعاليته.. ثم بعد ذلك يطرح الدواء الجديد في السوق.
قلت: هذه الطريقة المثلى.. فقد يكون الدواء سما؟
قـال: ولكنهـا طريقـة ناقصـة إن لم تكن خاطئـة تمامـاً.. فالحيوانـات تختلـف فزيولوجيـاً عن الإنسـان، كمـا أنهـا لا تسـتطيع الكلام لتخبرنـا عمـا تحس بـه عنـد أخـذ الـدواء.. بـل قـد وجـد أن الفـئران، وهي من أهم الحيوانـات وأكثرهـا اسـتعمالاً في هـذا المجال، تتأثر بالمواد التي تحقن بها بدرجـة تختلـف كثـيراً جـداً عن تأثر الإنسان بها، وهذا يعني أن ما يحسـبه المصـنعون فتحـا جديـداً في علاج المرض الفلاني لا يعدو كونه وهما، لأنّ أثره العلاجي على الإنسـان سـيكون مختلفـا ً.. هـذا بالإضـافة إلى أن الآثـار الجانبيـة ستكون مختلفة تماما هي الأخرى.
قلت: والأمان.. وحرمة الإنسان..؟
قـال: لقـد كنت تـذكر لي بـأن دواءنـا خـال من الـدواء.. وأن تركيزه يجعله ماء صافيا.. فكيف تخاف منه؟
قلت:....!؟
قال: ولهذا فإن الدواء في الهوميوبـاثي يجـرب على الإنسـان كمـا فعلنـا في السـنين الأولى لهـذه الطريقـة العلاجيـة.. وبهـذه التجـارب والـتي تسـمى(PROVINGS) تعطى للإنسـان المتطـوع للتجربة(PROVER) المادة التي هي قيد البحث، وتسجل الملاحظات كلها حسب الدقـة الـتي وضـعت في التشـخيص.. وبعـد أن تصـبح المادة دواءاً يتم مطابقة أعراض المريض مـع مـا حصـل للمتطـوع للتجربة، ويوصف الدواء على أساس التماثل بين الاثنين.
قلت: فهمت هذا.. فحدثني عن القانون الرابع.
قـال: إن القـانون الرابـع ينص على أنـه (يجب البحث عن المـرض في المسـتوى الـديناميكي وليس المسـتوى الفيزيـاوي - الكيمياوي)
قلت: أرى صاحبك يجعل القوة الحيويـة في كـل شـيء حـتى في المرض.

قال: أجل.. لقد فهمت فلسفتنا.. فقد كان هانمـان يبحث في إمكانيـة وجـود العوامـل الخارجيـة كأسـباب للمـرض، وهـو شـيء مشابه لفكرة البكتريا والمكروبات السـائدة في الطب المتـداول.. ولهذا، فإنه في كتابته عن الكوليرا قارن بينها وبين مخلوقات قاتلـة التصقت بشعر المريض أو جلده أو ملابسه.. ومـع ذلـك فقـد قـال بأن هذه المخلوقات لا تستطيع أن تضر الجسـم إلا بعـد أن تحـدث تشويشاً في الوضع الطبيعي للقوة الحيوية فيقع، لأجـل ذلـك، هـذا الجسم فريسة للمرض.

قلت: فالصراع يتم إذن بين مسببات المرض والقـوة الحيويـة للإنسان؟

قال: ليس هذا فحسب.. بل أسـبابه كـذلك، فقـد اعتقـد بـأن هذه المخلوقـات أو العوامـل التدميريـة المضـرة ليسـت هي الـتي تسبب المرض كأجسام ولا حتى سمومها، وإنما طبيعتها الخاصة أو قوتها الحيوية ذاتها أو روحها.. بل ذهب إلى أكثر من ذلـك، وهـو أن هذه المخلوقات الحية النابضة التدميريـة لا تـؤثر إلا على الأجسـام القابلة لذلك، وأنها لا تؤثر عليهم إلا على مستوى الطاقة الحركي.

قلت: لماذا؟.. وهل تفرق هذه المخلوقات بين جسم وجسم؟

قال: أجل.. والدليل على ذلك أنه إذا كان المرض يحل بمجرد التعرض للبكتريا أو لعدد كبير منها، لماذا لا يصاب كـل من يتعـرض لها؟

فهناك من ينام في نفس السرير مع مريض بالسل مثلاً، ثم لا يصاب بالمرض، وبنفس الوقت هناك من يعيشون معيشـة صـحية، ومـع ذلـك يصـابون بـالمرض.. ولهـذا فقـد ذهب أصـحابي إلى أن المرض لا يحصل إلا بتحقق شرطين.. أولهما وجود عامل خارجي.. والثاني قابلية الجسم للمرض.

قلت: فليس السـبب إذن التعـرض لكميـة أكـبر من المكروبات؟

قال: لا.. ولو كان الأمر كذلك لأصـيب جميـع السـكان بالوبـاء الذي يصيب منطقتهم.

قلت: لقد ذكرتني بقوله ﷺ: (لا عدوى ولا طيرة) فقد نفى ﷺ أصل العدوى..

قال: وهذه الفكرة متناسقة تماماً مع فكـرة الحساسـية الـتي يؤمن بها الطب المتداول، حيث يصـاب الإنسـان بكـل آثـار المـادة المعينة بمجرد أن يتعرض لكمية صغيرة منها، هـذا على الـرغم من

أن هذه المادة غير مضرة للأغلبية الساحقة من الناس.

بل يمكن إثبـات ذلـك بشـكل واضـح عنـد النظـر إلى الفـترة الأولى من الإصابة بالمرض، وهي فترة حمل المـرض يحمـل فيهـا المـريض المـرض، ولكن بـدون أي أعـراض ظـاهرة.. ففي هـذه الفترة يكون المرض موجودا على المستوى غير المحسوس، ولكنا سنعرف به بعد ظهور الأعراض، فهل يسـتطيع أي طـبيب أن ينكـر وجود المرض قبل ظهور الأعراض؟

قلت: فهمت فلسفتكم للمـرض، فكيـف تمـيزون بين الأنـواع المختلفة للأمراض؟

قـال: أنت لم تفهمنـا بعـد.. ألم تعلم بأنـا ــ مـع إخواننـا من أصـحاب الطب البـديل ــ ننظـر إلى المـريض نظـرة كليـة، فعن طريقها، وعن طريقها فقـط، يمكن القضـاء على المـرض.. فليس هناك شيء اسمه مرض عضو معين، وليس صحيحا أن نقـول بـأن المعـدة مصـابة بـالمرض الفلاني.. ولكن الصـحيح أن نقـول بـأن الشخص مريض، وأن الأعراض المرضية ظهرت في معدتـه، أو أن المعدة هي أكثر جزء متأثر بالمرض.

قلت: فما الفرق بين القولين.. فسواء قلنا إن المعدة مريضة أو عليهـا عـرض المـرض.. فـإن الأمـر ليس سـوى خلاف عبـارات وألفاظ.

قال: لا.. الأمر أخطر من ذلك بكثير.. ولهذا لما كـان الإنسـان يعالج المرض، منذ عصـور بإسـكات أعـراض المـرض فقـط، فقـد سـبب ذلـك ضـعفا يتضـاعف شـيئاً فشـيئا على مـر الأجيـال، وبـدأ الأطفال بوراثـة حساسـيات معينـة في أعضـاء معينـة من كـل من الأب والأم مما ينتج عطباً في الطفل، إما هو نسخة من الذي كـان عند أحد الأبوين أو من مجموع ما كان عند الاثنين معاً.

قلت: أريد الفرق العملي بين الأمرين فإني لا أكاد أفهمه.

قال: إن النظرة الهوميوباثية للمـريض نظـرة كليـة، وبالتـالي فـإن العلاج لا بـد وأن يكـون نـاظراً إلى المـريض كجسـم مـريض وليس كمــرض معين، أي يجب أن يكــون العلاج علاجــاً للمــريض ككل، وليس لذلك العضو الذي تبـدو عليـه آثـار المـرض، ذلـك لأنّ الأعــراض ليســت إلا ردود فعــل الجســم ومحاولتــه التخلص من التـأثيرات المضـرة الـتي ليسـت إلا تعبـيرات ماديـة عن اختلالات سبقتها على المستوى الديناميكي الكهرومغناطيسي.

قلت: عرفت هذا.. وأريد التأثير العملي.. أو الدواء.

قـال: الفكـرة في الـدواء تنطلـق من هـذا، وهي أن يعطي المريض دواءاً كان قـد ثبت بالتجربـة أنـه يسـبب للسـليم أعراضـاً مشابهة لتلك التي عند المريض.

قلت: ما الغرض من هذا الدواء.. ومن إعطائه بهذا الشكل؟

قال: بما أن هذا الدواء يحفز أعراضاً مشابهة لتلك الـتي عنـد المريض بالتجربة، فإنه سيحفز هذه الأعراض عنده عندما يتناولـه.. وهذا سيحفز القوة الحيوية أن تقاومه لأنّ لكل فعل رد فعل.

فالذي يحصل هو أن القوة الحيوية تقاوم الأعراض المرضـية، وهي في معرض مقاومتها للأعراض الناتجة عن الدواء.

قلت: ولكن ما الذي يحفز القوة الحيوية بعـد تعـاطي الـدواء، ولا يحفزها قبله؟

قـال: إنـه مـا ذكرنـا من قـوة الجرعـة الدوائيـة الـتي تعطي أعراضاً أقـوى من أعـراض المـرض ذاتـه ممـا يـؤدي إلى رد فعـل أقوى من جانب القوة الحيوية.

قلت: أرى أنه من الصعوبة تحديد مثل هذا الدواء.. فالعوامـل المؤثرة في القوة الحيوية كثيرة جدا.

قال: أجل.. فالعوامل التي تؤدي إلى إلى حصول المرض قـد تكون، بل لا بد وأن تكون، أكثر من واحد.. فهناك العامـل الـوراثي، وهو وراثة الضعف على مـر الأجيـال.. وهنـاك عامـل التطعيم ضـد الأمـراض السـارية والوبائيـة.. وهنـاك عامـل الأدويـة القويـة الـتي يصفها الطب المتداول.. فكل هذه العوامل تسـبب خللا في القـوة الحيوية إلى الدرجة التي تصيب المرض بحالة مرضية مزمنة.

ولهذا عندما يعالج الطبيب الهوميوباثي هذا المريض فلا بد أن يلاحظ بدقة كبـيرة التبـدل المسـتمر للأعـراض في مراحـل العلاج المختلفة، لأنّ الأدوية الـتي يصـفها في هـذه المراحـل تعمـل على القضاء على العوامل التي اجتمعت مسببة المرض واحـدا واحـدا.. وكلما بدأ عامل بإظهار نفسه كان على المعالج أن يغـير الـدواء إن كان هذا الدواء لا ينفع في الحالة بعد أن تبدلت أعراضها.

قلت: هل قام أصحابكم بدارسة علميـة لـردود الأفعـال تجـاه الأدوية الهوميوباثية؟

قـال: أجـل.. فعلمنـا أصـوله الشـاملة الـتي تجيب عن كـل تساؤل.

قلت: فما ذكروا؟

قـال: لقـد وجـدوا اثـنين وعشـرين رد فعـل.. تختـل بحسـب

مرحلة العلاج.

قلت: ماذا يحصل بعد الوصفة الأولى؟

قال: تنتقل الأعراض المرضية من مركز الجسم إلى محيطه.. أو تنتقل من أعلى الجسم إلى أسفل.. أو تنتقل من الأعضاء الأكثر أهمية(1) إلى الأقل أهمية.. أو تختفي برتيب معاكس لترتيب ظهورها في الجسم، فتختفي الأعراض التي ظهرت في البداية في نهاية العلاج، وتختفي التي ظهرت في آخر الأمر في بداية العلاج.

التأمل الشافي

بعد أن بذلت جهدا عقليا شديدا في محاولة فهم ما قاله الحكيم الخامس شعرت بالراحة تسري في أوصالي.. فتعجبت من هذا.. وقلت: سبحان الله.. إن الجهد الجسدي يثمر التعب.. ولكن الجهد العقلي لا يثمر إلا الراحة والسكينة والاستقرار.

ما إن خطر هذا الخاطر على خاطري حتى ربت أحدهم على كتفي، وقال: صدقت.. وقد فهمت أساسا مهما من الأسس التي تقوم عليها اليوغا(2).

قلت: من أنت؟.. وكيف عرفت ما أفكر فيه؟

قال: أنا فرد من هذا الكون.. أما سر معرفتي لما تفكر فيه، فلن تفهمه إلا إذا فهمت اليوغا.

قلت: فما اليوغا؟

قال: هي الوحدة(3).. ويمكنك أن تسميها التكامل.

قلت: لم أقصد ترجمة الكلمة، وإنما قصدت معناها.

قال: الوحدة بمعناها الشامل.. والذي يبدأ بربط الإنسان بالوجود، وينتهي بربط الإنسان بعضه بعض.

قلت: كيف يتوحد الإنسان بالوجود؟

قال: ألم تسمع قوله ﷺ عن أحد:(هذا جبل يحبنا ونحبه)(4)

قلت: بلى.. ففيهما إثبات حياة الكائنات.

قال: لا.. ليس ذلك فقط.. بل فيه توحدها، وتوحد مشاعرها.

---

1) ينص الطب الهوميوباثي على أن الطبيعة تحاول دائماً أن تبعد المرض عن الأعضاء الأكثر أهمية وعن مركز الجسم، إلا أنه بعد مدة، وعندما تتلاشى مصادر مقاومته يتقدم المرض إلى الأعضاء الأكثر عمقاً.

2) اليوغا YOGA: هي الطريقة العلاجية التي تستعمل حركات اليوغا لتحقيق التوازن المفقود وعلى أساس الأفكار الفلسفية لليوغا.

3) اليوغا كلمة مأخوذة من اللغة السنسكريتية الشرقية القديمة، وتعني التكامل أو الوحدة.

4) البخاري ومسلم:.

قلت: أنا أعرف هذا.. فقد أخبر الله تعالى بقنوت كل شيء له وسجوده بين يديه.

قال: فهذا هو التوحد الكوني.

قلت: فما الحاجة إليه؟

قال: لأن التشتت يجعلك فردا شاذا في الكون.. وهو ما يجعل كل شيء يحاول طردك كما يطرد جسمك الأشياء الغريبة عنه.

قلت: إنك تصور لي الكون، وكأنه جسم واحد.. وله روح واحدة.

قال: ذلك صحيح.. فالكون كالجسم فيه الأجهزة المختلفة.. ولكنه في الحقيقة ليس إلا ذاتا واحدة.

قلت: فما التوحد الشخصي؟

قال: هو توحد الروح والجسد.. أو هو توحد العقل والجسم.

قلت: بماذا توحدهما؟

قال: تدعو العقل لخدمة الجسد.. وتدعو الجسد لخدمة العقل.. أو توفر للعقل الوسائل التي يخدم بها الجسد.

قلت: أنا احترم جميع ما ذكرت من أقوال.. ولولا أن لي مهمة في هذا القسم لجلست معك وتبادلنا أطراف الحديث في هذه المسائل.. فإن لي حنينا إليها.

قال: وعم تبحث؟

قلت: أنا أبحث عن أسرار الشفاء بالبدائل.. وقد زرت حتى الآن خمسة حكماء.. وأنا أبحث عن سادسهم.

قال: فأنا سادسهم.. أنا حكيم من الحكماء السبعة..

قلت: ولكن الحكماء السبعة جاءوا بطرق علاجية.. وأثمرت طرقهم في علاج المرضى.. أما أنت فلا أراك تريد غير دمج الإنسان مع نفسه، ثم دمجه مع الكون.

قال: هذه هي طريقتي العلاجية التي ذهبت من أجلها إلى الهند لتعلمها على يد أهلها.

قلت: فهل يمكن لما ذكرته أن يحقق الشفاء؟

قال: أجل.. فقبل ألفي عام قال باتانجالي، وهو أحد كبار حكماء اليوغا، بأن اليوغا هي السيطرة على فعاليات العقل.. فمثلما استطعنا بالتدريب أن نمشي ونستعمل أيدينا بتوافق في أول مراحل الطفولة، نستطيع بالتدريب أن نتعلم كيف نستعمل عقولنا بشكل مسيطر عليه.

قلت: فالغرض من اليوغا إذا هو السيطرة على العقل؟

قال: أجل.. فالطريقة المركزية لتحقيق السيطرة على العقل هي ما نسميه بالتأمل.

قلت: أللتأمل من التأثير ما يحدث الشفاء؟

قال: أجل.. وقد تم فحص التأمل علمياً وكانت النتائج مدهشة حقــاً.. فقــد اكتشــفوا أن الشــخص المتأمــل يخفض من حاجتــه للأوكســجين بحــوالي 20 بالمائــة.. في الحين الــذي لا يســتطيع تخفيضه في الأحوال العادية أكثر من 5 بالمائة.

قلت: فما السر في ذلك؟

قــال: هــذا ســر مهم جــدا لــه تــأثيره الكبــير على الإنســان.. فالدماغ هو أكبر مستهلك للطاقة على الرغم من أن حجمه لا يزيد على 2 بالمائة من حجم الجسم.. وسبب إدمانه للطاقة هو هبــوط فعالياته.

قلت: أتريد من العقل أن ينام.. إن نشاطه دليل على حياته.

قال: ولكنه نشاط صــراع لا ســلام..ولا خــير في الصــراع.. إن فعاليات الدماغ ـ التي ننكرهــا، والــتي تســتخدم جــل طاقتنــا ــ هي الأفكار التي تخطر في بالنا بسرعة، وتبتعــد وتقــترب، وكــأن هنــاك في أدمغتنا مناقشات حامية.

قلت: فكيف عرفتم هذا التأثير؟

قال: أسلافنا تلقوه حقائق لا نــدري مصــدرها.. فلعــل نبيــا من الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ أرشــد إلى هــذا الطريــق الحيــاتي العلاجي.

قلت: حدثني بما يفهمه قومي.

قال: هناك جهاز إلكتروني يقوم بفحص مدى استرخاء الجلــد، بحيث أن الجلد يبدو أكثر استرخاء بمجرد أن تجلس لتستريح لمدة قصيرة من الزمن، ويمكن معرفة تغير الحال بواسطة صوت يخرج من الجهاز.

وإذا وضعت قطبي الجهــاز على إصــبعيك، وقمت بالإحســاس بأنك تعيس لمدة ثوان ستسمع بأن الصوت قد أصــبح عاليــاً جــداًن بعدها إذا توقفت عن ذلك الإحساس لا يعــود الصــوت إلى مــا كــان عليه قبله إلا بعد مرور دقائق.

قلت: أيوجد هذا الجهاز؟

قــال: أجــل.. وهــو يعمــل بأســاليب بســيطة.. فالأفكــار الــتي نحملها هي التي تسري في أجسادنا بالبلاء والعافية.. فقارن بين ما

يحدث عندما تصاب بمختلف الأحاسيس المؤلمة مع مـا حـدث من تغيير في الجلد بسبب إحساس مفتعل لم يستغرق أكـثر من ثـوان معدودة.

قلت: أيتأثر الجسم بالحقيقي والمفتعل من التأثرات؟

قـال: أجـل.. فسـواء كـان القلـق أو الخـوف حقيقـيين أو مفتعلين، فإن التأثير السلبي على الجسم مؤكد، ويستمر لمدة من الزمن حتى بعد زوال الحالة.

قلت: فكيف تربطون هذا بالمرض والعلاج؟

قال: نحن نعتقد أن من أهم أسباب المرض نفس المـريض.. أي معيشته بطريقـة غـير متوافقـة مـع الطبيعـة سـواء أكـان ذلـك بسبب إهماله أو عدم معرفته.

قلت: فكيف تعيدون الإنسان إلى الطبيعة؟

قال: بتصحيح الأخطاء ومن قبل المريض نفسه.. فاليوغا تعلم الطريق، وعلى المريض أن يتبع النظام الصحيح.. ألم تسـمع قـول معلمك بأنه لا طاقة له ببناء ولا هدم؟

قلت: ولكنه يقـول لي دائمـا:(يـداك همـا اللتـان تبنيانـك) ولم يقل: عقلك هو الذي يبنيك.

قـال: لأن يـداك تـأتمران بـأمر عقلـك.. فلـذلك إن أردت من شخص شيئا هل تذهب يده تستجديها، أم تذهب إلى عقلـه تحـاول إقناعه؟

قلت: بل أذهب إلى عقله.

قـال: فهكـذا مـع المـرض والشـفاء.. لا تـذهب إلى المـرض تطلب منه الخروج.. بل اطلب من العقل أن يطرده عنك.

قلت: وهل فعل العقل شيئا من هذا حتى أطمئن إلى قوته؟

قال: فعل الكثير.. لقـد اسـتُخدِمَت اليوجـا بنجـاح مـع حـالات مرضى القلب.. كما أثبتت فاعليتها مع أنـواع كثـيرة من الأمـراض، كالالتهاب الشعبي، والـبرد، والإمسـاك، والاكتئـاب، وإجهـاد البصـر، والانتفاخ، والصداع، وعسر الهضم، وعدم انتظام الـدورة الشـهرية عنـد النسـاء، وضـعف الأعصـاب، والسـمنة، ومشـاكل البروسـتاتا، والرومـاتيزم، وعِـرق النسـا، ومشـاكل الجيـوب الأنفيـة، والتهـاب الحلق، وتجاعيد البشرة.. ولهذا أصبحت أحد العناصر الأساسية في ممارسات الطب البديل في الغرب.

قلت: هل يمكن أن تشـرح لي كيفيـة التـأثير على حسـب مـا يفهمه قومي؟

قال: سأضرب لك مثلا على ذلك بمرضى السكري، فمــريض البول السكري لا يستطيع جسمه إنتاج هرمون الأنسـولين بكفـاءة، وهو الهرمون الذي يساعد على تحريك الجلوكوز، الذي هـو مصـدر للطاقة، من مجرى الدم في الخلايا، وأظهرت الأبحـاث الحديثـة أن بعض أنواع اليوجا وهي الهاثا يوجا[1] توفر فائدة حقيقية في توازن السكر في الدم؛ حيث أثبتت الأبحاث الـتي أُجـرِيَت على عينـة من مرضى السكريّ أن التزام هؤلاء المرضى بممارسة اليوجــا خمس مــرات، وبشــكل يــومي قــد مكنهم من تقليص عــدد جرعــات الأنسولين التي يحتاجونها.

قلت: هذه فائدتها للمرضى؟

قال: وهي للأصحاء لا تقل شأنا.. فممارسة اليوجا مرة واحدة أسبوعيًّا لها فائدة كبيرة في مقاومة الضـغوط النفسـية والأمـراض عموما.

قلت: ما هي الأعمار التي تسمح بأدائها؟

قـال: هي ملائمـة لكـل الأعمـار، فـالمهم أن يطـور الإنسـان مهاراته في رياضة اليوجا بما يلائم قدراته الجسمية.

إرادة الشفاء

سـرت باحثـا عن الحكيم السـابع، محـاولا اسـتخدام التأمـل الباطني لاستكناه حقيقته والعلاج الذي جاء به، وبينما كنت كذلك إذ رأيت رجلا يجلس مـع نفسـه، وهـو يخـاطب شـيئا لا أراه، ويقـول: (ابتعدي أيتها القطة المؤذية.. وإلا سلطت عليـك كـراتي البيضـاء.. إن أنيابك الحادة لا تخيفني.. وإن مخالبك أوهى من بيت العنكبوت)

دعكت عيني بيدي محاولا رؤيـة هـذه القطـة الـتي يخاطبهـا.. لكني لم أجد شيئا.. لم أتسرع بلوم الرجـل، فقـد عـرفت عـواقب التسرع.. بل أرجعت اللوم على نفسي، واتهمت عيني.. ثم قصدت الرجل قائلا: إنها قطة مؤذية.. فسلط عليها كراتك البيضاء.

قال: هل ترى القطة؟

حـاولت التخلص قـائلا: أنـا أرى أشـياء كثـيرة.. والقطـط من الأشياء التي يسهل لعيني رؤيتها.

قال: لا.. لا أقصد القطط العادية.. أقصد قطتي.

قلت: كــل القطــط عاديــة.. هي تختلــف في ألوانهــا.. وفي أصوات موائها، ولكنها تبقى دائما قططا.

---

1) وهي تعني التوازن، وهـذا النـوع من اليوجـا يمثـل الفكـرة المركزيـة لليوجـا، وهي الترابط بين الجسم والعقل.

قال: لم تجبني عن سؤالي.

قلت: إن شئت الصراحة، فإني لا أرى قطة، ولا كرات بيضاء.. ولكني اتهمت عيني وصدقتك.

قال: فهلا أردت رؤيتها؟

قلت: وهل يمكن للإرادة أن تصور لعيني قطة أحادثها وتحادثني؟

قال: الإرادة تأتي بالمعجزات.

قلت: أخبرني ما الذي جعلك تستهوي عالم القطط دون غيرها من العوالم.. ألك هواية بجمع القطط؟

قال: لا.. أنا لا أجمع القطط.. ولا أحب جمعها.. ولكني أصابني مرض أقعدني كما ترى.. فجلست أعالج نفسي.

قلت: تعالجها بالقطط.. هذه أول مرة أسمع فيها العلاج بالقطط.

قال: لا.. ليس هذا علاجا بالقطط.. بل هو علاج بالإرادة.. أنا أستعمل سلاح الإرادة والتخيل في مقاومة أدوائي.

قلت: وما علاقة القطة بذلك؟

قال: أنا أعقد جلسات لنفسي أستعمل فيها الإرادة في الشفاء.

قلت: لا شك أنك الحكيم السابع الذي أبحث عنه.

قال: صدقت.. فأنا من الذين يعافون تلك السموم التي تداوون بها أنفسكم؟

قلت: فهل رحلت إلى الصين أو الهند لتعلم هذا الأسلوب من العلاج؟

قال: لا.. لم أرحل إلى أي بلد من البلدان.. أنا من صغري حبيس مسقط رأسي.. ولكنه كانت لي علاقة مع بعض مشايخ الروح.. فحاولت أن أطبق أسلوب الترقي الروحي في العلاج الجسدي.

قلت: كيف ذلك؟

قال: في العلاج الروحي الذي كنت أمارسه كنت أتصور الشيطان جاثما على صدري.. وأنا أطرده بصنوف الذكر والاستعاذة.. فيفر مني، ويسلك فجا غير فجي.

قلت: هذا صحيح.. وقد أخبر الله تعالى عنه، فقال يأمرنا بالاستعاذة: ﴿ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾(الناس:4 ـ 6).. وقد قال رسول الله ﷺ

:(إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم، فإن ذكر اللّه خنس، وإن نسي التقم قلبه، فذلك الوسواس الخناس)[1]

قال: لقد استعملت هذا التصور في طرد صنوف الأدواء التي تحل بجسمي.

قلت: كيف ذلك؟

قال: أنا أجلس مع نفسي، فأتصور الألم إنساناً أو مخلوقاً آخر.. ثم أتكلم معه، وأسأله أسئلة مختلفة، ثم استدرجه للقضاء عليه.

قلت: كيف ذلك؟

قال: سأذكر لك مثالا عن صاحب من أصحابي اعتمد هذا الأسلوب في العلاج، هو رولاند شون، فقد حكى لي عن نفسه ما استفاد منه، فرحت أطبقه.

قلت: وما حكى لك؟

قال: لقد التوى عموده الفقري في مناسبة بسيطة، وبعد ثماني سنوات كان لا يزال يعتقد بأن الألم لم يكن بدنياً تماماً، وإنما هناك جانب نفسي.. وقد كان حساسا، فاعتقد بأن للألم علاقة بإحساسه بالذنب من تغييره عمله.

قلت: وما علاقة إحساسه بالذنب بالمرض؟

قال: لقد أثبتت الأبحاث أن الرغبة بالانتقام من النفس من الممكن أن تؤدي إلى أشكال عديدة من الألم.. فحتى لو زال السبب البدني فإن الألم يستمر لأن المريض يحتاج إلى الألم.

قلت: كيف يحتج الألم للمرض؟

قال: ألم تسمع مذهب صديقي ادوارد باخ؟

قلت: لا أعرفه.. ولا أعرف مذهبه.

قال: هو الدكتور الإنكليزي إدوارد باخ، وقد كان طبيبا هوميوباثياً وباحثاً بكتربولوجيا ناجحاً.. وفي عام 1930م ترك عمله في عيادته الناجحة في شارع هارلي الشهير في لندن، وعكف على محاولة العثور على نظام طبي أبسط وأكثر طبيعية بحيث لا يحتاج إلى تغيير أو تدمير أي شيء من مواد الدواء الأولية.. وهو صاحب العلاجات الزهرية.. وهو يتجول في هذا المستشفى للبحث عن بعض الأزهار، ولو صبرت قليلا للقيته.

قلت: فما مذهب صديقك هذا؟

قال: هو يرى بأن المرض ليس سوى عملية تصحيحية، وأنه

---

1) الحافظ الموصلي.

ينبهنا إلى أخطائنا كي لا نقع فيها مستقبلاً.

قلت: فهو ينظر إلى الجانب الإيجابي في المرض.

قال: لا.. هو يفسر المرض بهذا.. فهو يرى بأن المرض ليس قاسياً أو انتقاماً.. بل هو إجراء اتخذته الروح لكي تدلنا على أخطائنا، وللحيلولة دون ارتكابنا للمزيد منها، ولمنعنا من إحداث عطب أكثر، ولجلبنا من جديد إلى طريق النور والحقيقة والذي كان يجب علينا ألا ننحرف عنه.

قلت: إن ما تقوله هو ما يقوله ديننا.. وقد مررت في (ابتسامة الأنين) على ما في المرض من نعمة التطهير.. فعندما دخل عبد الله بن مسعود على النبي ﷺ في مرضه وجده وهو يوعك وعكا شديدا، فقال: إنك لتوعك وعكا شديدا، إن ذاك بأن لك أجرين قال:(أجل ما من مسلم يصيبه أذى إلا حات الله عنه خطاياه كما تحات ورق الشجر)

قال: بل شبه ﷺ تأثير المرض بقوله:(إنما مثل المريض إذا برأ وصح كالبردة تقع من السماء في صفائها ولونها)

ولهذا وردت النصوص بالنهي عن سب المرض، فقد دخل ﷺ على أم السائب، فقال:(ما لك يا أم السائب تزفزفين؟) قالت: (الحمى، لا بارك الله فيها)، فقال:(لا تسبي الحمى، فإنها تذهب خطايا بني آدم كما يذهب الكير خبث الحديد)(1)

قلت: فلنرجع إلى صديقك رولاند شون، فقد كنت تذكر لي ما اعتمده من علاج.

قال: لقد كان يعقد لنفسه جلسات مختلفة لا يداوي نفسه فيها إلا بالإردة.

ففي الجلسة الأولى.. كان يصور تصوّر الألم كقطة كبيرة متوحشة وغاضبة لها أسنان هائلة، وهي تسحب عموده الفقري، ثم جاءت طيور بيضاء، وحاولت أن تطرد القطة إلا أنها لم تفعل، وكانت تعود إلى العمود مرة بعد أخرى.

قلت: ألا بد من اختيار القطة؟

قال: لا ليس بالضرورة.. فالغاية هي تصوير الألم كمخلوق.. ثم تترك العقل الباطن يختار، وارض باختياره من غير أن تحاول أن تختار بين صور متعددة..

قلت: فما الطيور البيضاء؟

قال: قد تكون الطيور البيضاء كناية عن كريات الدم البيضاء..

---

1) مسلم.

وقد كان عددها قليلاً لا يفي بالغرض.

قلت: وفي الجلسة الثانية؟

قال: كان يتكلّم مع القطة ويسألها:(لماذا أنت هنا؟).. فتجيبه بأنه يستحق أن يلقن درساً لأنه ترك عمله، ثم يسألها:(أليس ما عانيته لحد الآن كافياً؟)، فتجيبه:(نعم).. ثم تذكر له بأنها لن تذهب طواعية، وإنما يجب أن تطرد، كما أنها متضايقة من وجود هذه الطيور.. فيسألها:(كيف أتخلص منك، هل بأن تبتلعك كريات الدم البيضاء؟).. ثم أرسل إليها مجموعات من كريات الدم البيضاء، كمجموعات الجراد، بحيث أصبحت القطة مغطاة بها بشكل كامل.. ثم إن المنطقة غسلت، وجاء رجال صغار يحملون بعض الماء الذي رشقوا به المنطقة لينظفوها من الالتهاب والفضلات.

قلت: ما كان تأثير هذه الجلسة عليه؟

قال: لقد كان المشهد غير واضح، وكان في أثنائه إشارات عاطفية مريحة، وفي بعض الأحيان ذهاب الشد في عضلات المعدة.. زيادة على إيجابية هذه الجلسة مقارنة مع الأولى.. ولذلك استطاع أن ينام تلك الليلة أفضل من المعتاد، كما استيقظ بحالة عقلية أفضل، على الرغم من وجود الألم.

قلت: فماذا فعل في الجلسة الثالثة؟

قال: لقد هاجمت الكريات البيضاء مرة أخرى القطة التي أصبحت خائفة وصغيرة.. ثم جاء فريق من رجال صغيري الحجم، وغسلوا أليافا عصبية وبدأوا عملية تصليح.. وكانوا يغنون ويلعبون أثناء العمل حيث كانوا يتزحلقون على الألياف العصبية.

وفي بعض الأحيان كانوا يدخلون مقطعاً جديداً، وفي أخرى كانوا يربطون أطراف الألياف لعمل توصيله.

قلت: هذا مشهد إيجابي للغاية، فكل الإشارات تدل على أن الجسم بدأ بتصليح نفسه.

قال: وفي الجلسة الرابعة لم تظهر القطة، بل ظهر رجل لم يكن غاضباً، بل كان في الحقيقة حذراً.. وقد سأله عن سر وجوده، فأجابه بأنه يريد سحب الأعصاب بعيداً عن العظم الخارج.. وعندها يطلب منه أن يتم التصليح، فجاء رجال، وجلبوا معهم حبالا وبكرات لجذب العظم. ثم دلكوا المنطقة ببعض المراهم وسحبوا الأعصاب برفق.. ثم سألهم:(هل يمكن عمل أكثر من ذلك الآن؟)، فقالوا له: (لا، ليس الآن، ولكن تستطيع أن تدفئ المنطقة).. ثم جاء رجل بيده مصباح حراري، وبدأ يمرر اللهب على المنطقة، بعدها طلب

منه أن يطفئه لأنه يريد أن ينهي الجلسة.

قلت: ألاحظ التركيز في هذه الجلسة على التصليح.

قال: ملاحظتـك في محلهـا.. فـالأمر المهم هنـا هـو أن تجمـع جميع دفاعات الجسـم لتعمـل من أجـل منفعتـك.. وكـان اللهب أو الحرارة صـورة ذهنيـة لعلاج حقيقي إذ أن زيـادة حـرارة المنطقـة يزيد من الدورة الدموية فيها مما يساعد في العلاج.

قلت: فما الذي حصل بعد كل هذه الجلسات؟

قال: إن أهم شيء يجب ملاحظته والاهتمـام بـه هـو ضـرورة أن ترى نفسـك، قبـل إنهـاء الجلسـة، خاليـاً تمامـاً من الألم، وكـل الأعراض الأخرى أي خالياً من المـرض، وأنـك أصـبحت قـادراً على أن تفعل كل ما تحب أن تفعله.

ويجب أن ترى بعين عقلك حالتك التي تحب أن تكـون عليهـا، وليس أن تتحسـن وأنت في وضـعك الحـالي.. إن العقـل البـاطن يعمل على ضوء مبادئ متعددة، وبرؤيته للنتيجـة النهائيـة، أي زوال الألم، يقوم بعمل برامج معينـة لتحقيـق ذلـك.. وهـذه الـبرامج هي برامج هادفة وليست خادعة.

قلت: لا أزال أشـعر أن الإرادة أضـعف من أن تحـل محـل الأدويـة.. ولا أزال لا أدرك ضـعف الخيـال وقصـوره.. فهـو ملجـأ الكسالى.

قـال: لا.. الإرادة هي القـوة الداخليـة الـتي تعطي التوجيـه والغاية فيما نعمل.. فهي تمثل الوسيلة الـتي تجمـع كـل الطاقـات الجسمانية والعواطف والدوافع في علاقة تعاونية هادفة.

وهي والخيال من أسلحة الروح والجسد.. والتخيل لا يقل عن الإرادة.. بل إنهما إن كانا في صراع.. فإن التخيل لا بد وأن ينتصر.

قلت: أيمكن أن يتصارعا؟

قال: الإرادة الفاعلة هي الـتي تمتطي الخيـال لتحقـق بـه مـا تريـد.. لكن عنـدما لا يكـون لشـخص مـا فكـرة واضـحة عن غايـة الإرادة، فمن الممكن أن تتوجه الإرادة وقابلية التخيـل إلى هـدفين متضادين.. وعندما يحـدث ذلـك، يصـبح الشـخص محكومـاً بقدرتـه التخيليـة أكـثر من إرادتـه، وهنـا يصـرع الخيـال السـلبي الإرادة، فيحطمها.

قلت: ألهذا توجه الخيال لخدمة الإردة؟

قال: أجـل.. بـل أسـتخدمه في العلاج.. وقـد وجـدت أنـه في حالات كثيرة أجدى من السموم التي تداوون بها أنفسكم.

قلت: أجلوسـنا مـع القطـط والأفـاعي.. ثم تصـوير انتصـارنا عليها أجدى من الأدوية؟

قال: لقد جربت هـذا.. فوجـدت هـذه الحقيقـة.. ولا عليـك ألا تصدقني.. فليس لـدي صـيدلية تـبيع الخيـال، فأخـاف من خسـارة زبون، أو أفرح لكسب زبون.

قلت: ولكن قومي من المتحفظين قد ينكـرون هـذا.. فكيـف تصور الألم بصورة حسية؟

قال: ألم تسمع ما قال ابن القيم في الحمى؟

قلت: لقد ذكر ابن القيم قول الـذي سـب الحمى ومعارضـته له، فقال:(ذكرت مرة وأنا محموم قول بعض الشعراء يسبها:

زارت مكفرة الذنوب وودعت تبا لها من زائر ومودع

قالت وقد عزمت على ترحالها ماذا تريد فقلت: أن لا ترجعي

فقلت: تبا له إذ سب مـا نهى رسـول اللـه ﷺ عن سـبه، ولـو قال:

زارت مكفرة الذنوب لصبها أهلا بها من زائر ومودع

قالت وقد عزمت على ترحالها ماذا تريد فقلت:أن لا تقلعي

لكان أولى به ولأقلعت عنه فأقلعت عني سريعا)

قال: فابن القيم استخدم هذ النوع من العلاج قبل صاحبي.

قلت: كيف ذلك؟

قال: لقد تخيل الحمى امرأة جاءت تكفر ذنوبه، وهو نفس ما يقوله صاحبي، وخاطبها كما يخاطب الأحياء.

قلت: ولكنـه رحب بهـا، أمـا صـاحبك فأرسـل عليهـا كراتـه البيضاء.

قال: كل منهما استخدم أسلوبا من الأساليب.. أما ابن القيم، فاعتبر الداء محبوبا اشتاق إليه.. وفي العادة نرى سرعة ذهاب من نشتاق إليه.

قلت: وصاحبك؟

قال: تعامل مع المرض كالعدو.. فأرسل عليه مـا جهـزه اللـه به من وسائل المقاومة.

قلت: فأيهما أقوم قيلا؟

قال: كلاهما.. ولو أن صاحبك يحبذ أسلوب ابن القيم.

قلت: ولم؟

قال: أنسيت أنه معلم السلام؟

قلت: ذكرتني به.. لقد طال شوقي إليه.

قال: بل إن ما فعله ابن القيم فعله قبله رسول الله ﷺ، فقد روي أنه دخل على أعرابي يعوده وهو محموم، فقال:(كفارة وطهور)، فقال الأعرابي:(بل حمى تفور على شيخ كبير تزيره القبور)، فقام رسول الله ﷺ وتركه.

قلت: فما في هذا الحديث مما نحن فيه؟

قال: لقد أمره ﷺ أن ينظر للمرض نظر المسالمين لا المحاربين.. ولو فعل ذلك لاستحيا المرض من نفسه، وانصرف عنه.

قلت: أنت تعرفني.. وتعرف قومي ففسر لي ما تقول.

قال: يلعب الاعتقاد بإمكانية حصول الشفاء دوراً هاماً فيه.. فلذا كان من الضروري أن تعتقد بأنك تستطيع معالجة نفسك، وتحقيق الشفاء مهما أخبرك الطبيب بعكس ذلك.. أما إذا كنت شاكاً بنجاح الطريقة العلاجية فأمامك أحد طريقين: إما أن تنسى الموضوع.. وإما أن تجرب، ولكن بعقل مفتوح قدر الإمكان.. بل من الضروري أن تحاول أكثر من مرة، فأنت تتعلم شيئاً جديداً، ولا يجوز أن تتوقع أن تتمكن منه في أول محاولة.

قلت: ولكني محتار في كيفية قضاء الخيال أو الإرادة في دحر جيوش الألم، وهي تنهش أعضائي.

قال: إن الألم قد يكون متسبباً عن حدوث عدم توازن في الإيعازات العصبية من خلال الحبل الشوكي من الدماغ إلى الأجهزة، وبالعكس.. وبما أننا نستطيع نسيان الألم غير الحاد عندما يتوجه انتباهنا إلى أمر مهم، فإن احتمال الألم يعتمد على عوامل نفسية، في حين أن مستوى الألم يعتمد على عوامل بدنية.

قلت: أرى أن صاحبك يتحدث عن الألم ومصدره، وكيف يقضي عليه بالكريت البيضاء، وهي معلومات علمية.. فهل يشترط ذلك في ممارسة هذا الأسلوب من العلاج؟

قال: لا يشترط.. ولكن المعرفة بتشريح الجسم، ومثلها المعرفة بكيفية حصول الألم تفيد كثيراً في التصوير الذهني.. لأن الصور التي تتخيلها تكون أقرب إلى الواقع كلما ازددت معرفة بالتشريح والألم.

وهذا ينطبق على الأمراض عموما، فكلما ازدادت معرفتك بكيفية حصول مرضك وتأثيره في جسمك كلما كنت أكثر تمكناً في تصوير الحالة إلى أقرب ما يمكن من الحقيقة.

قلت: وعيت كل ما قلت.. ولكن كيف أبحث عن المرض، أو

كيف أشخصه، أليس التشخيص نصف العلاج؟
قال: بلى.. فمن الصعوبات التي يواجهها المـريض في الكثـير من الأمـراض هي معرفـة موقـع المـرض.. فـالألم في الكتـف أو الساق مثلاً ليس من الضرورة أن يكون مصدره الكتف أو الساق.
قلت: فكيف أبحث عن الألم؟
قال: كما تبحث على كل الأشياء.
قلت: ولكني أنا ذلك المكان.. فهل أدخل في ذاتي؟
قال: أجل.. فمن عالج ذاته بذاته لا يصـعب عليـه أن يشـخص ذاته بذاتته.
قلت: بالجلوس مع النفس؟
قـال: أجـل.. تبـدأ بالاسـترخاء أولا.. ثم تغـير حجمـك لتصـبح صغيراً.
قلت: ما الحاجة إلى ذلك؟
قـال: لا يمكنـك أن تـدخل في داخـل جسـمك إلا إذا غـيرت حجمك.. ادخل جسمك من خلال مجرى الـدم، أو من خلال أمـاكن أخـرى كفتحـة الأذن أو الأنـف.. وبعـد أن تصـبح في الـداخل، ألـق نظـرة على الجـدران المختلفـة للأوعيـة وعلى الأنسـجة، والـتي ستكون متصورة بشكل أفضل إذا كان لديك معرفة أكبر بها.
استعمل الرحلة الأولى للتعـرف على داخـل جسـمك،وأهمـل أمر المرض. ثم ابدأ بالتعامل مع المرض في الرحلات الـتي تليهـا.. وهذا التمرين، كالتمـارين الأخـرى، يصـبح أكـثر سـهولة بالمداومـة عليه.
قلت: ألا يمكن أن أستعمل ما يسـتعمله بعض مشـايخ الـروح من الإرشاد حالات الجلسات الروحية؟
قـال: يمكن ذلـك.. بـل يحبـذ خاصـة للـذين يصـعب عليهم التركـيز.. فيمكنهم اسـتعمال الأشـرطة المسـجلة.. حيث يوجـد تسـجيل صـوتي لشـخص يقـوم بإدخالـك في حالـة الاسـترخاء المطلوبة، ثم يصف لك الصور الـتي يجب أن تتصـورها في ذهنـك، متـدرجاً بالمشـاهد وكأنهـا قطعـة من فلم أو تمثيليـة مـع خلفيـات صوتية مناسبة.
قلت: لا.. هم يستعملون جلسات جماعية يقوم فيهـا المرشـد بالتوجيه.
قال: يمكن ذلـك.. فيمكن أن تعقـد جلسـات جماعيـة يجلس فيها عـدد من المـرض في حلقـة، ويجلس معهم المعـالج، ثم يبـدأ

بإعطاء الإرشادات اللازمة ليـدخلهم في حالـة الاسـترخاء، ومن ثم في التصوير الذهني.. وهي منتشرة في الغرب، وناجحة جداً.

قلت: أرى أن لكلامـك من الأنـوار مـا يجعـل عقلي وقلـبي يجتمعان على قبوله.. بل أرى النصوص من القرآن الكريم والسـنة المطهرة تتزاحم لتقرير وتأكيد كل ما ذكرت..

قال: أجل.. فكل مـا ورد في السـنة من الاسـتعاذات.. أو مـا ورد فيها من آداب عيادة المريض يصب في هذا، بل إن في دعوته ﷺ إلى التنفيس عن المريض ورفع معنوياته تهيئة له لاستعمال هذا العلاج.

قلت: بـل إن في وضـع اليـد على موضـع الألم مـا يـدل على هذا.. فقد قال ﷺ:(إذا اشتكى أحدكم، فليضع يده حيث يجـد ألمـه، ثم ليقل: أعوذ بعزة الله وقدرتـه من شـر مـا أجـد وأحـاذر سـبعا)(1) وفي حديث آخر أمـر ﷺ بمسـح اليـد على موضـع الألم، فقـال: (امسحه بيمينك، وقل بسم الله أعوذ بعزة الله وقدرته من شر مـا أجد سبع مرات)(2)

قال: وفي ذكر ذلك سبعا من أسرار التأكيد مـا يـدل على مـا ذكرنا.

قلت: ولكن لم يغفـل قـومي عن اسـتعمال هـذا النـوع من العلاج؟

قـال: أسـباب التقصـير في اسـتعمال هـذا النـوع من العلاج كثـيرة.. منهـا تغليب عصـركم للجـانب الأيسـر من الـدماغ على الجانب الأيمن.

قلت: أنحن نقصر في حق جانب كامل من جوانب الدماغ؟

قال: أجـل.. فالـدماغ يقسـم إلى قسـمين يعملان بطريقـتين مختلفـتين.. فعمليـات المنطـق والرياضـيات والقـراءة والكتابـة واللغات والتحليـل تتم في القسـم الأيسـر.. أمـا عمليـات التعـرف والتناغم والصور البصرية والتركيب والأحلام والعلامات والعواطـف ففي القسم الأيمن.

قلت: كيف عرفت هذا.. أم تراك استعملت تصويرك الذهني؟

قال: لا.. لقد وجدو أن الجانب الأيسر ينشط عند إجراء عملية حسابية لإيجـاد حاصـل جمـع رقمين مثلاً.. في حين وجـدوا نشـاط الجانب الأيمن عند عملية تذكر شكل أحد الشوارع.

---

1) مسلم.
2) الترمذي.

قلت: فالرسام أو النحات أو الشاعر يهيمن القسم الأيمن على فكره وحياته.

قال: والقسم الأيسر هو المهيمن على الفيزيائي أو العالم الرياضي.

قلت: ألا يمكن أن نستفيد من كلا القسمين.. أو نعيش كلا القسمين؟

قال: بلى.. ذلك ممكن..بل هو المطلوب.. ألا ترى أسلافك كيف كانوا يجمعون بين الفن والرياضياتوالطبيعيّات في آن واحد!؟

قلت: وفي عصرنا؟

قال: لقد أهلككم التخصص.

العلاج الزهري:

بينما أنا مع الحكيم السابع إذ قطع جلستنا رجل يحمل أزهارا.. قلت: لا شك أنك الدكتور إدوارد باخ الذي حكى لي عنك صاحبك الحكيم السابع.

قال: فمن أنت؟.. فأنا أبحث عن الحكيم السبعين.

قلت: لم أصل إلى هذه الدرجة بعد.. بل أنا مجرد تلميذ للسلام.

قال: أهلا بك.. وبكل تلاميذ السلام.. فلا أرى أحدا يفهمنا أو يقدرنا غيركم معشر تلاميذ السلام.. كيف هو حال معلمك؟

قلت: لقد اشتقت إليه.. فلي مدة لم ألقه.

قال: سلني عما بدا لك.

قلت: لقد علمت أنك في عام 1930م تركت عملك في عيادتك الناجحة في شارع هارلي الشهير في لندن، وعكفت على محاولة العثور على نظام طبي أبسط وأكثر طبيعية بحيث لا يحتاج إلى تغيير أو تدمير أي شيء من مواد الدواء الأولية.

قال: أجل.. وقد هداني ذلك إلى ثلاثة أمور تختلف فيها أدويتي عن الأنظمة الطبية السائدة في الغرب.

قلت: فما أولها؟

قال: تصوري للمرض أكبر كثيراً من حدود الفرد.. بل إن أصوله ترجع إلى نظام كوني.. فلذلك قادني هذا إلى شكل جديد من أشكال التشخيص لا يعتمد على الأعراض الفيزياوية.. بل يعتمد كلياً على حالات عدم التجانس الروحي، أو المشاعر السلبية..

قلت: فهمت بعض هذا سابقا، فما الثانية؟

قال: يتم استخلاص الطاقات العلاجية للأزهار من حالتها

المادية البسيطة، أي مباشرة، وليس بالتخفيف الهوميوباثي، وهنا لا يمكن أن يكون هناك جرعة أكثر من اللازم، ولا آثاراً جانبية، ولا تضارباً مع أي طريقة علاجية أخرى.

قلت: هذا يحتاج إلى أسئلة كثيرة، قد أسألك عنها بعد أن تخبرني عن الناحية الثالثة.

قال: إن كون أدويتي زهرية عديمة الضرر مطلقاً، جعلها متيسرة للعلاج من المعالج أو للعلاج الذاتي لمجموعة أكبر من الناس بالمقارنة مع باقي الأنظمة العلاجية.. بل لا يحتاج استعمالها إلى تدريب على الطب أو العلاج النفسي المعروف، وإنما إلى الإدراك، والقدرة على التفكير والتقدير، وأهم من كل ذلك الحساسية الطبيعية، والإحساس بالشخص الآخر.

قلت: إنك تحمل بشارات عظيمة للشفاء.. فكيف تفسرها؟

قال: لم تصل الوسائل العلمية الاختيارية والقياسية ــ التي يستعملها قومك ـ إلى المستوى الذي تشرح فيه كيفية عمل أكثر الأنظمة العلاجية البديلة.. ولعل أدويتي أكثرها صعوبة لأنها تتجه صوب الحالة الروحية للفرد، وهي شيء ليس في المستقبل المنظور احتمال قياسه، هذا إن كان ذلك ممكناً.. ولكن مع ذلك لا يمكن تجاهل الأثر الذي تحدثه هذه الأدوية، فهي تعمل وتحقق نتائج إيجابية حقيقية.

قلت: أنا لا أتحدث مع باحثين من قومي.. بل إني أتحدث معك شخصيا.. فأخبرني عن تفسيراتك لتأثير أدويتك.

قال: إن عمل هذه الأدوية هو لرفع ذبذباتنا، وفتح قنواتنا لاستقبال الذات الروحية، ولإغراق طبائعنا بالمزية المعينة التي نحتاج.. وهي قادرة، كأي موسيقى جميلة، أو أي شيء مجيد مشجع يمنحنا التحفيز للمثابرة، إلى رفع طبائعنا وتقريبنا أكثر من ذواتنا.. وهذا العلم ذاته لجلب السلام والأمن وإزالة معاناتنا.. وهي تشفي، ليس بمهاجمة المرض، وإنما بإغراق أبداننا بذبذبات جميلة من طبيعتنا العليا، والتي في وجودها يذوب المرض كما يذوب الثلج في الشمس المشرقة.

قلت: أراك تعالج بالسلام.. لا بالصراع كما يفعل قومي.

قال: ليس هناك شفاءاً حقيقياً إذا ما لم يحصل تغيير في النظرة، والسلام العقلي، والسعادة الداخلية.

قلت: فما علاقة الأزهار بهذا؟.. أم أنك ترشي المرض بهذه الرشوة ليبتعد عن جسد الإنسان؟

قال: لا.. الرشـوة حـرام مطلقـا.. ورشـوة الـروح أخطـر من رشوة الجسد.

قلت: فما الغرض من الأزهار إذن؟

قال: لقد ذكرت لك أني لا أعتمـد على الأعـراض البدنيـة في التشخيص.

قلت: أجل.. بل على الحالات الروحية السلبية.

قال: ولا شيء غيرها، فإني أرى أن المرض هو نتيجة الصـراع بين الشخصية، ومحاولة إخراج ما تريده الروح إلى الواقع.

قلت: فما دور الأزهار في هذا؟

قال: إن هذه الحالات السلبية لا تتم مهاجمتها للقضـاء عليهـا، وإنما بإغراقها بموجات متجانسة أعلى لكي تذوب كما يــذوب الثلج في الشمس المشرقة.

قلت: أللأزهار مثل هذه الموجات؟

قال: أجل.. فكل زهرة من الأزهـار تحـوي طبيعـة من طبـائع الـروح، أو أن لهـا موجـات طاقــة معينــة.. وكـل واحــدة من هــذه الطبـائع في تجـانس مـع طبيعـة روحيـة إنسـانية، أو مـع تـردد من ترددات مجال الطاقة البشري.

قلت: وهل اكتشفت هذه الأزهار التي تحوي طبائع الروح؟

قال: أجل.. وقد اكتشفت ثمانية وثلاثين زهرة لا يمكن الزيادة عليها، فهي ثابتة.. لأنها نظام متكامل لعلاج كل الحـالات المرضـية، أي كل الاختلالات في مستويات الطاقة جميعا.

قلت: فكيف عرفتها؟

قال: ذلك ما لا يمكن ذكره الآن.. ألم تـر الغـزالي كيـف يفـر إلى الكشف في كل حالة يصعب تفسيرها؟

قلت: فهل أنت من لمكاشفين؟

قال: لا أحد من الخلق إلا ويعطيه الله من الكشف ما ينتفع به وينفع غيره.

قلت: ولكنك طبيب.. ولست مريدا في خلوة.

قال: ولكوني طبيبا جاء كشفي مرتبطا بتخصصي.

قلت: لن أجادلـك في هـذ.. ولا يهمـني.. فللـه في خلقـه من الشؤون من لا يمكن تصوره.. فما هذه الأدوية؟.. وهـل هي جميعـا أزهار كاسمها؟

قال: لا.. منها ما هو زهرة النبتة، ومنهـا مـا هـو أوراق شـجرة معينة كالصنوبر أو الزان، ومنها ما هو براعم شجرة أخرى، وهنــاك

نوع واحد ليس بنبات، وهو ماء ينابيع غـير ملـوث من قبـل المدنيـة الحديثة.

قلت: فما تفعل هذه الأدوية؟

قال: إن لهذا الدواء المعين ترددا من الطاقة متجانساً كالــذي في الطبيعة الروحية البشرية المعينة، إلا أنه غير مشوه مثلهـا، بـل هو في تناغمه الطبيعي.. لذا إنه قادر على تأسيس علاقة مـع تلـك الطبيعة الروحية البشرية، وبواسـطة موجاتـه المتجانسـة يسـتطيع أن يعيد التجانس إلى الروح.

قلت: وهل للروح هذا العدد من الطبائع؟

قـال: أجـل.. فـالروح الإنسـاني يحـوي كـل الثمـاني والثلاثين طبيعة الموجودة فيما وجدته من أدوية.. وأدويتي تعمل كإنزيم يعيد تأسيس العلاقة بين الـروح والشخصـية في النقطـة الـتي انقطعت فيها، وهو ما يمكن الروح من أن تعيد اتصـالاتها مـع الشخصـية.. أو كما أقول دائما: يصبح الإنسان نفسـه من جديـد في النقطـة الـتي أصبح فيها ليس نفسه.

قلت: فحدثني كيف يحضر دواؤك؟

قال: نبدأ بقطف الأزهار.. ونفعـل ذلـك عنـدما تكـون ناضـجة تماماً، أي عندما تكون على وشك السقوط.

قلت: لم اخترتم هذا الوقت بالضبط؟

قال: في هذا الوقت تكون الطاقات الضرورية مركـزة فيهـا.. وهـذا أهم شـيء في العلاج بـأدويتي، ولهـذا يبقى محضـرو هـذه الأدوية الفاصلة الزمنية ما بين قطف الأزهـار وتحضـير الـدواء إلى أقصر ما يمكن لكي لا تضـيع أي كميـة من الطاقـة.. وهنـا تشـترك العناصـر الأربعـة بكـل قـدراتها الهائلـة في عمـل الـدواء، فـالأرض والهواء يجلبان النبتة إلى نقطة النضوج، أما الشـمس، أي العنصـر الناري فتحرر روح النبتة من جسمها، ثم يعمل الماء كواسطة.

قلت: تحضير دوائك سهل جدا!؟

قال: أجل.. ألم تسمع قولي:(ليس هناك أي ضـرورة للعلم أو المعرفـة لاسـتعمال الـدواء طبعـاً، وإنمـا فقـط الطـرق البسـيطة الموصوفة هنـا، وإن الـذين سيحصـلون على أكـبر فائـدة من هـذه المنحة الإلهية هم الذين يبقونها على حالتها النقية، بعيداً عن العلم، بعيداً عن النظريات، لأن كل ما في الطبيعة بسيط)

قلت: فهـل تحتفظـون بهـذه الأدويـة الزهريـة في حالتهـا المركزة أم تعمدون إلى تخفيفها كإخوانكم من المثليين؟

قال: يتم اقتناء الدواء بحالته المركـزة، ثم يصـار إلى تخفيفـه بحيث تضاف قطـرتين منـه إلى كميـة من المـاء، وتسـتعمل مـادة حافظة كخـل التفـاح إذا كـانت الكميـة تكفي لمـدة قـد تـؤثر على جودة الدواء.

قلت: فكيف يستعمل المرضى هذا النوع من الأدوية؟

قال: تستعمل القطـارة لتنـاول الـدواء الـذي يجب أن يتنـاول أربع مرات في اليوم على الأقـل، هـذا في الحـالات الاعتياديـة، أي على طـول مـدة علاج حالـة مزمنـة.. أمـا في الحـالات الشـديدة فتضاف بضع قطرات من الـدواء في قـدح من المـاء يتم ارتشـافه تدريجيا في جلسة واحدة..

وهناك دواء محضر من خمسة أدوية ويسمى علاج الإنقـاذ[1]، وهذا يستعمل في الحالات الطارئة.. وقد أنقـذ حيـاة مـا لا يعـد ولا يحصى من الناس أثناء انتظارهم للمعونة الطبية بعد الحوادث.

قلت: كيف يعمل هذا الدواء العجيب؟

قال: في هذه الحالات يجنح الـوعي، أو العناصـر الذهنيـة في الجسم، إلى الانسحاب من الجسم الفيزيائي، وبذا يصبح غير قـادر على بدء العمليات الشفائية الذاتية.. ولهذا يمنع علاج الإنقاذ تلاشي الطاقـات، أو يعيـدها بسـرعة إلى طبيعتهـا، ومن ثم تبـدأ عمليـات الشفاء.

قلت: أتستعمل أدويتك مشروبة فقط؟

قـــال: لا.. من الممكن الاســـتفادة منهـــا بطـــرق أخـــرى، كالكمادات كمـا في حـالات الالتهابـات الجلديـة.. أو يمكن إضـافتها إلى الحمام المملوء بالماء.

قلت: أرايت إن وصف أحد أطباءكم زهرة لا تتناسب مع نـــوع المرض؟

قال: لا تخف.. فلن يحـدث أي ضـرر من ذلـك.. لأنـه إذا كـان تردد الزهرة التي استخلص الدواء منها ليس صـحيحاً، فـإن الـذات العليا تدرك ذلك، ومن ثم فهي لا تـدخلها في نظـام الطاقـة.. وبـذا فليس لها أي تأثير، في حين أن جميع الأدوية الكيمياويـة تـؤثر على عمليات التمثيل الحيوية سواء كانت مناسبة للحالة أو لا.

قلت: فهل هناك أعراض جانبية تنتج عن تناول الدواء؟

قـال: هنـاك أعـراض.. ولكنـا نعتبرهـا مرحلـة من مراحـل

---

1) يحضر علاج الإنقاذ عادة، بالإضافة إلى النوع السائل، على شكل مرهم للاستعمال الخارجي.

الشفاء.. لا كالأعراض التي تعرفونها.
قلت: اشرح لي هذا.
قال: عندما يواصل الفرد علاجه الذاتي، أو علاج غيره، فإن المشاكل الواقعة في منطقة الحدود بين العقل الواعي والعقل الباطن تبدأ بالظهور، فهي يجب أن تدرك وأن تحل.
وعندما يحدث ذلك فإن الإنسدادات، أي ما يوقف الإمكانية من أن تدرك، كما دلت الخبرة العملية، تبدأ بالذوبان بترتيب عكسي، ومنذ عهد الطفولة.. وفي هذه الحالة تحدث أزمة الشفاء بشكل خفيف أو شديد في الوعي، وهكذا، قد تظهر إلى السطح مشكلة قديمة، وتظهر بشكل مؤلم، إلى أن يمكن تحريك دافع كاف لتحقيق التغيير.. وليس هناك رد فعل مشترك للجميع، لأن لكل شخص فردية متميزة ومشاكل متميزة.
قلت: لا يزال فهمي قاصرا دون معرفة إيجابية هذه الأعراض.
قال: إيجابية الأعراض تدركها من إدراك نوع تأثير الدواء.. فالجزء الذي كان نائماً أو مشلولاً لفترة من الزمن قد امتلأ بالحياة من جديد.. ولهذا فإن فكرة مؤلمة كان قد تم إسكاتها لسنين قد تظهر إلى السطح من جديد باحثة عن حل لأنها لم تحل في حينها.
قلت: إن الذي تقوله يحدث في المعالجة الطبيعية عندما يبدأ الجسم بطرد السموم.. فتحصل زيادة في الأعراض.
قال: أجل.. ولكن على المستوى الروحي.. واطمئن، فإن ما يظهر من اللاوعي لا يمكن أن يكون أعظم من أن يستطيع الشخص أن يتحمله.. ففي الأدوية الزهرية من المستحيل أن تحدث أزمة شفاء اصطناعية، لأن هذه الأدوية تسند الذات العليا فحسب وهي الطبيب الداخلي الذي يوجه كل شيء دائماً في مصلحتنا.
قلت: بما أن هذا الدواء يتعامل مع مصادر الطاقة في الإنسان.. ألا تبدي هذه المصادر أي فرح عند استقبال هذا الدواء؟
قال: بلى.. فهناك من تؤثر فيه الجرعة مباشرة، إذ تبدو عيناه أكثر نعومة أو أكثر روحانية، وذلك بمجرد أن حصل الاتصال بين الدواءِ والذات العليا.. وكثيراً ما يحدث أن يتنفس الإنسان نفسا عميقاً بعد الجرعة، وهو ما يدل على إحساس بالراحة في مستوى الطاقة.
قلت: فهل يتساوى الناس في الاستفادة من هذه الأدوية.. أو

في حدوث تأثيراتها؟

قال: لا شك أنهم يختلفون.. فالأشخاص متفتحو الذهن والمهتمون بالعالم غير المادي ـ كتلاميذ السلام ـ يستجيبون بشكل أسرع من أولئك الذين يرفضون قبول هذه الأفكار أصلاً، ويحاولون في اللاوعي أن يخرسوا صوت ذواتهم العليا مرة بعد مرة، أي أولئك الذين يتجهون نحو إسكات مشاكلهم عوضا عن حلها.

أما كبار السن، وخصوصا أولئك الذين يعانون من الأمراض المزمنة، فيستجيبون بشكل أبطأ لأدوية باخ الزهرية، لأنهم أصبحوا متقولبين في كياناتهم النفسية.

أما أصحاب الأمراض الميئوس منها فإنهم دائماً يستجيبون للعلاج.. وذلك لأن الاتصال الجديد مع الروح سيقود، بوعي أو لا وعي، إلى تعامل فكري ونفسي جديد مع المرض بحيث يأخذ شكلاً جديداً من السكون والسلام العقلي والتفكير الإيجابي.. فالكثير من المرضى الراقدين في المستشفيات يقضون أيام عمرهم الأخيرة بألم أقل، وبتجانس أكثر واحترام وذلك بفضل ما نعطيهم من الأدوية.

رابعا ـ مناسج الشفاء

خـــرجت من مصـــانع الشـــفاء، وقـــد امتلأت بهمـــة عجيبـــة، وازدحمت على ذهـني خـواطر كثـيرة متعاقبـة هـذه صـورتها كمـا أتذكرها:

لم لا تذهب أيها التلميذ البسيط مذاهب هؤلاء الحكماء، فتقي الخلـق من السـموم الـتي ينشـرها اللصـوص المتلبسـون بلبـاس الكيمياء، المتعطرون بروائح الصناعة المنتنة!؟

بـــــل.. لم لا تبحث عن حكمـــــاء آخـــــرين.. الســــبعين.. أو السبعمائة.. ثم تمزج من كـل مـا يملأونـك بـه من الحكمـة حكمـة جامعة تلتقي فيها الأنهار، وتزدحم فيها البحار!؟

بل.. لم لا تصير أنت حكيما من الحكماء.. فتخترع من صنوف العلاج ما يمحو كل علاج، ويحقق كل شفاء..!؟

ولكن ماذا أصنع..؟

هل أصنع كبسولة إذا شربت زالت الأدواء..؟

لا.. الكبسولة لا تختلف عن سموم الكيمياء..

فماذا أصنع!؟..

ما رأيك في آلة يدخلها المريض مريضا، ثم يخـرج منهـا كيـوم ولدته أمه.

ولكن الآلة لا ينتفع بها إلا الخواص من النـاس.. وأنت تريـد أن تنشر الشفاء، فلا ترى فيها مريضا، ولا تسمع فيها أنينا.

لم لا تصـنع لباسـا من لبسـه وقتـا محـددا نـزلت في جسـمه العافية، وهربت من جسمه الأدواء..!؟

نعم.. هذه فكرة صالحة.. الثياب شيء سهل يمكن تعميمه..

لكن من أي مادة تصنع.. وبـأي مـواد تعبـأ.. وأي لـون تتخـذ.. وأي شكل يكون شكلها.. وفي أي المصانع تكون صـناعتها.. ومـاذا أسميها!؟

ربت على كتفي صــاحبي، وقــال:لقــد وصــلت إلى مناســج الشفاء.

قلت: عجبا.. هذا اسم لائق بها.. كيف عرفته؟

قال: أي اسم تقصد؟

قلت: مناسج الشفاء.. اسم جميل جدا.

قال: هي ليست اسما.. بل هي مسمى..

قلت: أعلم.. هو اسم يمتلئ به خاطري.. وسـيخرج من أرض الخاطر إلى أرض قومي لينشر العافية.

قال: ما بك يا رجل.. وما الذي تتحدث عنه؟

قلت: أتحدث عن مناسج الشفاء.

قال: هي أمامك.. فكيف تزعم أنها في خاطرك؟

قلت: هي أمامي!.. كيف هذا.. أتراني في الجنة.. فقد حـدثت بأنهم لا يحلمون بشيء إلا تحقق من غير عناء ولا عنت!؟

قال: هذه المناسج ولدت قبل حلمك.. بل ولدت قبل ولادتك.

قلت: لا إله إلا الله.. صدق من قال: ما تـرك الأول للآخـر.. لا بأس سأفكر في حكمة لن تبلغها أعناق الرجال.

مد يده إلى رأسي، فقلت: ما الذي تصنع؟

قال: أراك تهذي.. لست أفهم عنك شيئا.

قلت: لقد أخبرتني بأنهم أسسوا مناسج الشفاء.

قال: هي موجودة منذ زمان طويل..

قلت: كيف هـذا؟.. وأنـا لم أر لباسـا صـنعته هـذه المناسـج.. اعرف ما تقول يا رجل.. فـإن لبـاس الشـفاء مؤسـس من حكمـة الحكماء.

قال: مناسج الشفاء لا تنسج أنسجة، ولا تخيط ثيابا.

قلت: فما تفعل؟

قـــال: هي تخيـــط بـــني آدم وتنســـجهم.. هي تقـــوم بنفس العمليات الجراحية التي يقوم بها قومك.. ولكنها تضـم إليهـا تريـاق السلام.

قلت: أفي مدائن السلام تجرى العمليات الجراحية؟

قال: لمن احتاج إليها.. وهم أربعة.

قلت: أربعة نفر فقط!؟

قال: لا.. أربعة أصناف من العمليات.. ولا تمارس إلا من بـاب الضرورة، وبعد أن تستنفذ جميع الجهود في العلاج البديل.

قلت: فما أولها؟

قال: التطهير.

قلت: ما التطهير؟

قال: قد يسكن الجسم من يرفضه الجسم، ويـأبى الاسـتجابة لكل دواء.. فنحتاج إلى تطهير الجسـم منـه، كمـا نطهـر بيوتنـا من القاذورات.

قلت: فما الثاني؟

قال: الترقيع.

قلت: فما الترقيع؟

قال: قد يتقطع الجسم في بعض المواقع، فنحتاج إلى ترقيعه وتطبيبه كما تطبب الثياب.

قلت: فما الثالث؟

قال: التعويض.

قلت: فما التعويض؟

قال: قد يصاب بعض أعضاء الجسم بالتلف، فنحتاج إلى وضع عضو بديل عنه.

قلت: من الصناعة أم من الطبيعة؟

قال: من كليهما.

قلت: فما الرابع؟

قال: التجميل.

قلت: التجميل!؟.. ولكن الدمامة ليست مرضا.

قال: ولكنها قد تنشر أمراضا.

قلت: فهل سنزور الأطباء، وهم يجرون هذه العمليات.

قال: ذلك غير ممكن.. فغرف العمليـات لا يـدخلها إلا الأطبـاء والمرضى.

قلت: فماذا نفعل؟

قال: ستدخل هذه القاعات.. ولن يكـون لـك من دور فيهـا إلا الصمت والتنصت.

قلت: أأحبس أنفاسي.. فلا أتكلم.. وعلى من أتنصت؟

قال: تتنصت على المرضى.. وعلى الأطباء.

قلت: أحولتموني جاسوسا!؟

قال: لا.. ولكنك لن تتعلم إلا بذلك.

قلت: وما سر استعمال هذا الأسلوب في هذا المحل.

قال: يأتينا مرضى مختلفون إلى هذا القسـم.. فيهم المتشـدد والمتساهل، ونحن نحتاج إلى إقناعهم قبل إجراء أي عملية.

قلت: أهم يخافون من العمليات؟

قال: لا.. ولكنهم يتورعون عنها.. أو يطلبون من العمليـات مـا لم يأذن الشرع فيه.

قلت: ولكن لساني قد يخونني.. ويخونني صمتي.

قال: لا تخف.. فلن يخونك لسانك..

قلت: عهدي به خؤونا.

قال: ولكنه سيكون مطواعا لنا هذه المـرة.. فـإذا حـاولت أن تتحدث احتبس عنك طاعة لنا.

قلت: كيف هذا؟

قال: هذه تقنية من تقنيات مستشفى السلام لن تفهمها حتى تفهم سر قوله تعالى: ﴿ قَـالَ رَبِّ اجْعَـلْ لِي آيَـةً قَـالَ آيَتُـكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً ﴾ (مريم:10)

قلت: أفهمها.. فقد قـال ابن عبـاس:(اعتقـل لسـانه من غـير مرض) (1)

قال: أنت فهمت المعنى.. ولكنك لم تفهم السر.. ولن تــدرك التقنية حتى تدرك سرها.

قلت: فأنبئني عنه.

قال: ذلك علم من علوم السلام.. ولا طاقة لك بتعلمه الآن.

قلت: فأين أتعلمه؟

قال: عندما تعرج في معارج الروح.

العمليات التطهيرية

دخلت مناسج الشفاء.. وكان أول باب قابلني بـاب العمليـات التطهيرية، وقد كتب عليه قوله تعـالى: ﴿ وَنَزَعْنَـا مَـا فِي صُـدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُـرُرٍ مُتَقَـابِلِينَ ﴾ (الحجـر:47).. كنت وحـدي.. فوددت لو أن معي معلمي ليـدلني على سـر وضـع هـذه الآيـة في هذا المحل..

ما استتممت هذا الخاطر حـتى رأيت رجلا يخـاطبني من غـير أن تكون بيننا معرفة سابقة: لا تذهب بك الظنون بعيدا.. فتظن أننا نؤول القرآن الكريم، أو نحرف معانيه.

أردت أن أناقشــه كمــا تعـودت مناقشــة من قبلــه، فوجـدت لساني كنائم استحلى نومه، فأبى علي.. وقد وجدت لاحتباسه لــذة لا تعدلها لذة انطلاقه.. فنظرت إليه، وكلمته بعيوني، فلم يسـتغرب صمتي، بل قال: هذه الآية الكريمة يخبر الله تعالى فيها عن فضــله على عباده المؤمـنين في الجنـة باستئصـال مـا في صـدورهم من الغل.

قلت في نفسي: ولكن هذه الآية تتحدث عن نعيم الجنة.

أجابني: ألسنا نرى كثيرا مما في الجنة قد أنزل الله تباشــيره إلى الدنيا؟.. أليس الرمان من الجنة؟.. أليس النسيم العليل الــذي يهب بالعافية من الجنة؟..

---

1) ابن كثير: 5/214.

قلت في نفسي: ولكن الجنة تظل جنة.

قال: ونحن لا نريد من الجنة أن تهبط للدنيا.

قلت في نفسي: فما تريدون؟

قال: نحن نريد أن نرقى بحياتنا لتعيش في الجنة.. وإذا ماتت تصير إلى الجنة.

صمت، فصمت، ثم سار من غير أن يعرفني بنفسه.

سـرت في أرجـاء القاعـة، فـرأيت رجلا عليـه لبـاس الأطبـاء يحمل في يده كيسا، فخطر على بالي أن أسأله عنه، فـالتفت إلي قائلا: لقد بذلت كل جهدي.. فخلصـت بعض إخـواني من أهـل اللـه من ورم حل بجسمه.

تساءلت بيني وبين نفسي عن نوعه، فقال: لا تخف.. هو ورم الطيب.. فقد قضى أهل الله من إخوان السلام على جميـع الأورام الخبيثة.

العمليات الترقيعية

سـرت إلى القسـم الثـاني، فـرأيت مكتوبـا على بابـه هـذان البيتان من الشعر:

ومِنّا الذي سالت على	فَرُدَّت بكفِّ المصطفى
فعادَت كما كانت لأحسنِ	فياطِيبَ ماً عيني ويا

فتعجبت كثـــيرا، فلم أعهـــد أني رأيت في أبـــواب هـــذا المستشفى أبيات شعر، وتعجبت أكثر لأني لم أفهم المراد منهمــا، لكني سرت، فرأيت اثنان يتناجيان:

قـال الأول: لا تحـزن يـا أخي، فـإن مـا سـيجري لجسـمنا لا يختلف عن أي دواء نتناوله أو طعام نأكله؟

قال الثاني: كيف ذلك، ونحن سنبقر كما تبقر الثياب؟

قال الأول: لا تنظر إلى تقطيعنا، وانظـر إلى إخاطتنـا.. ألسـنا سـنخاط كمـا تخـاط الثيـاب؟.. أم تـراك ترضـى أن يبقى الـداء مستشريا، والآلام سارية؟

قال الثاني: لا.. أنا لا أرضى بذلك.. ولكني لا أرضى لأي مبضع أن يتعامل مع بنيان الله بالترقيع والهدم.

قال الأول: بنيان الله هو الإنسان بكماله.. بحقيقته.. بلطائفه.. لا بجسمه فقط.

قـال الثـاني: أعـرف ذلـك.. ولكـني كمـا تعلم أخـاف أن أزج نفسي في بدعة من البدعة يظل خبثها يلاحقني في الدنيا والآخرة.

قال الأول: لا تخف.. بل إننا نمارس سنة من السنن.. ألسنا نطبق قوله ﷺ:(تداووا عباد الله)

قال الثاني: ولكن هذا الحديث جاء في الأدوية المنزلة.. وهي الأدوية المباركة؟

قال الأول: لا تؤول الحديث.. فهو يشمل كل دواء.. ما قدم منه، وما جد، وما كان من السماء، وما كان من الأرض.

قال الثاني: ولكن..

قال الأول: أنت تريد نصا من المصطفى يبشرك بالرخصة في هذا الباب.

قال الثاني: لم تعدو ما في نفسي.. فأنت تعلم ذلك مني.. فنحن في متاهة نحتاج إلى بعض النور لنستدل به.

قال الأول: ألم ترو حديث جابر بن عبدالله؟

قال الثاني: أحاديثه كثيرة، فأيها تقصد؟

قال الأول: لقد روى أن قتادة بن النعمان أصيبت عينه يوم أحد حتى سالت على خده، فردها رسول الله ﷺ مكانها، فكانت أحسن عينيه وأحدهما، وكانت لا ترمد إذا رمدت الاخرى.

وروي عن قتادة بن النعمان قال: أصيبت عيناى يوم أحد فسقطتا على وجنتي، فأتيت بهما رسول الله ﷺ فأعادهما مكانهما وبصق فيهما، فعادتا تبرقان.

قال الثاني: نعم ما ذكرت.. ونعم ما استدللت به.. لقد أعاد رسول الله ﷺ العين المصابة إلى مكانها..

قال الأول: إنها عملية ترقيعية ناجحة.. وهي تحمل تباشير الإذن لمثل هذه العمليات.

قلت في نفسي: لست أدري ما هي الأصول التي يعتمدها هؤلاء.

التفتا إلي مستغربان، قال الأول: الأصول هي الأصول.. والعلم هو العلم.

قال الثاني: نحن قوم ملئنا ببركات رسول الله ﷺ.. فنحن لا نسمعه قال قولا.. أو دعا إلى هدي إلا عملنا ما فيه من آثار البركات.

قال الأول: فإن لم نره قال شيئا في مسألة امتلأنا رهبة منها.

قلت في نفسي: إن ما رويته من الحديثين متعارضان.

قال الأول: صحيح أن الحديثين يختلفان، ولكنهم يتفقان.

قلت في نفسي: كيف ذلك.. وما هذا التناقض؟

قال الأول: الحديثان متفقان على أن رسول الله ﷺ أعاد العين لصاحبها.. ولا يختلفان إلا في عدد العيون التي أعادها.. ولا حرج في ذلك الاختلاف.. ولو أن بعضهم يرجح الأول.

قلت في نفسي: أترجيحا بدون مرجح؟

قال الثاني: ألم تقرأ ما كتب على الباب..

العمليات التعويضية

دخلت القاعة الثالثة من قاعات مناسج الشفاء، وقد كتب على بابها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآَيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ (النساء:56)

تساءلت عن سر وضع هذه الآية هنا، فجاءني رجل يمتلئ نورا، وقال: هذه آية العمليات التعويضية.. ولا يصرفك عن هذه الدلالة أنها في أهل النار.

قلت في نفسي: لا أرى فيها أي دلالة على هذا..

قال: اسمعها جيدا.. فقد أخبر الله تعالى أن جلود الكفار في جهنم تحترق احتراقا يجعلها غير صالحة للانتفاع بها.. فيعوض الله بدلها جلدا آخر.. وهي تحمل إشارة إلى العمليات التعويضية التي يعوض فيها الجسم عما فسد من أعضائه.

التفت إلي، فرأى في عيوني بعض الاستغراب، فقال: إن لم يقنعك هذا، فاسمع حديث رسول الله ﷺ الذي يقول فيه:(إذا مرض العبد بعث الله تعالى إليه ملكين فقال: انظرا ماذا يقول لعوادة؟ فان هو إذا دخلوا عليه حمد الله تعالى رفعوا ذلك إلى الله، وهو أعلم، فيقول لعبدي: إن أنا توفيته أن أدخله الجنة، وإن أنا شفيته أن أبدله لحما خيرا من لحمه، ودما خيرا من دمه، وأن أكفر عنه سيئاته)(1)

ابتسمت إعجابا بهذه البشارة، فابتسم، ثم انصرف.

البدائل الحية:

سرت قليلا، فرأيت رجلا يحمل عزيمة عظيمة، وهو يسير باحثا عن مسؤول القسم، فبدا لي أن أتبعه، اقتربت منه، ووددت لو يخبرني بشأنه وشأن العزيمة التي يحملها، فما اقتربت منه حتى قال لي من غير أن أسأله: أنا رجل مؤمن آتاني الله ــ بفضله وكرمه ـ العافية في بدني، ولم آت هذا المستشفى للعلاج.. ولكني جئت أبذل العافية لمن يحتاجها.

---

1) مالك.

تسـاءلت في نفسـي متعجبـا، فقـال: لا تتعجب.. لقـد كنت قرأت عن الإيثار، وعن قول الصحابة المنتجـبين لرسـول اللـه ﷺ: (فداك أبي وأمي)، فلاح لي خاطر عجيب..

قلت في نفسي: فما لاح لك؟

قال: جئت إلى هذا المستشفى لأتبرع بجميع أعضائي لجميـع من يحتـاج إليهـا.. فلي كليـة سـليمة، ولي كبـد نقيـة، ولي قلب نشيط.. كل أعضائي سليمة بحمـد اللـه.. وقـد جئت لأسـلمها لمن يحتاج إليها من المرضى لعلي أدخل في زمر المؤثرين.. فـإن كنت تحتاج شـيئا من هـذا، فهلم معي لمسـؤول القسـم، لأسـلمك إيـاه طيبة بذلك نفسي.

قلت في نفسي: ما شـاء اللـه.. لقـد بـززت كـل المـؤثرين.. ولكن لم لم تبدأ بالأدنى، فالأدنى من الإيثار؟

قال: لقد فعلت.. لقد آثرت ببيتي عائة مسكينة لا مـأوى لهـا، وآثرت بمالي فقيرا لا طعام له.. وآثرت..

انضم إلينا المسؤول عن القاعة فجأة، وقال مخاطبـا الرجـل: أأنت الذي جئت تريد أن تهب أعضاءك لمن يحتاج إليها؟

قال: أجل.. فقد طابت نفسي بذلك.. وأرجـو أن لا تحرمـوني من هذا الثواب العظيم، فتصير أعضائي في أجساد المؤمنين الذي امتلأ قلبي محبة لهم.

قال المسؤول: ولكن الإنسان لا يهب إلا ما يملك، ولا يـؤثر إلا بما يستحوذ.

قال: ولذلك لم آتك إلا بنفسي.

قال المسؤول: وهل تحسب أنك تملك نفسك حتى تؤثر بها؟

قال: صدقت.. أنا لا أملك نفسي كما لا أملك مالي.. ولكن مع ذلـك لنـا أن نتصـرف في أجسـادنا كمـا نتصـرف في أموالنـا، ألم تسمع الله تعالى وهو يقول: ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَـكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَـانَ بِكُمْ رَحِيماً ﴾ (النساء:29)، فقد نسب الأنفس إلينا.

قال المسؤول: وقد نهانا عن قتلها.. وما إيثارك بها إلا نوع من القتل.

قال: ولكن المجاهد الذي يبذل نفسه لله يقتل نفسـه بـذلك.. ألم تسـمع قولـه تعـالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْـتَرَى مِنَ الْمُـؤْمِنِينَ أَنْفُسَـهُمْ وَأَمْـوَالَهُمْ بِـأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَـاتِلُونَ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُـونَ وَيُقْتَلُـونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّـاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْأِنْجِيـلِ وَالْقُـرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْـدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِـرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَـايَعْتُمْ بِـهِ وَذَلِـكَ هُـوَ الْفَـوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

(التوبة:111)
قال المسؤول: بلى.. ولكن كل ذلك خـاص بحالـة معينـة هي الجهاد في سبيل الله.
قال: ألا يمكن أن نقيس هذا على الجهاد في سبيل الله؟
قال المسؤول: لا.. البعد بينهما شاسع.. إن ما تريـد أن تقـوم به، وإن كان يحمل روائح الإخلاص والصدق إلا أنـه يفتقـر إلى ركن مهم من أركان العمل الصالح.
قال: وما هو؟
قـال المسـؤول: أرأيت لـو أن طلبـة دخلـوا لامتحـان ليختـبر علمهم وكفـاءتهم، فخـرج طـالب منهم، وطلب من البـواب أن يمتحن بدله.. أكان ذلك من العقل والحكمة؟
قال: لا.. هذا نوع من الفرار عن مسؤولية الامتحان.. ولا أظن إلا أن هذا الطالب لم يبذل من الجهد مـا يكفيـه لإجـراء الامتحـان، فراح يؤثر البواب على نفسه.
قال المسؤول: فأنت هو ذلك الطالب.
قال: ما تقول؟ وما وجه المقارنة بيننا؟
قال المسؤول: لقد جعلنا الله في هـذه الـدنيا ليختبرنـا، وكـل فرد يختبر بنفسـه، فمن وهب أعضـاءه لغـيره.. وهي وسـيلته لأداء الامتحان يكون قد فر من الامتحان، واستعمل الإيثار بدلا لذلك.
فكر الرجل قليلا، ثم قال: صدقت في هذا.. ولا أحسب إلا أن الشيطان جاءني من هذا الباب.
قال المسؤول: لا.. ليس هذا خاطرا شيطانيا.. بل هـو خـاطر إيماني.
قال: ولكنه خاطئ، ومخالف للشرع.
قال المسؤول: وهو دليل على نفس طيبة.. إنك تشبه أولئـك الذي قال اللـه تعـالى فيهم: ﴿ وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَـا أَتَـوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْـهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الـدَّمْعِ حَزَنـاً أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴾ (التوبة:92)، فهؤلاء قوم مؤمنون عـز عليهم أن لا يجاهدوا.. فلم يـدعهم ذلـك للتثاقـل إلى الأرض، بـل إنهم جـاءوا يسلمون أنفسهم لله.. فاستحقوا كل هذا الثناء.
قال: بورك في حسن ظنك بي.. ولكـني أريـد أن أقـدم طلبـا آخر.
قال المسؤول: تقدم بطلبك، ونرجو أن ييسر الله لنا تحقيقه.
قال: لقد ذكرت بأني لا أطيق أن أقدم نفسـي جميعـا.. فهـل

يمكنني أن أقدم بعض نفسي؟

قال المسؤول: ما تقصد؟

قال: أقدم بعض جسمي ليحل في جسم مؤمن.

قال المسؤول: أما من هذه الناحية، فيمكنك ذلك بشرط أن لا يضر ذلك بك.

قال: فما الذي يمكنني تقديمه مما لا يضرني؟

قال المسؤول: يمكنك أن تقدم بعض دمك، فهو جزء منك، والتبرع به من أعظم أعمال الخير.

قال: لقد ظللت طول عمري أتبرع بدمي، وهو ما أكسبني بحمد الله ما تراه في من العافية.

قال المسؤول: فيمكنك أن تتبرع ببعض الأعضاء التي جعل الله منها عوضا في حال فقدها.

قال: مثل ماذا؟

قال المسؤول: مثل كليتك.. فقد خلق الله لك كليتين، ويمكن للإنسان أن يعيش حياة طبيعية بكلية واحدة.

قال: فها هي كليتي فخذوها.

قال المسؤول: ليس قبل أن تستأذن من له علاقة بك.

قال: من؟

قال المسؤول: إن كان لك أبوان، أو زوجة، فلا يمكن أن تتصرف في نفسك أي تصرف حتى تستأذنهم، ألم تسمع ما ورد في الحديث من أن رجلا أقبل إلى رسول الله ﷺ فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من الله، فقال ﷺ:(هل من والديك أحد حي؟)، قال: نعم كلاهما، قال:(فتبتغي الأجر من الله؟) قال: نعم، قال:(فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما)(1)

وفي حديث آخر جاء رجل إلى النبي ﷺ يستأذنه في الجهاد، فقال:(أحي والداك؟) قال: نعم، قال:(فيهما فجاهد)(2)

وفي حديث آخر أن رجلا جاء النبي ﷺ يستأذنه في الجهاد، فقال ألك والدة؟ قلت: نعم، قال:(اذهب فالزمها، فإن الجنة عند رجليها)(3)

وفي حديث آخر أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ يبايعه على الهجرة، وترك أبويه يبكيان، فقال:(ارجع إليهما فأضحكهما كما

1) مسلم.
2) مسلم.
3) ابن ماجه والحاكم.

أبكيتهما)[4]

قـال: أرأيت إن لم يوافـق هـؤلاء على ذلـك؟..ولا أحسـبهم يوافقون.

قال المسؤول: يبقى شيء يمكنك فعله يمتلئ منفعة، ويخلـو من أي مضرة، ولا يحتاج إلى أي استئذان.

قال: فما هو.. بشرني بشرك الله بكل خير؟

قال المسؤول: في المكتب المجاور يسجل كـل من يريـد أن يتبرع بأعضائه بعد وفاته.

قال: وهل يمكن أن ينتفع بالأعضاء بعد وفاة صاحبها؟

قال المسؤول: هناك بعض الأعضاء ينتفع بها.. وتحت شـروط سيخبرك عنها أصحاب المكتب الذي تسجل فيه.

أسرع الرجـل بخطـاه إلى المكتب، وهـو يحث خطـاه، وكأنـه يخاف على شيء أن يضيع منـه، تبعتـه إلى المكتب، فـرأيت جمعـا كبيرا من الناس كلهم يـود مثلمـا يـود، فـترتبت معهم في الصـف، وأخذت أسمع لما يقولون.

قال أحدهم: ما هي شروط الانتفاع بأجسادنا بعد وفاتنا؟

قـال: أن تبقى أعضـاؤكم سـليمة.. فلا يمكن لميت فسـدت أعضاؤه أن يستفيد أحد منها.

قال آخر: فكيف يمكن ذلك؟

قال: بأن تستأصل الأعضاء فور الوفاة.

قالوا: أي وفاة؟.. فقد سمعنا أن الوفاة أنواع.

قال الطبب: الموت يتحقـق بأحـد أمـرين: إمـا بتوقـف القلب توقفا لا رجعة فيه، ويقـرر ذلـك الأطبـاء المختصـون، فقـد يتوقـف قلب الشخص توقفاً مؤقتاً ثم يعود إلى النبض، فهنا لابد من توقـف القلب توقفا لا رجعة فيه.

والثاني هو موت الدماغ بما فيه المراكز الحيوية الهامـة جـدا والواقعة في جذع الدماغ، فإذا ماتت هـذه المنـاطق فـإن الإنسـان يُعد ميتاً، لأن تنفسه بواسطة الآلة (المنفسة) مهما استمر لا قيمـة له، ولا يُعطي الحيـاة للإنسـان. وكـذلك اسـتمرار النبض من القلب بـل وتـدفق الـدم في الشـرايين والأوردة (مـا عـدا الـدماغ) لا يُعـد علامـة على الحيـاة طالمـا أن الـدماغ قـد تـوقفت حياتـه ودورتـه الدموية توقفاً تاماً لا رجعة فيه.

قلت في نفسـي: فيمكن للإنسـان أن يمـوت، وتبقى الـدماء

---

4) البيهقي والحاكم وصححه.

تسري في عروقه تمد أعضاءه بالحياة!؟
التفت إلي، وقال: أجل.. ذلك صحيح.
قالوا: ما تقصد؟ ما هو الشيء الصحيح الذي تقره؟
قال: سمعت صدى نفس بعضكم، وهي تتساءل عن سريان الحياة في الأعضاء بعد وفاة الدماغ.
قالوا: وكائن ذلك؟
قال: أجل.. فقد يفصل رأس الشخص عن بدنه، فتتوقف الدورة الدموية عن الدماغ، ويموت الدماغ خلال دقائق معدودة (ثلاث إلى أربع دقائق)، بينما يبقى القلب يضخ الدم لمدة 15 إلى 20 دقيقة، ويتحرك المذبوح وهو أمر نشاهده عند ذبح الدجاجة أو الخروف، ولكن هذه الحركة ليست بذاتها دليلا على الحياة، طالما أن الدماغ قد مات.
والأمر ذاته يحدث في الشنق.. فعندما يشنق الإنسان تتوقف الدورة الدموية من الدماغ بينما يستمر القلب في الضخ لعدة دقائق قد تبلغ ربع ساعة إلى ثلث ساعة.. وفي هذه الفترة لا شك أن هذا الشخص قد مات رغم أن قلبه لا يزال ينبض، وذلك لأن الدورة الدموية قد انقطعت عن الدماغ، وقد مات الدماغ بالفعل.
قالوا: فإذا عرفنا أسباب موت الدماغ أمكننا أن نستفيد من الأعضاء قبل تحللها!؟
قال: أجل.. فمن ذلك إصابات الدماغ بسبب الحوادث، وأهمها حوادث المرور، كما في أرض الصراع.. فهذه الحوادث تمثل عندهم خمسين بالمائة من جميع حالات موت الدماغ.
ومنها نزف داخلي بالدماغ بمختلف أسبابه، وهو يمثل حوالي 20 بالمائة من جميع حالات موت الدماغ.
ومنها أورام الدماغ، والتهاب الدماغ وخراج الدماغ والسحايا وتمثل حوالي 20 بالمائة من حالات موت الدماغ.
قال أحدهم: فكيف يتم تشخيص موت الدماغ؟
قال: يتم تشخيص موت الدماغ حسب الشروط الطبية المعتبرة وأهمها وجود شخص مغمى عليه إغماءً كاملا.. ومنها أن لا يتنفس إلا بواسطة جهاز المنفسة.. ومنها أن تشخيص سبب هذا الإغماء، يوضح إصابة أو مرضاً في جذع الدماغ أو في كل الدماغ.. ومنها عدم وجود أسباب تؤدي إلى الإغماء المؤقت مثل تعاطي العقاقير أو الكحول أو انخفاض شديد في درجة حرارة الجسم أو حالات سكر شديد أو انخفاض شديد في سكر الدم أو غير ذلك

من الأسـباب الطبيـة المعروفـة الـتي يمكن معالجتهـا.. ومنهـا فحوصات تأكيدية مثل رسم المخ الكهربي وعـدم وجـود أي ذبذبـة فيه، أو عـدم وجـود دورة بالـدماغ بعـد تصـوير شـرايين الـدماغ أو بفحص المواد المشـعة أو غيرهـا من الفحوصـات الحديثـة.. ومنهـا ثبوت الفحوصات الطبية التي تدل على موت جذع الـدماغ وتتمثـل في عدم وجود الأفعال المنعكسـة من جـذع الـدماغ، وعـدم وجـود تنفس بعد إيقاف المنفسة لمدة عشر دقائق بشـروط معينـة منهـا اسـتمرار دخـول الأكسـجين بواسـطة أنبـوب يـدخل إلى القصـبة الهوائية ومنها إلى الرئتين، وارتفاع نسبة ثاني أكسيد الكربـون في الدم إلى حد معين (أكثر من 50 مم من الزئبق في الشريان).

قالوا: فإذا تم التشخيص وتعرفتم على حصول الوفاة.

قال: إذا تم التشخيص والتأكـد منـه بواسـطة الفريـق الطـبي المختص يتم إبلاغ المركز المكلف بزراعـة الأعضـاء، كمـا يتم إبلاغ أهل المصاب.

وحينذاك يحاول المكلفون بزراعة الأعضاء استئذان الأهل في استقطاع بعض الأعضاء الحيوية من متوفاهم لينقذوا بذلك مرضـى أو شكوا على حافـة الخطـر وأحـدق بهم المـوت، فـإذا أذن الأهـل بـذلك يتم اسـتقطاع الأعضـاء الحيويـة مثـل القلب، الكلى، الكبـد، وتزرع كل واحدة منها في شـخص معين يعـاني من مـرض خطـير وفشل لوظيفة ذلك العضو.

قالوا: فإذا رفض الأهل ذلك.

قال: ننظر.. فإن ترك الشخص إذنا بـذلك نفـذناه لأنـه بمثابـة الوصية.. فإن لم نجد نوقف المنفسة، وفي خلال ثلاث دقـائق على الأكثر يتوقف القلب والدورة الدموية.

قالوا: ولكنكم برفع المنفسة عنه يموت.

قـال: أجـل.. ففي هـذه الحالـة يسـوغ رفـع أجهـزة الإنعـاش المركبة على الشخص، وإن كان بعض الأعضـاء لايـزال يعمـل آليـا بفعل الأجهزة المركبة (1).

قالوا: فهمنا الآن سر العملية، فبين لنا مدى إمكانية نجاحها.

قـال: يختلـف ذلـك من عضـو إلى آخـر، ومن فـرد إلى آخـر، ولكن بالنسبة للكلى الآن من المتبرع الحي نسبة النجـاح أكـثر من

---

1) انظر: ما الفرق بين المـوت الإكلينـيكي والمـوت الشـرعي؟ الـدكتور محمـد علي البار،ود.عصام الشربيني: الموت والحياة بين الأطباء والفقهاء «نـدوة الحيـاة الإنسـانية»، الكويت، ومنشورة أيضا في مجلة مجمع الفقه الإسلامي 1408هـــ/ 1987م العـدد ج2/ 573-587.، موت القلب أو موت الدماغ، الدار السعودية، جدة، 1986م.

95 بالمائة، فقد تصـل إلى 97 بالمائـة ولكن المتـبرع من المـوتى تبدأ بنسبة 95 بالمائة في السنة الأولى، ثم تبدأ تقـل على مـدار 5 سنوات حتى تصـل إلى 80 بالمائـة، فـالكلى الـتي زرعت لـ 100 شخص ـ والمـأخوذة من متـبرع ميت ـــ نجـد أن 80 منهم لا تـزال الكلى المزروعة فيهم تعمل عملاً جيداً، وهي نسبة نجاح عالية جداً.

أما الكبد فإن النسبة فيها أقـل بقليـل من ذلـك لكن المراكـز التي تقوم بزراعة الكبد، وعندهم خبرة حققت نجاحا يصل إلى 85 بالمائة.

أما البنكرياس فإن نسبة النجاح أقل من ذلك.

أما القلب، فإنه يعتمد على المركز الذي يعمل هـذه العمليـة، وعندهم خبرة واسعة فيها، أو ربمـا خـبرتهم تكـون قليلـة باختصـار فإنها تعتمد على خبرة الأطباء الذين يعملون في هـذا المركـز، أمـا بالنسـبة للكلى فقـد أصـبحت عمليـة سـهلة ومنتشـرة في مراكـز متعددة جداً، وفي معظم أرجـاء العـالم تـتراوح مـا بين 85 -ـ 95 بالمائة.

قلت في نفسي: ألا يمكن استثمار أعضاء الحيوانات في هـذا المجال؟

التفت إلي، وقال: أحسنت في هذا.. لكن الجسم يرفض هـذا النـوع رفضـا شـديدا.. ولكن بواسـطة هندسـة الجينـات ربمـا في المستقبل القريب يتوقع أن يكون ذلك ممكناً.

بالإضافة إلى ذلك فإن بعض الحيوانات فيها أمراض فيروسية مثـل الخـنزير وأنواعـه والـتي يتـدربون عليهـا، وهـذه الأمـراض إذا انتقلت إلى الإنسـان فإنهـا تكـون خطـيرة، ومن هـذا الإنسـان قـد تنتقل إلى الآخرين عن طريق العدوى.

قال أحدهم: ولكن ألا يمكن أن تنمى هذه الحيوانات في بيئـة آمنة ومحفوظة جداً بشـكل دقيـق من الغـزو الميكـروبي أو الغـزو الفيروسي، والذي من الممكن أن ينتقل إلى الإنسان؟

قال: تلك فكرة طيبة، ونحن نعمل على النهوض بها.

البدائل الصناعية:

تـركت الجماعـة يتحـدثون مـع الأطبـاء، ثم سـرت في أرجـاء القاعة، وقد شد انتباهي مجسمات تحمل أعضاء مختلفة، فاقتربت منها، فخاطبني رجـل يقـف أمامهـا بقولـه: هـذه أعضـاء نحلم بـأن

نستفيد منها في تعويض أعضاء الإنسان التالفة(1).

ثم أضاف يقول: بعد نجاح علماء الهندسة الوراثية والنسـيجية في إنتاج جلد بشري، وغضاريف، وعظـام صـناعية.. يتجـه الهـدف الأكبر الآن نحو تصنيع كلى وكبـد وبنكريـاس؛ لتوفـير أعضـاء بديلـة تغطي النقص الشديد الذي يواجه عمليات زراعـة الأعضـاء، وتنهي الحاجة إلى أعضاء حيوانية غير مأمونة.

وفي المستقبل القريب ستظهر في المستشـفيات والمراكـز الطبية أعضاء صناعية تقـوم بوظيفـة أي جـزء من الجسـم أصـابه العجز.

وقد بدأت تباشير هذا الإنجاز في الظهـور قبـل فـترة قصـيرة حيث ظهر جيل جديد من الأدوات الهجينة، تتكون من جزء صـناعي وجـزء آخـر من الخلايـا الحيّـة، ولا تـزال تلـك الأجهـزة المسـاعدة بانتظار موافقة الجهات المعنية لتداولها بشكل رسمي.

فالإنسـان عنـدما يفقـد كـل أو بعض خلايـاه الحيـة النشـطة العاملة ليل نهار تتحول حياتـه إلى جحيم لا يطـاق، ولا أحـد يعـرف هذه الحقيقة المرة أفضل من مرضى الفشل الكلـوي، فكـل منهم يسـتعمل جهـاز الغسـيل الكلـوي من ثلاث إلى سـتّ مـرات كـل أسبوع.

وبـرغم فعاليـة هـذه الأجهـزة، فـإن متوسـط العمـر المتوقـع للمريض الذي يستعملها لا يزيد عن خمس سـنوات، ومن المعلـوم أن أكثر من نصف المصابين بالفشـل الكلـوي الحـاد يموتـون؛ إمـا نتيجة لعدم وجـود متـبرع لاسـتبدال الكليـة، أو للعلاج الكيميـائي أو نتيجة للمشاكل الصحية الإضافية الناجمة عن الغسيل الكلوي مثـل العدوى بأمراض فتاكة.

قلت في نفسي: فما الحل الذي وصـلتم إليـه، والـذي يخلص هؤلاء المساكين مما يعانونه.

دقق في عيـني، وقـال: أمـا أهـل السـلام، فلم يعـد لهم هـذا المرض مشكلة، فقد اتبعوا من الهـدي، والـتزموا من البركـات مـا حفظوا به أجسامهم..

قلت في نفسي: أريد الحديث عنا.. نحن الذين لا نـزال نـرزح تحت نيران الصراع.

دقق في عيني جيدا، وكأنه يقرأ شيئا مكتوبا، وقال: إن تجربة

---

1) انظر: خرطوش.. لإنقاذ ملايين البشر، 10 د.طارق قابيل، موقـع إسـلام أون لاين، بتاريخ: /02/2004.

طبية صغيرة أجريت في شتاء 2003 بالولايات المتحدة الأمريكيــة جددت الأمل في معالجة مبتكرة لمرض الفشل الكلوي الحادّ، فقد نجـا 6 من المرضـى من أصـل 10 على الـرغم من أن احتمـالات نجاتهم من الموت لم تتخط نسبة 20 بالمائة.

تساءلت في نفسي عن سـر هـذا الأمـل، فقـال: هـذا الأمـل الجديد كان على هيئة خرطوش بلاستيكي.

قلت في نفسي: فما الخرطوش؟

قـال: الخرطـوش: ترجمـة لكلمـتي Cartouche أو Cartridge، وهي دلالة على إناء يحتوي سائل أو قذائف، ويشبه هذا الخرطوش الكلية الصناعية، ويتكون من مليار خلية كلوية حية من خلايـا الكلى الإنسـانية الموزعـة داخـل 4 آلاف ليفـة بلاسـتيكية مجوفـة نصـف شـفافة، وسـمي هـذا الخرطـوش البلاسـتيكي بالكليـة الأحيائيـة الصناعية bioartificial kidney. وتقوم بتنقية الدم من المواد الضارة وتنتج مـواد مهمـة في مقاومـة المرضـى، وعلاج الفشـل الكلـوي الحاد.

وطـوّر هـذه الكليـة الجديـدة فريـق من العلمـاء بعـد أبحـاث اسـتمرت لعقـد من الـزمن. ويجـري حاليًـا تطـوير مشـروع لإنتـاج الكلى الاصطناعية الجديدة تحت اسم (كلية في خرطوشة)

سرت قليلا، فاستوقفني آخر، يحمل كبدا صناعية، فقال: هذه كبد حيوية صناعية.

قلت في نفسي: ما شأنها؟

قال: قد تتعـرض الكبـد لكثـير من الأمـراض الـتي تـؤدي إلى تليفها، وبالتالي فشلها وعـدم قـدرتها على تأديـة وظائفهـا المهمـة على أكمل وجه.. وللكبد وظائف كثيرة؛ فهي تعمل كمصفاة للـدم، فـإذا مـا تعطلت تسـمم الـدم، وتـأثرت وظـائف أعضـائه المهمـة وخاصة المخ.

ولهذا، فإن عملية زرع الكبد هي العلاج الوحيد الموجود لكثـير من أمراض الكبد المزمنة، وهذه التقنية الجديدة تقـدم بـديلا رائعًـا لزراعة الكبد، وقد أكدت التجارب الأولية التي أجـريت على البشـر أن هذه الأكباد الإحيائية الصـناعية يمكن أن تسـاعد مرضـى فشـل الكبد الحادّ على الحياة بصورة طبيعية.

سرت قليلا، فاستوقفني آخر، يحمل بنكرياسا صناعيا، فقــال: هذا بنكرياس صناعي.. لقـد قـامت المهندسـة (تيجـال دزي) الـتي تعمل في مجال الطب الحيوي بجامعة بوسطن الأمريكيـة بتطـوير

بنكرياس إحيائي صناعي جديد يمكن أن يطيل حياة المصابين بالسكري ويحرّرهم من وخز حقن الأنسولين.

وبدأت (دزي) بالسليكون، وتقوم بإحداث ثقوب دقيقة للغاية، ثم يشكّل السيليكون المثقّب على هيئة كبسولة تملأ بخلايا البنكرياس البشرية.

وقد زرعت كبسولات السليكون جراحيًّا في مجموعة من الفئران التي تم تدمير غدة البنكرياس بها، فمدت هذه الخلايا المزروعة الفئران بالأنسولين، وأبقت مستويات سكر الدم طبيعية خلال فترة اختبار استمرت لمدة أسبوعين، وبعد أن انتزعت هذه الكبسولات لم يوجد أي أثر للتخثّر، بينما ماتت الفئران منزوعة البنكرياس التي لم يتم تزويدها بكبسولات السيلكون في ظرف أيام قليلة.

قلت في نفسي: ولكن هذه الأعضاء في أحسن الأحوال تستخدم من خارج الجسم والخلايا المزروعة داخلها تبقى صالحة للاستخدام لبضعة أسابيع فقط.

قال: ومع ذلك ففيها الكثير من النواحي الإيجابية، فمثل هذا الدعم المؤقت يمكن أن يكون هدية قيمة للطب وللعلاج في العالم أجمع؛ فقد أظهرت التجارب أن بعض المرضى يمكنهم استعادة وظيفة أعضائهم بعد فترة من العلاج أو أن تبقيهم هذه الأعضاء الاصطناعية على قيد الحياة إلى أن يوجد متبرع، وتصبح أعضاء الزرع متوفرة.

العمليات التجميلية

سرت إلى القاعة الرابعة من قاعات مناسج الشفاء، وقد علق على بابها لافتتان، أما أولاهما فتحمل قوله تعالى: ﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾(الانفطار:7ـ 8)، وأما الثانية فتحمل قوله تعالى: ﴿ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ﴾ (النساء:119)

قلت في نفسي: عجبا.. كيف تقرن هاتان الآيتان في موضع واحد، مع أن أحدهما تحمل روائح المنة والفضل، والأخرى روائح الإضلال والمكر..

ما استتمت هذا الخاطر حتى جاءني رجل من أقصى القاعة يسعى، وهو يقول لي: لقد قف شعري مما توهمته نفسك.. ألا ترى أن الكل كلام الله.. والكل هدي الله.. ومن رحمة الله أن أخبرنا بما يخطط أعداؤنا ويهددونا به.

قلت في نفسي: ولكن ما سر الجمع بينهما في هذ الموضع؟

قال: ذلك سهل بتأمل بسيط.. فهاتان الآيتان هما القانون الذي يرجع إليه أطباء هذا القسم.

بقي الاستغراب في نفسي، فقال: سر في هذا القسم، وسترى صنفان من الناس، أما الأول فقوم من الورعين ابتلاهم الله ببعض ما يشوه خلقهم، فتورعوا من تغييره مخافة الوقوع فيما تذكره الآية الثانية، فنحن نخاطبهم بالأولى.

وأما الثاني، فقوم من المتساهلين أساءوا فهم الآية الأولى، فنحن نخاطبهم بالثانية.

قال هذا الكلام، ثم انصرف.

التغيير الإصلاحي:

سرت قليلا في القاعة، فرأيت رجلين يتحاوران، وقد وضع أحدهما شيئا على أنفه يستره به.

قال الأول: ليس هذا ميدان الورع يا أخي.. لقد خلق الله الإنسان في أحسن تقويم وفي أحسن صورة، وإن ما تعرضت له من تشويه يستدعي إصلاحه، ولا حرج عليك في إصلاحه.. إنه مثل أي دواء تتناوله.

قال الثاني: ولكني أخشى أن أكون ممن يغيرون خلق الله.

قال الأول: لا تخف.. لقد خلقك الله بخلق سليم.. ولكن الحادثات أثرت فيه.. وقد أجاز لك الشرع أن تصلح ما فسد.. ألم تسمع ما روي عن عبد الرحمن بن طرفة أن جده عرفجة بن سعد قطع أنفه يوم الكلاب، فاتخذ أنفا من ورق، فأنتن عليه فأمره النبي ﷺ فاتخذ أنفا من ذهب، وفي رواية:(فأمره النبي ﷺ أن يتخذه من ذهب)(1)

قال الثاني: أأجاز له النبي ﷺ أن يتخذ أنفا من ذهب؟

قال الأول: أجل.. لقد صح بهذا الحديث.

قال الثاني: ولكن الذهب حرام للتزين.

قال الأول: صدقت.. والذهب هنا لم يستعمل للتزين، وإنما استعمل للإصلاح، وهو رخصة، والله يحب أن تؤتى رخصه.

قال الثاني: أرأيت لو أن قومنا وصلوا إلى اختراع مادة لا تتغير ولا تنتن.. أيبقى الذهب جائزا؟

قال الأول: هو رخصة ذكرها النبي ﷺ.. والأصل بقاؤها.. ولكن مع ذلك، فالأولى هو التورع بدليل ما ورد في الحديث.

---

1) أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي.

قال الثاني: كيف ذلك؟
قال الأول: لم يتخذ الرجل أنف الذهب إلا بعد أن تغير له أنف الورق.
قال الثاني: بورك فيك.. فقد أزلت ما في قلبي من حرج.
تركتهما، وانصرفت إلى آخرين، لا يكادان يختلفان عنهما:
قال الأول: لا حرج عليك يا أخي، فيما تريـد أن تفعلـه، فليس هذا من تغيير خلق الله، فالله خلق لكل الخلق خمس أصابع.. ومـا هذه الأصبع الزائدة إلا شيء يتنافى مع الخلقة الأصلية.
قال الثاني: ولكن الله خلقها لي.. فهل أغير ما خلق الله؟
قال الأول: ليس هذا من تغيير خلق اللـه، بـل هـذا بمثابـة أي مرض يمرض به الإنسان، فيحتاج إلى علاجه.
قال الثاني: ولكني سمعت الطبري، وهو يتشدد في هذا.
قال الأول: فما قال ـ غفر الله له ـ؟
قال الثاني: لقد ذهب إلى أنه لا يجوز تغيير شيء من الخلقــة التي خلق الله عليها الإنسان بزيادة أو نقص التماسا للحسن، حـتى المرأة لا يجوز أن تفعل ذلك لزوجها، كمن تكـون لهـا سـن زائـدة، فتقلعها أو طويلة فتقطع منها، وكل ذلك داخل في النهي، وهي من تغيير خلق الله تعالى.
واستثنى الطبري من ذلك ما يحصل بـه الشـرر والأذى، كمن يكون لها سـن زائـدة أو طويلـة تعيبهـا في الأكـل، أو أصـبع زائـدة تؤذيها فيجوز ذلك، والرجل في هذا الأخير كالمرأة.
قـال الأول: ومن ألزمـك بمـا يقـول الطـبري.. إن غـيره من الفقهاء يخالفونه في هذا.. لقد ذهب كثير من الفقهاء غيره إلى أن هذه الزوائد عيب ونقص في الخلقة المعهودة، وقطعها يزيـل ذلـك النقص والشين، ويزيد الجمال.
قال الثاني: فهمت ما ذكرت.. فما شروط قطع هذه الزوائد؟
قـال الأول: شـروط بسـيطة.. وهي كلهـا تنظـر إلى جـوانب الضرر والمصلحة.. وأهمها أن تكون زائـدة على الخلقـة المعهـودة كوجود إصبع سادس في اليد أو الرجل.. وأن تؤدي إلى ضرر مادي أو نفسي لصاحبها.. وأن يأذن صـاحبها أو وليـه في القطـع.. وأن لا يترتب على قطعها ضرر أكبر كتلف عضو أو ضعفه.
قال الثاني: فما تقول في الزوائد الحادثة؟
قال الأول: لقد أباح الفقهاء قطع السـلعة والتـالول والخـراج، لأنها لم تكن موجودة في أصل الخلقة، وإنما حدثت نتيجـة مـرض،

فيدخل قطعها في التداوي المأذون به، ويشترط لذلك نفي الضـرر الذي هو قاعدة هذا الباب وكل باب.

التغيير التبديلي:

تركتهما، وانصرفت إلى رجلين آخرين يتحاوران:

قـال الأول: مـا بـك يـا أخي.. إن الإنسـان بحقيقتـه وروحـه لا بأعضائه وألوانه؟

قـال الثـاني: ولكـني تـأذيت كثـيرا بهـذه الخلقـة الـتي خلقت عليها، ولا أرى أنه من الحرج علي أن أغيرها بما يملأ قلـبي سـعادة وسرورا.. أليس التغيير من متطلبات الحياة.. ألم يقل اللـه تعـالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (الرعد:11)؟

قال الأول: أجل.. ولكن هناك فرق كبير بين التغيير والتبديل.. فالتغيير المراد في الآية هو إصلاح الفاسد، وتـرميم المعطـوب.. لا التغيير الذي تفهمه.. لأنه تغيير لخلق الله.

قال الثاني: ولكن كثيرا من الحاجات ترتبط به.

قال الأول: مثل ماذا؟

قال الثاني: سأضرب لك مثالا على ذلك بياولا يندسكو.

قال الأول: ما بها؟.. ومن هي أولا؟

قـال الثـاني: هي ممثلـة إيطاليـة.. وقـد أقـدمت على عمليـة تجميـل الأنـف، وعللت ذلـك بقولهـا:(أقـدمت على عمليـة تجميـل الأنـف بوصـفي ممثلـة، وليس بوصـفي امـرأة، وقـد انقضـى الآن شهران على ذلك.. كان الجميع قبل ذلك يقولون: إن عيبي الوحيـد هو ذلك التقوس البسيط الـذي يظهـر في أنفي، فمـا إن لاحت لي فرصة إجراء العملية حتى أقبلت عليها بنفس مطمئنة، وخاصــة أن الطبيب أكد لي أنه ليس هناك أي خطر منها)

قال الأول: فكونها ممثلة هو الذي دعاها إلى هذا؟

قال الثاني: أجل.. وقد أقرت بذلك، فقالت: (على أن الشيء الذي أود أن أسر به إلى سائر النساء هو أنه لو لم تكن مهنتي هي التمثيل في السينما لما جرؤت على هـذه العمليـة خاصـة أن فيهـا بعض المتاعب.. ومن ذلك: أني أمضيت أسبوعين أتنفس ليلا ونهار من فمي، ولا أستطيع أن أنقلب على الوسادة عنـد النـوم يمينـا أو يسارا، وإلا ضاع أثر العملية)

قـال الأول: فـالمرأة كـانت تحت سـيطرة المخـرجين الـذين أرادوا أن تكون على صورة مقبولة لأذواقهم؟

قال الثـاني: أجـل.. وقـد قـالت شـبيلا جابـل:(كنت في بدايـة

العمـل في السـينما، وكـان ذلـك حـوالي عـام 1960 م ولم أكن اسمع من المخرجين الذين قدموني إلا العبارة التالية: (لن تمهـري في السينما، ولك هـذا الأنـف).. فـإذا كـان أنفي يحـد من انطلاقي ويمنعني من الظهور أمـام الجمهـور،وفكـرت طـويلا في الأمـر، ثم عزمت على الإطاحة بهذا الأنف، وأسلمت نفسي لجـراح مشـهور، وأجريت لي الجراحة)

قال الأول: فـالمخرجون هم الـذين يملـون على الممثلين مـا يستهوونه من الصور!؟

قـال الثـاني: ليسـوا وحـدهم، فقـد يقـدم الإنسـان على ذلـك بمحض إرادته.. وسأضرب لك مثالا بالفتاة الأمريكية (كـاثي ليـوك) التي نشرتها جريدة الأخبار القاهرية، فهذه الفتاة استبدلت بوجههـا وجها آخر بشكل ياباني حتى تستطيع أن تتزوج من الشاب الياباني الذي أحبته.. وكانت كاثي قـد تقـابلت مـع هـذا الشـاب في مدينـة (يوكوهاما) حيث كانت ترافق والدها في رحلة عمل وأحبته إلى حد العبادة إلا أن أسرته كانت من الأسر اليابانية المحافظـة، فرفضـت أن تزوجـه إلا من إحـدى الفتيـات اليابانيـات.. وإزاء ذلـك: وحـتى تستطيع أن تتزوجه ذهبت إلى أحـد جـراحي التجميـل وطلبت منـه أن يغير ملامح وجهها حتى تبدوا كاليابانيات، فقام الطبيب بتعـريض أنفها وتغيير شكل حاجبيها حتى تصبح عيونها ضيقة، وبعـد كـل هـذا رفضت الأسرة الزواج.

قال الأول: وماذا عن الذي عبدته من دون الله؟

قال الثاني: لم يعجبه وجهها الجديد، وتركها، وتـزوج من فتـاة يابانيـة، فلجـأت مـرة أخـرى لجراحـة التجميـل لاسـتعادة وجههـا الأمريكي.

قال الأول: أرى أنك أجبت بنفسك على تساؤلاتك.. إن هــؤلاء يتلاعبون بخلق الله.. وهؤلاء هم أول من ينطبق عليـه قولـه تعـالى على لســان إبليس: ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ﴾ (النساء:119)

وهؤلاء هم الذين تـنزل عليهم اللعنـات الـتي أرسـلها ﷺ لمن غير خلق الله.

قال الثاني: لعنات.. أأرسل رسول الله ﷺ لعنات على هؤلاء؟

قال الأول: أجـل.. ألم تسـمع قولـه ﷺ:(لعن اللـه الواشـمات والمستوشـمات، والنامصـات والمتنمصـات، والمتفلجـات للحسـن المغيرات خلق الله)، وعن ابن مسعود قال: سـمعت رسـول اللـه

ﷺ نهى عن النامصة، والواشرة، والواصلة، والواشمة إلا من داء) (1)

قال الثاني: فما يدخل في هذا الباب؟

قال الأول: أكثر العمليات التي تجري في محال التجميل عندكم، كتغيير هيئة الأعضاء بالزيادة والنقصان، وشد التجاعيد، وإزالة الشحوم بعملية جراحية.

قال الثاني: فما في شد التجاعيد من الحرج؟

قال الأول: لقد خلق الله لكل مرحلة من مراحل الحياة وصفا معينا لا يجوز تغييره إلا بإذن الشارع.. والتجاعيد تظهر في الجسم نتيجة فقدان مرونة الجلد، ووقف حيوية بعض خلاياه، فتبدو ثنيات خفيفة على سطح البشرة، ثم تتضاعف هذه الثنيات، وتتعمق في داخل الجلد، فتظهر التجاعيد.

فالتجاعيد في الشيخوخة تكون طبيعية حيث تقل مرونة الجلد، وتقف حيوية بعض الخلايا وتظهر في الشباب نتيجة أسباب غير طبيعية منها: الإسراف في تعاطي الخمور والمنبهات والأمراض الباطنية التي تؤثر على الجهاز الهضمي والبولي وأعضائه المختلفة، والأمراض العصبية والأمراض النفسية الكثيرة كالحزن والكدر والتعب، والأمراض الجلدية المختلفة مثل حب الشباب، والأرق وعدم النوم الكافي للجسم، ومواد الزينة المصنوعة من المواد الكيماوية وغير ذلك.

وعملية شد تجاعيد الوجه تجري داخل شعر الرأس وخلف الأذن، ويستغرق إجراء العملية حوالي سبعة أيام، ويكون الوجه فيها متورما بعض الشيء، ونتيجة هذه العلمية ليست نهائية، بل تعود التجاعيد بعد خمس سنوات.

قال الثاني: فما هو وجه الحرمة فيما ذكرت؟

قال الأول: إن هذه عملية.. وهي مؤلمة.. ولا يجوز للإنسان أن يؤلم نفسه.. وقد تحمل مضرة لا ندري محلها.. ولا يجوز للإنسان أن يضر نفسه.. وهي مكلفة.. ولا يجوز الإسراف.. وهي فوق ذلك تجعل الإنسان عبدا لجسده منشغلا به انشغالا يخرجه عن أداء وظيفته.

قال الثاني: ولكن الجمال محبوب بالطبع.

قال الأول: الجمال بمعناه الشامل.. لا جمال التدليس والغرور.

1) أحمد.

قال الثاني: ولكن..!؟
قال الأول: أتحب جدتك؟
قال الثاني: لقد ذهبت إلى رحمة الله.. وأنا أحمل لها حبا عظيما.. وخيالي يختزن لها ذكريات رائعة.
قال الأول: فكيف كانت؟
قال الثاني: لقد كانت ممتلئة وقارا وهيبة.. وقد كان خمارها الأبيض يضفي عليها من الهيبة ما يجعلها ملاكا من ملائكة الجمال.
قال الأول: فهل كان بوجهها تجاعيد؟
قال الثاني: أجل.. كثيرة.. ولكني لم أكن أراها تجاعيد.. بل كنت أراها سواقي ممتلئة حنانا ورحمة.
قال الأول: أرأيت لو أن جدتك غرر بها بعضهم.. فحول وجهها إلى شابة تزاحم زوجتك جمالها.
قال الثاني: لا.. لا تقل هذا.. لا تشوه صورة جدتي الجميلة.
قال الأول: أرأيت.. فقد جعل الله في كل مرحلة من مراحل الحياة جمالها الخاص بها.. ومن العبث تغيير المراحل التي خلقنا الله عليها.. إننا لن نزيد أنفسنا إلا عذابا.
قال الثاني: أنا مقتنع بهذا.. فليس للشيخ ولا للعجوز أن يغير خلق الله.. ولكن الشاب والشابة.
قال الأول: لقد خلق الله لكل إنسان جماله الخاص به.. ومن الخطأ الكبير أن نتصور الجمال شيئا واحدا وصورة واحدة.. فما يزين شخصا قد يشين آخر..
قال الثاني: فلمن نرجع في تقدير الجمال؟
قال الأول: للبارئ المصور.. فالله الذي خلق الخلق هو الذي صورهم.

الخاتمة

بعـد هـذه الرحلـة الجميلـة في مـدائن السـلام، وبعـد أن امتلأت نفسي قناعة بفضل اللـه على عبـاده ومـا وهب لهم من أصناف فضله مما يرمم أجسادهم ونفوسـهم وأرواحهم، أخـذت نفسـا عميقـا طـرحت في شـهيقه كـل الوسـاوس الـتي كـانت تملؤني بالصراع، وشربت من زفيره كل ألوان السلام..

بعد ذلك النفس العميق لم أشعر بنفسي إلا وأنـا بين أهلي وفي بيـتي، وقـد رأيتهم ينظـرون إلي نظـرة ممتلئـة بـالحزن والألم.. فسألتهم: ما الذي حصل؟

قـالوا: بـل أنت الـذي تخبرنـا مـا الـذي حصـل.. وأين كـان عقلك.. ومع من كنت تتحدث طيلة اليومين السابقين؟

أردت أن أخبرهم عن معلم السلام، ومـدائن السـلام، ومـا رأيت من عجائب، وما اكتسبت من معـارف، لكـني وجـدت أني لو فعلت ذلك، فإني سـأفتح بابـا يصـعب علي إغلاقـه، وسـأظل أجادلهم، ولا ينتهي جدالي، وسأظل أصارعهم، وأنا موقن أني لا أصـارع أحـدا إلا غلبـني، لـذلك تظـاهرت بعـدم علمي بشـيء.. وقلت لهم: لم أفعل أي شيء.. لقـد كنت هنـا، ولم أفـارق هـذا المكان.. وعقلي معي طبعا.. هو دائما يرافقني..

لكنهم فاجأوني بجهاز تسجيل.. شغلوه.. فسمعت صـوتي، وهـو مـرة يسـأل معلم السـلام.. ومـرة معلم الطعـام.. ومـرة يتحدث مع ابن سينا.. وأخرى مع الزعتر والبابونج..

والحمـد للـه أن الأصـوات الـتي سـجلت لم يكن فيهـا إلا صوتي وحده، أما سائر الأصوات الـتي كـانت تتحـدث معي، فلم تفلح أجهزتهم البدائية في تسجيلها..

لم أهتم كثيرا بمـا عرضـوه علي، بـل رحت أضـحك لأزيـل عنهم مـا ألم بهم من ألم.. لكنهم واجهـوني بمـا لم يكن في حسباني، لقـد ذكـروا لي أنهم سيعرضـون ذلـك التسـجيل على طبيب نفسي ليشخص حالتي، ويعالجني على أساسها..

طلبت منهم ألا يفعلـوا ذلـك.. وألا يفضـحوني، ويفضـحوا أنفسهم.. لكنهم أبوا علي..

لم أعر الأمر اهتماما كبيرا، لولا أننـا في ذلـك المسـاء كنـا مجتمعين أمام التلفزيون، وأمـام برنـامج من الـبرامج الصـحية،

وفجـأة سـمعت جـزءا من ذلـك التسـجيل الـذي سـجل لي، وسمعت بعده طبيبا يقول: هـذا التسـجيل الـذي سـمعتموه هـو لمـريض من مرضـاي، وهـو يـبين نمطـا من أنمـاط الأمـراض النفسية الغريبة.. وهو

قاطعه المذيع قائلا: أرجو أن تخبرنا عن صاحب التسجيل.. لعلنا يمكن استضافته في هذا البرنامج.

قال الطبيب: لا .. هـذا لا يمكن .. فدسـتور الأطبـاء يمنعنـا من فضح المرضى..

قال المذيع: لا بأس .. فاذكر لنا مهنته والبلـد الـتي يسـكن فيها وبعض المعلومات عنه من غير التصريح باسمه.

أخذ الطبيب يذكر كل المعلومات عني، وبتفصيل شـديد، لا ينقصه إلا ذكر اسمي، والبيت الذي أسكنه، وقد سـبب لي ذلـك حرجا شديدا أمام جيراني، وغيرهم، فقد كنت كلمـا لاقيت أحـدا منهم يطلب مني أن أسلم على ابن سـينا.. أو على الـرازي.. أو على أبقراط.. أو على جورج أوشاوا.

بل بلغ التهكم ببعضهم أن راح يطلب مني أن أبلـغ سـلامه لزهرة البابونج.. وآخر للهندباء.. وآخر للزيزفون..

وقد ألجأني ذلك إلى المكوث فترة في بيتي إلى أن زارني معلم السلام، وعلمني درسا جديـدا من دروس السـلام قضـيت بـه على كـل تلـك الآلام.. وسـأذكر لكم قصـة ذلـك في الـوقت المناسب إن أذن الله.

هذا الكتاب

تحاول هذه الرواية بكل وسائل الإقنـاع أن تـبين أن فضـل الله العظيم المرتبط بصحة الإنسان وعافيته وسـلامته أكـبر من أن يحـد في زمن دون زمن، أو نظـام دون نظـام، أو جهـة دون جهة..

ففضل اللـه في علاج خلقـه يمكن أن يكـون في (مطـاعم الشفاء) والأغذية التي يتناولها الإنسان فيها، والـتي تحـدث فيـه آثارا مختلفة .. سواء عزونا ذلك للأخلاط والأمزجـة.. أو عزونـاه إلى الين واليـانع.. أو عزونــاه إلى الفيتامينــات والمعــادن.. أو عزوناه إلى ما شئنا من أسباب..

وفضـل اللـه في علاج خلقـه يمكن أن يكـون في (مـزارع الشفاء)، وهي المزارع التي تستنبت فيها كـل أنـواع الأعشـاب، وتجـرب فيهـا كـل أصـناف التجـارب، ليكتفي الإنسـان بالـدواء المنزل عن الدواء المصنوع.. لأن الله ما أنزل داء إلا أنزل معـه دواءه الذي يعالجه.

وقـد يكـون في (مصـانع الشـفاء)، وهي المصـانع الحديثـة التي تؤدي دورها في العلاج في حال لم تفلح مطاعم الشفاء أو مزارعه..

وقد يكون في (مناسج الشفاء)، وهي المحال الـتي تجـرى فيها العمليات الجراحية بمختلف أنواعها.

هـذه فصـول هـذه الروايـة، وهي تحـاول أن تنشـر ثقافـة صحية واعية وشرعية لتبعـد القـارئ عن الـدجل الـذي يمارسـه المخادعون من الرقاة أو من إخوانهم من الأطباء الـذين فرحـو بعلمهم، ولم يتواضعوا لما علم الله به أهل العصور من قبلهم.